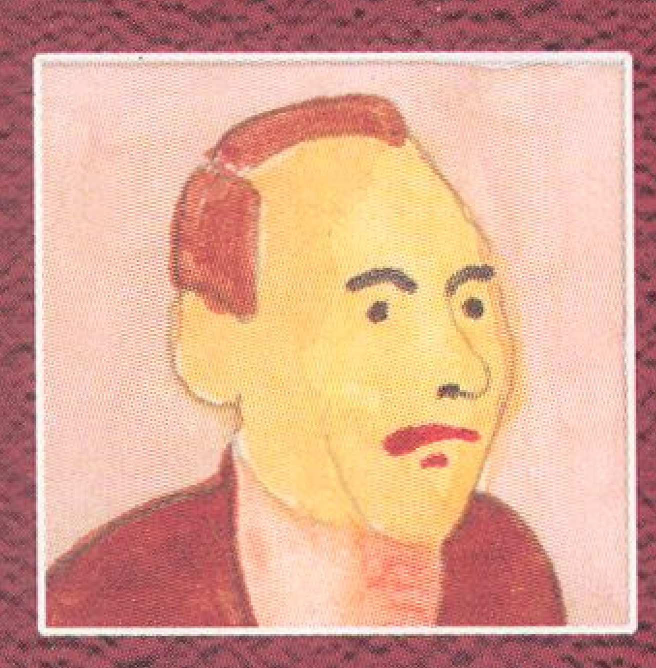
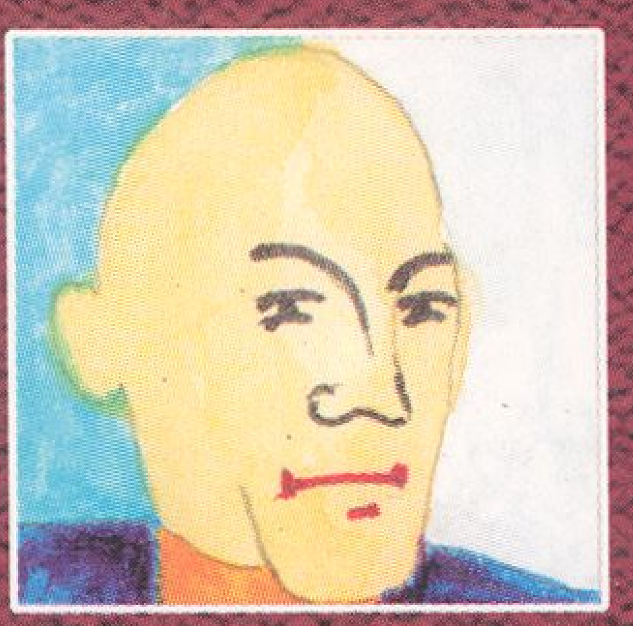
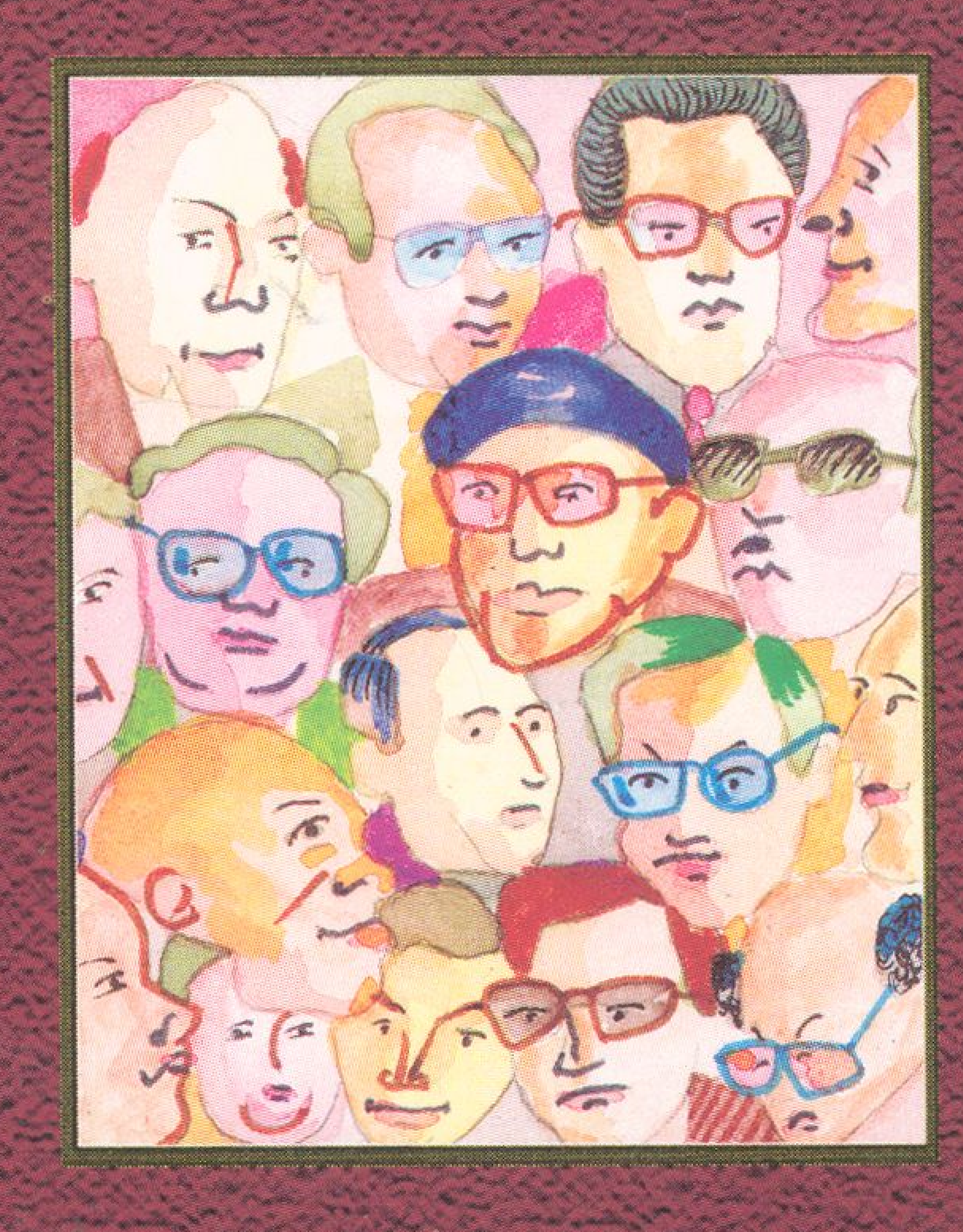
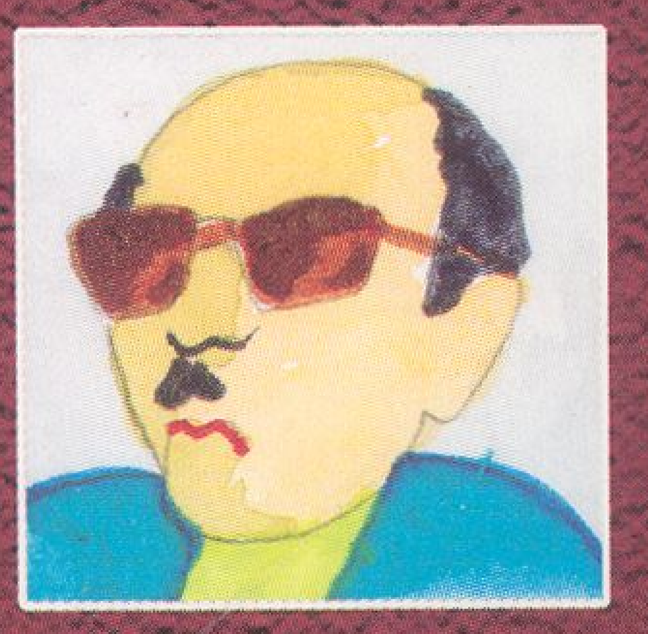
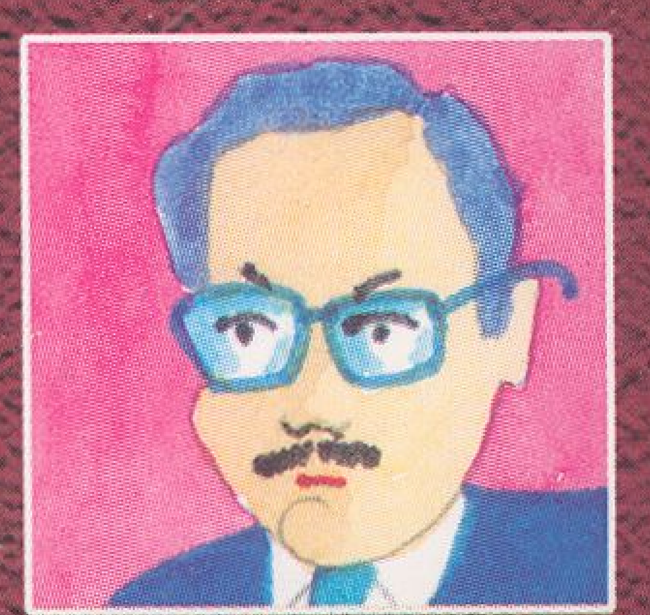
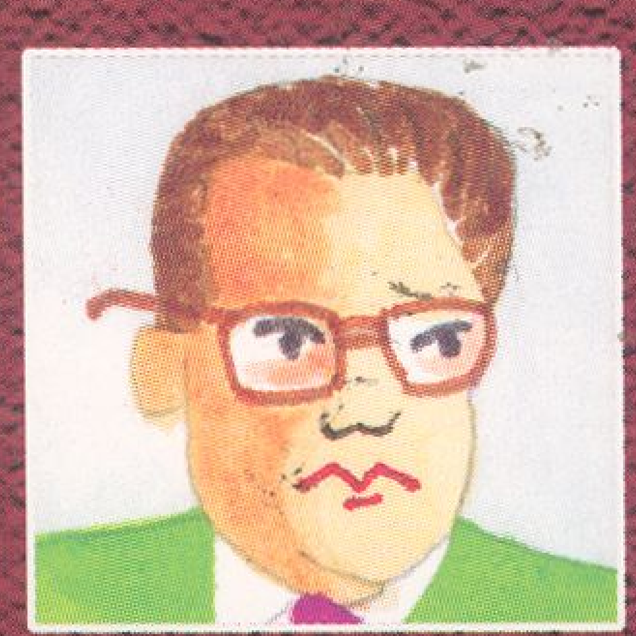
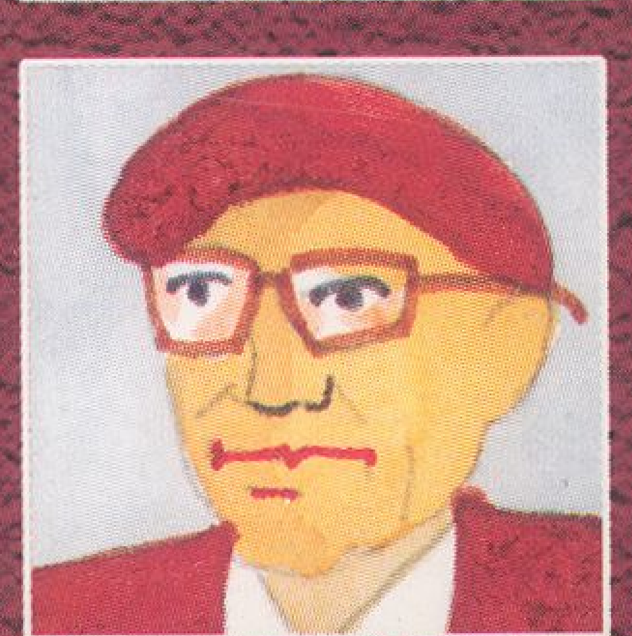
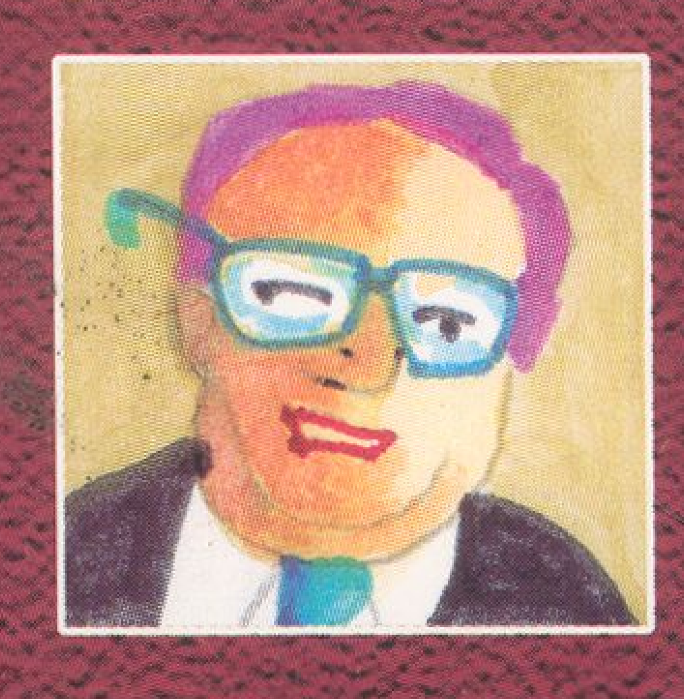
د. عبد الحكيم بدران

خيانة المثقفين

خيانة المثقفين

د. عبد الحكيم بدران

الطبعة العربية الأولى: ١٩٩٩

رقم الإيداع: ١٨٤٩ / ٩٩

الترقيم الدولي: I.S.B.N.977-291-132-9



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : لمياء على عبد الحميد

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

ت : ٣٤٤٨٣٦٨ ، ف :٣١٤٨٠٤٢

د. عبد الحكيم بدران





إهداء ..

إلى زوجتي العزيزة ليلى العريان ،،

قالوا:

«ويمكن القول أن نظرية هتنجتون - وهى فى رأيى إعلان حرب شمولية على كل الحضارات التى لا تساير القيم الغربية - توضع الآن محل التنفيذ.»

إدوارد سعيد

«من المؤكد أننا جميعاً نريد السلام ولكن هذا لايعنى أننا نريد السلام بأى ثمن»

كارل بوبر

«إنه إذا كان المطلوب من مصر ثمناً سياسيا مقابل المساعدات التى تتلقاها من الولايات المتحدة ، وهو ثمن ستدفعه الأمة العربية من حقها وكرامتها، ألا تستطيع الدول العربية أن تعوض مصر عن هذه المساعدات وتحميها من السيف الأمريكى ، ربما تحفظ لها دورها واستقلال قرارها لأن المستهدف ليس مصر فحسب ، وإنما الأمة العربية كلها» .

صحيفة الخليج الإماراتية بتاريخ ٤/ ٤/ ١٩٩٧

«الغموض فى الشخصية القومية حولنا إلى إسفنجة تمتص ثقافات الآخرين»

د . سعاد الصباح

«حلمى متعطش إلى قدسى ، أراها قبل مماتى»

المطران كبوتشى "مطران القدس"

«المفكرون العرب يتكلمون عن مجتمعاتهم بلغة أجنبية ولا يتركون مجتمعاتهم تتكلم عن نفسها بلغتها العربية» .

المؤلف

مقدمة

أخى القارئ المواطن الكريم

دائماً ينكسر الحلم الذى يراودنا ونحن نحاول النهوض. فبعد الصعود فى عصر محمدعلى، حدث الانكسار ، ويظل الحلم حتى تصورنا أننا نقوم من جديد مع ثورة يوليو ، وما يلبث أن يضيع مع أحداث يونيو ١٩٦٧، وما أن تبدو بادرة أمل مع حرب أكتوبرحتى ينكسر الحلم مرة أخرى ونحن نذهب بعيداً عن جنى حصاد النصر .

ويعبر الرئيس حسنى مبارك فى احتفالات مرور خمسة وعشرين عاماً على نصر أكتوبر عن دهشته لعدم تسجيل الكتاب والمفكرين لحرب أكتوبر بالصورة التى تليق بها ، ويفوت الرئيس أن يدرك أن حلاوة النصر ونشوته لم تستمر طويلاً ، فسرعان ما أخذنا السادات إلى حبال مفاوضات السلام بقرار منفرد . فبعدنا عن الصف العربى - وانعزلت مصر عن الجامعة العربية لمدة عشر سنوات ، وحتى لو كان العرب هم المخطئين ، فالصورة بدت قاتمة أمام الكتاب والمفكرين ، والمواطنين العاديين ، ولم يصعد الحلم مرة أخرى ، والأمة تتعرض للكوارث والنكبات ، حتى تم حصارها ، من جميع جوانبها ، تتمادى إسرائيل فى غطرستها ، ويموت أطفال العراق ، ويجوع البشر فى السودان ، وتقع ليبيا تحت الحصار والأمة على وشك التمزق وتقطيع أوصالها . وها هى تركيا تدخل فى حلف مع إسرائيل لتحاصر الأمة العربية وتأخذ فى تهديد سوريا . والأمة لا تملك إلا الرضوخ لمطالب تركيا تحت ستار المصالحة والتشاور .

نحن فى مأزق ، سيادة الرئيس ، ولو استمرت روح أكتوبر ما ظللنا نواجه هذا المأزق التاريخى الذى توشك فيه كلمة السلام أن تحمل معنى الاستسلام .

عفواً يا سيادة الرئيس ، هناك صورة تبدو ظاهرة للتنمية ولكن تكلفتها كبيرة ، الكل فيما عدا طبقة رقيقة يغرم ، ويدفع ، والأحوال الاجتماعية تسوء ، والفساد ينتشر ، والتعليم والبحث العلمى لا يتقدمان خطوة إلى الأمام ، والناس فى حيرة يتساءلون ، كيف ندخل إلى القرن الحادى والعشرين؟ لا أحد يستطيع أن يتكهن بمدى نجاحنا فى المشاركة فى بناء التقدم العلمى والتقنى الحادث فى العالم البعيد عنا .

نحن أمام قضايا داخلية وخارجية بالغة الخطورة ، وكان من واجب كل مثقف أن يتخذ منها موقفاً محدداً واضحاً ، يتخذه حسب مرجعية تؤكد على هوية المجتمع ورسالته غير أن السيولة والميوعة فى مواقف المثقفين جرتنا إلى حالة من التمزق ، استفاد منها العدو الخارجى ، وفقدنا روح التماسك والالتزام والانتماء . وأصبحنا من جديد تحت حصار صليبى دون جيوش ، سهل مهمته طابور خامس من جنسنا ، سلمنا فريسة سهلة لقوى الهيمنة .

ولا يجب أن نُخدع بما يقال بأن مانحسبه خيانة ما هو إلا تعبير عن الرأى الآخر . فالمطالبون بالتطبيع مع العدو الإسرائيلى أو من يطبقونه فعلاً إن لم يخونوا الأمة بالمعنى الحرفى ، فقد خانوا عهداً أخذه المثقفون على أنفسهم ، وإذا كانت الدعوة إلى الحوار مع السلاميين الإسرائيليين تدخل فى نطاق حرية الرأى فهل تمثل الدعوة إلى احتفالية مرور مائتى عام على الحملة الفرنسية على مصر تعبيراً أيضاً عن الرأى ، أم ينطبق عليها قول أحد الأصدقاء«اللى مايلحقش أمريكا يلحق فرنسا». ويبدو الآن أن الخيانة أصبح يُعبر عنها بوجهات النظر ! !

والخيانة أخطر من ذلك بكثير ، تتمثل فى الوقوف مع السلطة ضد رغبات الشعب وأمانيه ، وتبرير أخطاء النظام الحاكم ومفاسده ، أو الوقوف مع الأجنبى والعمالة الثقافية تحت دعاوى خادعة ومغرضة ، والاعتقاد أكثر من اللازم فى الأنا حتى نظلم الآخر ونستبد به ونلغى كيانه وأفكاره ، والأهم من ذلك خيانة الأمة بمحاولة طمس هويتها وإنكار ذاتها لتفقد بالتالى اتزانها وتظل تتخبط فى نفق لا ترى الضوء فى آخره.

ولعلنا نقف هنا لنتساءل عن الأسباب التى جعلتنا على هذه الحال ، من يخون حلم الشعب ، وآماله؟ البعض حاول أن يجيب عن السؤال . فنقلت وجهات نظرهم - كقارئ ، وليس كمفكر أو كاتب - إلى صفحات هذا الكتاب ، ما فعلت إلا أن جمعت شهادة المثقفين على ما فعلت أياديهم فى القرن المنصرم مع تعليق بسيط من مواطن غير متخصص ، من حقه أن يقول رأيه فيما يقرؤه ، فى محاولة لتبادل الرأى والفكر مع مواطنيه ، وجاهدت لكبح إرادتى فى صياغة خلاصة لما تم جمعه وكتابته فى الأوراق ، تاركاً ذلك للقارئ الكريم ، راجياً أن يتجاوب مع رغبتى الأكيدة فى الحوار حول الأزمة الحادة التى نواجهها ، ولايتردد فى أن يدلى برأيه فى معالجتها ومناقشتى فيما ذكرت .

وفى انتظار الرد أوالتعليق ، أتمنى للقارئ الكريم رحلة طيبة مع صفحات الكتاب ..

المؤلف

مصر فوق الجميع

لابد أن يتوقف القلم الآن عن الكتابة فى موضوعات تقليدية ، نحسبها ذات أهمية قصوى، وهى قد تكون كذلك ، ولكن الواقع أبعد بكثير عما نحسبه فعلاً . فكثير من الكتابات التى يُبذل فيها الجهد لا تجد طريقها إلى قارئ مهتم، فلا أحد يقرأ ،لا الصغار ، ولا الكبار، ولا أساتذة الجامعة ، ولا الكتّاب أنفسهم .

وإذا كنا نعلم فعلاً هذه الحقيقة فلماذا إذن نكتب ؟

ربما إرضاءً للنفس وطمعاً فى الشهرة والمجد ، سعياً للحصول على جائزة ما ، التشجيعية مثلاً، وبعدها الإعداد لإصدار إنتاج أكبر ، طمعاً فى الحصول على التقديرية .

جاوزت كتبى العشرين كتاباً ، ومقالاتى قاربت المائتين . وكنت على وشك الانتهاء من كتابين: الأول بعنوان الثقافة العلمية ، والثانى عن اكتشافات القرن العشرين،كنت أنوى نشره مع إهلالة القرن الجديد .

أما آخر كتاب لى فكان بعنوان "الإعلام والتوعية العلمية " ، أرسلته للنشر بسلسلة عالم المعرفة التى يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والعلوم بدولة الكويت * - لم يشأ المشرفون على السلسلة أن يُنشر لديهم بحجة أن أحد أبوابه جاء بطريقة سلفية فى حين أن الكتاب علمانى فى فصوله الأخرى . لا داع لذكر تفاصيل أكثر عن هذا الكتاب فلقد أخذ طريقه إلى النشر دون أى تعديل على مسّودته ضمن إصدارات المجلس الأعلى للثقافة بجمهورية مصر العربية بعد أن أجازته للنشر لجنة الثقافة العلمية التى أحالته للتحكيم.. وجاءت النتيجة لصالح الكتاب.

وقبل صدور هذا الكتاب بشهور قليلة نلت شرف منحى جائزة الدولة التشجيعية فى التربية البيئية، اختراق آخر لصفوف الآلهة ، فلولا وجود نفر من علماء العلوم الطبيعية فى لجنة فحص

(*) المجلس الوطنى للثقافة والعلوم بدولة الكويت غير مسئول عن رفض نشر الكتاب ، إنما ترجع المسئولية إلى المُحكم .

الإنتاج لما مُنحت الجائزة قط ، فلست من التربويين بالولادة ، وتخصصى الأصلى علم الكيمياء . ومهما بلغ علمى التربوى من أصالة وقوة لا يعترف بى التربويون - هكذا تسير الأمور فى البلاد العربية . حيث يتحكم التعصب الأعمى الضيق ، فالتعصب المهنى فى حياتنا هو المألوف ، ينقله الأفراد معهم أينما رحلوا ، ويظلوا يحملونه حتى ولو أصبحوا علماء . مفكرين أو كتّاباً . التعصب يلازمنا ويتحكم فى تصرفاتنا وأعمالنا وأفعالنا وقراراتنا .

ومع تعصبهم هذا خلقوا من أنفسهم آلهة ، هم الكبار ، وهم العلماء ، والأذكياء ،وأصحاب التخصص والخبرة والمعرفة الفريدة .لا سلطان عليهم ، فهم السلطة العليا ،أصحاب الأمر والنهى والآخرون ...؟!

وفى ظل هذا الأسلوب فى التفكير ينكمش العمالقة ، ويصغر الكبار ، وتضمحل الموهبة ويتخلف الذكاء بدلاً من أن ينمو ويزدهر ، وفى ظل الانغلاق فى غياهب التخصص الدقيق الضيق يبعد العالم الكبير عن مشكلات البيئة وأحوال العصر ، وعن شئون المجتمع والناس وأنظمة المعرفة الأخرى . ويضع هالة مزيفة هلامية من حوله حتى لا ينكشف فقره وجهله وتعصبه.

ومع هذا يتكلم المتحذلقون عن التسامح والتعددية . أى تسامح وأية تعددية يدعو إليها هذا الطاووس الذى يقول فى قرارة نفسه" يا أرض اتهدى, ما عليك قدى " .

انزوى الجميع منذ البداية ،كل فى وحدانيته ينكفئ على ذاته يعبدها ويقدسها ، هؤلاء الذين يتكلمون عن التنويراليوم وإعلاء سلطة العقل ، مقابل انهيار القيم الدينية والأخلاق ، من منطلق حبهم الشديد لذواتهم اعتقدوا فى أنهم رُسل المدنية والحضارة الحديثة إلى أهل التخلف المسلمين، يرددون وراء الغرب الماركسى أن الدين أفيون الشعوب ، واللاماركسى (موت الإله) ، لا اعتراض فليمت الإله ، وماذا بعد ؟هل سنتقدم ؟. أشك فى ذلك ، لقد أمات الغرب الإله لمصلحة العلم الطبيعى ، أما أصحاب دعوة التنوير عندنا فلقد أماتوا الإله لمصلحة الأدب والفلسفة ، فلسفة لا يفهمونها، ونظريات فى النقد الأدبى ينقلونها ، وبدأت القصة مع **طه حسين** والشعر الجاهلى وانتهت مع عميد العلمانيين فى وقتنا الحالى "**جابر عصفور**" . ولا تنسب له العمادة لعلمه أو فضله ، إنما لمركزه كأمين للمجلس الأعلى للثقافة ، فهويشارك فى توجيه نشاط المجلس الثقافى إن لم يكن هو العنصر المهيمن فى وزارة الثقافة .

ومن المحتمل أن يكون **جابر عصفور** ، الكاتب الوحيد فى العالم الذى تنشر له مجلة أو

جريدة مقالاً ثابتاً فى أعدادها الدورية ، وإن لم يكن الوحيد فى العالم فعلى الأقل هو الأوحد فى البلاد العربية . وهذا ما يحدث له مع مجلة العربى وجريدة الحياة . ورغم عدائه الشديد للتراث ودعوته الصريحة للتنوير الغربى ، فمعظم مقالاته الأدبية التى تنشرها له مجلة العربى - مقالات تراثية عربية صرفة ، تتفق وتخصصه كأستاذ فى الأدب العربى . وينطلق **جابر عصفور** فى دعوته للتنوير من ثقافته الأدبية ، وبالتالى يلحق بالتنويريين الأدباء كتّاب الجيل السابق الذين يعيب عليهم هو نفسه عدم فهمهم للتنوير .

ويصر **جابر عصفور** على التسامح داعياً له بقوة ، متناسياً أننا لم نصل إلى ما نحن عليه من جهل وتخلف إلا بفضل تسامحنا ، على الرغم من أننا شديدو التعصب لذواتنا ، أما الوطن ، الأمة ،المبادىء الكبرى ، فلا تهمنا ولا تشغل فى تفكيرنا حيزاً مناسباً.

لقد تسامح المسلمون مع الأديان والجنسيات الأخرى ، وماذا كانت النتيجة ، سقط الأندلس ، وضاعت فلسطين والإسكندرونة ، وأجزاء أخرى على وشك الضياع ، بل يمكننا أن نقول بصراحة أكبر أن الأمة كلها على وشك الضياع ، تندلع الاضطرابات العقائدية والأثنية فى كثير من أجزاء الأمة العربية ، فى العراق ، والسودان ، والصحراء المغربية ، وما يحدث فى الجزائر خير دليل على غياب قوى الجماهير الفاعلة فى اتخاذ قرار المصير . . المصير المجهول .

ولأننا متسامحون أكثر من اللازم ، أصبح مستوى التعليم كما نراه الآن فى المرحلة العامة والجامعية ، الكل ينجح دون مراعاة المستويات العالمية و متطلبات العصر ، ولأننا متسامحون يُرقى جميع أعضاء هيئة التدريس إلى درجات أعلى بأى إنتاج حتى الوصول إلى الأستاذية .

ولأننا متسامحون أكثر من اللازم ، لا يبالى العاملون بقضية الإنتاج والجودة ، ونعانى فى قضاء حاجاتنا فى دواوين الحكومة ، ويقل الإنتاج ، وتسوء النوعية ، ويتخلف الاقتصاد .

ويبدو الآن أن **جابر عصفور** وأضرابه يجروننا بتنويرهم إلى لا شىء ، إلى لا تقدم ، إلى خواء، إلى فراغ سياسى وثقافى غريب بلغ حد الأزمة ، لأنه فى وحدانيته يظن أن ما يقوله هو الإبداع ذاته، ولا عجب فلقد قال فى إحدى الندوات : **"إننا إذا جئنا بما قاله مونتيسكيو فى الغرب وعرّبناه فهذا إبداع"** ، - إبداع على الطريقة العصفورية التى لا ترى التناقض الكبير الذى يسم أشخاصنا ، نحن المتعصبين ، المتسامحين .

مفكرنا العربى الذى يدعو للتسامح ، هو فى الوقت نفسه أكثر الناس تعصباً لرأيه ولعشيرته وقبيلته .

وهكذا سار بنا مفكرو العهد الحالى إلى لا شىء ، إلى لا تقدم . معظمهم ، إن لم يكن كلهم ، ماركسيون ، عقدتهم دون أن يفصحوا عنها عبد الناصر . البعض يتصور أنه كان من الممكن أن يصل الشيوعيون إلى الحكم لولا أن سبقهم عبد الناصر ، والبعض الآخر ركب الموجة الجديدة . موجة العولمة والنظام العالمى الجديد الذى تباركه أمريكا والغرب وخزائن شيوخ البترول .

مع أنهم كانو أكبر الدعاة لنظام شبيه له ، النظام السوفييتى الشمولى - ولم يتعرضوا له بأى نقد قبل سقوطه - ولم نقرأ لهم عن أى إبداع فى الماركسية . والحقيقة أن دعوة عبد الناصر إلى القومية العربية أضرت بهم كثيراً ، وهدمت ركناً أساسيا فى نظريتهم الماركسية ، على الرغم من أن بعضهم يتشدق بمحافظة النظم الشيوعية على القوميات داخل أطرها .

كانوا ماركسيين إلى النخاع ، وفجأة انقلبوا إلى الفكر الليبرالى الغربى ، ولكنهم يغالون فيه فيدّعون بعالمية الثقافة الغربية التعددية ، وفى ذلك إصرار على معتقداتهم السابقة ! لا دين ، لا قومية، لا وطنية ، الوطن هو العالم الكبير ، والماركسية فى البداية هى الأيديولوجية المسيطرة ، أما الآن ففكرة العالم هى الأيديولوجية الجديدة مع مزيد من التفاصيل قد تكون مع دريدا مرة وكونديرا أخرى ، ومع توفلر ، وكون ، وبوير .

مع كلام يعبر عن الواقع الغربى ، أما الواقع المصرى وآمال وآلام المجتمع ، لا يشغلهم ، لا تهمهم قضية السلام ، ولا يعنيهم أن تضيع القدس ، لا شعور بالروح الوطنية ، ولا إحساس بالقومية ، مفهوم عالم واحد يحقق لهم أحلامهم التى اعتقدوا فيها كثيراً : لا قومية ، ولا دين ، ولا عقيدة ، ولا مجتمع .

فى هذا الجو المشحون بالأوهام الذى تخيم عليه أشباح الضياع يجب أن يقف القلم للحظة - ليفكر صاحبه : هل تريد أن تستمر فى الكتابة بغرض الحصول على التقديرية ؟ يمكننى أن أفعل ذلك إذا دخلت ميدان الدعارة السياسية . ولما كنت لا أجيد هذا الفن كان علىَّ أن أحول القلم إلى نوع آخر من الكتابة قد يجر علىَّ الكثير من المتاعب ، ولكنه فى النهاية سيكشف كل أنواع الزيف والضلال ، وتظهر حقيقة ما يجرى على الساحة الثقافية ، وهو فى النهاية ليس فى مصلحة مصر ولا المواطن المصرى .

لحظة تأمل قبل أن أسترسل فى الكتابة ، هل من المعقول أن تأخذ مسألة أولاد حارتنا وفيلم المهاجر، كل هذا الحيز من صفحات الحوار ، لماذا ؟ وهل هذا الحوار هو المنطلق لتقدم هذه الأمة؟

هل من المعقول أن يخدم تكفير **نصر حامد أبو زيد** أو **حسن حنفى** أو **السيد القمنى** الإسلام، على

العكس تماماً سيجعل منهم شهداء وأبطالاً وسوف ينالون اهتمام العالم الغربى المناهض للإسلام.

وإن تجاهل هؤلاء يثرى كثيراً الثقافة الإسلامية ، فهم مدفوعون بقوى الشر يريدون أن يمتصوا جهد المسلمين الغيورين على إبراز الدين الإسلامى كمنهج للحياة والتقدم .

قد أنقد **حسن حنفى** من الناحية العلمية بعيداً عن مدى إيمانه وعقيدته ، خسارة كبيرة فى رأيى أن ينحاز حسن حنفى للنقل عن المفكرين الغربيين دون أن يستطيع أن يؤصل الفلسفة أو الفكر الإسلامى . ولعلى لا أكون مبالغاً إذا دعوت للفصل بين الثقافة وعلوم الفقه والشريعة . ولعلى لا أكون مخطئاً إذا قلت أن علم الكلام عند المسلمين ربما جاء كرد فعل لمواجهة الفلسفة اليونانية ، ولأنى أعتقد كثيراً فى نهاية الفلسفة . فإنى لا أعتقد كثيراً فى أية فلسفة إسلامية قد يكون مصدرها التجاوب مع الفكر اليونانى . وإذا كان من الضرورى أن تظل الفلسفة علماً يدرس بالجامعات ، فهذا شأن أكاديمى قد يؤثر أو لا يؤثر فى الثقافة العامة ، أما ما أعتقد فى قوة تأثيره فى ثقافة العالم الإسلامى فكتاب الله وسنة رسوله الكريم بدون وساطة بين الله وعبده . وشروح ما أورده لا تحتاج إلى الخوض فى متاهات فلسفية قد تضر أكثر مما تنفع .

يهلل الكثيرون للإبداع العربى متمثلاً فى جائزة نوبل **لنجيب محفوظ** ، والجائزة الخاصة بمهرجان كان **ليوسف شاهين** والأمر لا ينحصر فى هاتين الجائزتين ، فالجوائز تنهال على رجالنا من كل صوب .

وليت الأمر اقتصر على الجوائز فقط ، بل جاءت المناصب أيضا ، فهذا هو **غالى** يُختار أميناً لهيئة الأمم المتحدة ، **وفتحى سرور** يُختار رئيساً لاتحاد البرلمانات العالمى .. إلخ .

ودعونا نتساءل معاً ، لماذا لم يظهر الإبداع العربى والعبقرية العربية قبل كامب ديفيد ؟ ولماذا العبقرية العربية ، تنحصر فى رجالات مصر دون سائر رجالات الوطن العربى؟

وللأسف لم ينل **شاهين** جائزة مهرجان كان ، بل إنه نال جائزة صُنعت خصيصاً له على وجه الإبهار داعية له للسير على نمط المهاجر والمصير ، وكلا الفيلمين صدرت أحكام القضاء بوقفهما، والعيب هنا ليس فى القضاء المصرى ، أو فى التيار الإسلامى وسطوته ، بل العيب فى انقلاب المثقفين، قام **يوسف شاهين** بإخراج حوالى سبعين فيلما ، لم يطلب مصادرتها أحد ، ولكن حينما انقلب **يوسف شاهين** فجأة ليسير فى ركاب الغرب بادعائه الكاذب بالتنوير راح يثير التساؤل ، ولقد رد **يوسف شاهين** نفسه على الريبة التى تحيط به فى أحد أعداد مجلة تصدرها اليونسكو ، **"بأنه لا يستطيع الآن إخراج فيلم إلا بمساعدة الأموال الفرنسية"** !!

سؤال آخر : لماذا الذين ينحازون ليوسف شاهين لعبقريته الفنية لا ينحازون لناصريته التى يدعيها أم أن هذا شىء وذاك شىء آخر .

ولماذا الذين يشيدون بإبداع الراحل **جمال حمدان** ، لا يعتقدون فى نتائج دراساته ؟!:

مصر مركز العالم العربى ، وفى قلب الدوائر الثلاث العربية والأفريقية والإسلامية مصر اشتراكية بطبيعتها . وهذه كلها مفاهيم ناصرية يلعنها الكثيرون الآن .

وهؤلاء الذين يؤكدون أن **زكى نجيب محمود** أكبر فيلسوف عربى ، لماذا ينكرون تحيزه فى آخر أيامه للقومية العربية وللتراث الإسلامى .

وتظل هناك موجات من الضباب تحجب عنا الرؤية الواضحة لما يدور حولنا .

نحن نعجز عن التفاعل بإيجابية مع العالم ، لا نستطيع أن نتعامل بمصداقية مع الحصار الذى فرضته أمريكا على ليبيا والعراق والسودان مع أن هذا الحصار يضعف من مصر نفسها ومن حرية قرارها ، ونعجز عن ممارسة الديمقراطية بطريقة فعالة ومثمرة.

وماذا بعد ؟!

إسرائيل تقيم مستوطنات جديدة ، وأهمها تلك التى تقيمها فى جبل أبو غنيم بالقدس الشرقيةتمهيدا للاستيلاء عليها . وتتوقف مباحثات السلام . وتبذل الحكومة المصرية جهوداً مكثفة لإنقاذ عملية السلام ، ويصدر الكونجرس الأمريكى قراره بأن القدس عاصمة موحدة لإسرائيل . كل ذلك ورد الفعل العربى فى أضعف حالاته ، لم يكن فى يوم ما أضعف مما هو عليه الآن .

والسبب أن مصر التى تقود معركة السلام رهنت إرادتها وإرادة الأمة بأكملها لدى أمريكا فى مقابل معونة سنوية تدفعها أمريكا لمصر ، وكان من الأفضل أن تدفع دول الخليج هذه المعونة لمصر، لا استجداءً ولكن هذا حق مصر التى ضحت بالكثير لنصرة الحق العربى . ولكن يبدو أن الجميع ،جميع الحكام العرب ، وبدون استثناء ، من مصلحتهم أن تظل إرادة الأمة مرهونة عند أمريكا، دون مراعاة لمصلحة الشعوب التى تعيش فى حالة إحباط شبه كامل .

والغريب فى الأمر أن هؤلاء الذين يدعون إلى الثقافة العالمية والتعددية والتسامح والعلمانية والمجتمع المدنى ، لا يقولون شيئاً فى مشكلاتنا الداخلية ، لا يناقشون أن يبقى وزير لمدة خمس وعشرين سنة فى الوزارة ، وإذا بقى الوزير هذه الفترة بأكملها ، فكم ستطول فترة رئاسة الجمهورية، مدى الحياة بالطبع ، وهل هذا يتفق مع التعددية ؟

ولماذا لا ينقد أحد من التنويريين التعليم الأهلى ، ومصر البلد الوحيد فى العالم الذى يطبق مثل هذا النظام . وهذا النظام من التعليم فى الغرب مختلف تماماً ، الجامعة هناك أهلية بمعنى أن يدفع الطالب رسوماً عالية ، ولكنها جزء من تكلفة التعليم يكمله فى البلاد الغربية تبرعات الأهالى والمؤسسات ، بجانب نصيب الحكومة فى تكلفة التعليم . ولكن لا أحد يجنى أرباحاً من العملية التعليمية ، والربح يحققه تخريج مؤهلين يخدمون التنمية فى المجتمع .

ولسنا نعلم لماذا يخشى أهل التنوير مناقشة سياسة الإعلام بما فيها من عيوب ورذائل ، ويهبط الفن، ويصبح الوسيلة المثلى للتشجيع على انحراف الشباب ، وتغييب العقل والتفكير العلمى . ورغم كل هذا بدلاً من أن يواجهوا تعديل مساره ، فإنهم يدعون تحت ستار التنوير إلى الإباحية . ونعجب لماذا تظل الرقابة على أغانى المنوعات تعمل ، إذا كان الإبداع يعنى "السداح مداح" . ويتألم الآباء والأمهات وفلذات أكبادهم ينحرفون تحت تأثير فعل ما يشاهدون ويقرءون .

ويضيع الوقت والأمة والثقافة بين صالونات عبد المنعم تليمة ، وشكرى عياد ، وعبد الجواد السيد عمارة وآخرين . ويأتى الضياع من تكرار الكلام وغياب استراتيجية العمل الوطنى ، نتيجة لعدم الالتزام . لقد وضع المشاركون فى هذه الصالونات أنفسهم فوق الأحزاب والعمل السياسى، كلهم مفكرون ومنظرون وليس بينهم المناضل ، الدعامة الأولى لنجاح العمل السياسى، فلا يستقيم العمل السياسى فى أى من بلدان العالم إلا بالمناضلين وكيف يتحقق ذلك والفكر قد أصبح نوعاً من التسلية لا وسيلة للنضال والتغيير .

وفى هذه البيئة الثقافية حتماً تضيع الأمة ، وبداية ها هى القدس على وشك الضياع ، ويوهمنا البعض أن إسرائيل تريد رأس فلان أو علان . وما يكتب عن هذا الموضوع مجرد هراء ، فإسرائيل تعلم جيداً أن الحكومات العربية تتبع سياسة العجز ، وما يثيره بعض السياسيين أو الإعلام فى البلاد العربية من مواقف قد تبدو صارمة أمام أسرائيل ما هو إلا للاستهلاك المحلى وتغطية المواقف الحكومية المتخاذلة أمام أمريكا ، فلا قرار يمكن أن تتخذه الحكومة يغضب أصحاب المنحة وحماة العروش المهتزة ، وهكذا نظل أسرى المعونة الأمريكية ، والأسرى ليسوا أحراراً . ومن فقد حريته فقد عرضه وأرضه .

مهلاً أيها القارئ الكريم . ولا تنفعل أو تتشاءم ، فليس كل المثقفين والكتاب فى مصر يزيفون الكلمة ، يمكن أن تكون الأغلبية ، نعم ، التى تسيطر على الساحة الثقافية ، ولكن مصر غنية برجالها أكثر مما يتصور المتخاذلون والمنافقون ،وتحية لهؤلاء المناضلين ،تحية لفارس الكلمة الراحل

سعد الدين وهبة ، وتحية لإسماعيل صبرى عبد الله ، ومحمود عبد الفضيل ، ويحيى الرخاوى ، مجدى حسين وعادل حسين ، إبراهيم شكرى ، مصطفى محمود ، فهمى هويدى ، سناء المصرى، فاطمة نصر ، ميلاد حنا ، صلاح الدين حافظ ، مصطفى نبيل ، سمير حنا ، أحمد رجب ، سلامة أحمد سلامة ، وأنور عبد الملك وتحية إلى الراحل حلمى مراد . وإلى أولئك الذين ظلوا ناصريين ولم يغيروا جلودهم ، وإلى معظم التيار الإسلامى المتنور ، وإلى الكثيرين فى أحزاب المعارضة ، وإلى أولئك العظماء فى الحزب الوطنى الذين يسكتون على مضض ، والذين يحاولون منهم فى الإصلاح ، وأخيرا وعلى وجه الخصوص **حسام عيسى***

هذا الرجل ظل ينقد النظام الناصرى . وبعد وفاة عبد الناصر انضم إلى صفوف المؤسسين للحزب الناصرى ، لا يزايد عليه أحد فى وقوفه ناقداً نظام عبد الناصر ، وليكن معلوماً للجميع أن **حسام عيسى** وكاتب هذه السطور كانا ينقدان نظام عبد الناصر فى حياته ليس من منطلق عدم الإيمان بالمبادئ التقدمية التى أعلنتها الثورة ولكن بسبب الخلل فى تطبيق هذه المبادئ . وكان أقسى ما يضيرنا ظهور الطبقة الجديدة ، طبقة المنتفعين التى سيطرت على زمام الأمور فى عهد عبد الناصر ومازالت تسيطر حتى الآن . وحفاظاً على مكاسبها رضخت تماماً للسلطة المركزية ، سلطة الفرد الواحد تأتمر بأوامره وتنفذ مآربه . هذه الفئة يساندها للأسف المثقفون والكتاب والمفكرون المرتزقة وعلى حساب الديمقراطية وحقوق الإنسان .

ووقفنا ، **حسام عيسى** وكاتب هذه السطور ، ونحن طلبة ندرس فى فرنسا أمام المشير عامر نعارض النظام وننقده ، بينما راح البعض يهاجم المثقفين لحساب النظام الناصرى ، ويتهمهم بالسلبية وسوء فهمهم لمبادئ الثورة ويعيب عليهم عدم مناصرتهم للنظام . وهم يحتلون الآن أكبر المراكز على الساحة الثقافية والسياسية .

للأمانة تكلم **حسن حنفى** فى حضرة المشير عامر مدافعاً عن الإخوان المسلمين ، ويقول بالحرف، **"إذا كانت الثورة بيضا فلماذا تعتقل الإخوان المسلمين"** ، ويرد عليه المشير بخفة دمه المعهودة **" الثورة بيضا نخلى الناس تاكلها "** .

وبعد بداية **حسن حنفى** ونقده للنظام الناصرى وموقفه من السادات ، ينقلب رأسا على عقب ليقول لنا كلاماً غريباً عجيباً ، أنا لم أقرأ لحسن حنفى كثيراً . ولكن أسمعه دواماً فهو قطب بارز فى تظاهرة هذه الأيام الثقافية .

---

* عفواً ... الأسماء هنا مجرد عينة من بين طابور طويل من فرسان الكلمة الحرة .

وكل ما استخلصته من كلمات حسن حنفى العديدة فكره المشوه عن التراث ، وعدم تأصيله حتى لفكر تنويرى عربى يخدم قضايا الأمة . كلام في كلام ينقده الكثيرون وربما يكون ما كتبته يمنى الخولى عن مشروع حسن حنفى مفيداً فى تحليل هذه الحالة

ويأتى الكلام عن المرأة العربية المثقفة فتبرز أمامنا صورة **عواطف عبد الرحمن** أستاذة الإعلام بجامعة القاهرة ،ونتساءل ماذا فعلت للمرأة . ربما فعلت الكثير ، ولكن النساء فى عزبة أولاد علام لم يشعرن أبداً ولم يمسهن أبداً ما فعلته **عواطف عبد الرحمن** . ومع هذا تنال جائزة سلطان العويس عن العلوم المستقبلية . ولا أكون مخطئاً إذا قلت إن لجان التحكيم لمثل هذه الجوائز من التنويريين المسيطرين على الساحة الثقافية (ماركسيين وغيرهم) . وهم ينادون فى هذه الأيام بدور المرأة، والتسامح الدينى ، وعدم التعصب . وتقريراً لهذا المبدأ التنويرى منحت الجوائز واحدة **لعواطف عبد الرحمن** عن المرأة ، وأخرى لإدوار الخراط عن المسيحيين وهكذا يوزع أصحابنا التنويريون الجوائز . ولا ننسى هنا أن نذكر أن **عواطف عبد الرحمن** ماركسية المنشأ. أما اليوم فهى تقوم بجهد كبير خلاق لملاحقة المنظمات الدولية ابتغاء الحصول على منحة لتنفيذ مشروع إدخال مناهج الإعلام البيئى فى كلية الإعلام . وللأسف ستظل **عواطف عبد الرحمن** ومعها أساتذة من كلية الإعلام ينتظرون أن تهطل عليهم منحة من سماء المنظمات الدولية التابعة فى معظم الأحيان للحكومات الغربية . وعلى الهامش هل قادت **عواطف عبد الرحمن** حركة نسائية لمناصرة ضحايا العدوان الإسرائيلى المتكرر على الفلسطينيين . وهل شاركت أو غيرها من المصريات فى إغاثة اللاجئين ؟

حينما كنت فى أمريكا زرت حرم جامعة بوسطن ، وكان يصاحبنى فى الزيارة بعض الطلبة العرب ، وبالطبع نتكلم نحن العرب بصوت مرتفع ، وفى النهاية تصعد لنا " جنية بحرية " من حوض سباحة فى وسط الحرم الجامعى ، وفاجأتنا بالسؤال ! هل أنتم طلبة من الشرق الأوسط ؟ وكانت جريدة الاتحاد بالجامعة قد نشرت نبأ زيارة وفد طلابى من الشرق الأوسط للحرم الجامعى وكانت الإجابة : نعم نحن من الشرق الأوسط ، قفزت الطالبة الأمريكية من فوق سور حمام السباحة فور سماعها بالإجابة ، ودعتنا إلى تناول الشاى فى غرفتها بالمدينة الجامعية التى كانت أيضاً فى الحرم الجامعى . وفى أثناء حديثها معنا عرفنا أنها تعشق شعراء المهجر العرب ، وأغرب ما سمعنا أنها تشارك فى جماعات إغاثة اللاجئين العرب فى خيام لبنان والأردن وسألت نفسى ، أين نساؤنا من نساء العالم المتقدم ، وظلت هذه الحادثة فى ذاكرتى حتى الآن ، كان لزاماً علىَّ ذكرها بمناسبة الحديث عن الدكتورة **عواطف عبد الرحمن** وعن نساء مصر المحروسة

أنا لا أتحامل على **عواطف عبد الرحمن** . لقد جمعتنى معـها صداقة وطيدة ، دامت على مدى سنوات طوال ، كنا خلالها نتكـلم كثيراً فى السياسـة ، وكانت فى بداية حياتها الأكـاديمية وكنت أعجب بفكرها الماركسى المتقدم ، وبمشاركتها فى لقاءات الأحزاب والمنابر ، وإلى هذا الحد كانت المسألة كلها لا تتعدى إما الاستمـاع إلى الآخرين وهم يلقون فى عنترية كاذبة كلماتهم الرنانة ، أو بعض كلمات نلقيها من جانبنا فى مناقشـة بعض الموضوعات المطروحة ، ولكن حينما وصلنا إلى المحك الفعلى للعمل والتعاون ، لم أجد من **عواطف عبد الرحمن** أى رغبة فى التعاون أو العمل المشتـرك . لقد تعودت فى كل كتبى أن أعرضهـا على بعض الزملاء قبل أن أرسلهـا إلى الناشر ، وكالعادة أعطيت عواطف عبد الرحمن بحـكم عملها فى "الإعلام ، الكتـاب الذى سبق الإشارة إليه " الإعلام والتـوعية العلميـة " لتكتب ملاحظاتها عليـه ، واستمر هذا الكتاب لـديها حتى الآن أكثـر من عشـر سنوات ولم تقـرأه ، وفى العام الماضى أعطيـتهـا قصـة للأطفال بعنـوان "الفتـيات والبيئة" لتقول لى رأيها أو رأى زملائها فى كلية الإعلام فيها ، ولا حياة لمن تنادى .

دعونا من الأمور الشخصـية ، ونطرح السؤال : هل حاولت **عواطف عبد الرحمن** أن تتحرى بخصوص ما تدعيه الصحافة عن ارتفاع نسـب الانحراف بين شباب الجامعة ، ارتفاع نسبة الزواج العرفى ، وإدمـان المخدرات ، وأخيراً لماذا لا نسمـع رأى الدكتورة فى أدب نوال السعـداوى وعما تفعله هالة سرحـان وإيناس الدغيدى ببنات هذا الجيل حتى وصلنا إلى فـيلم "دانتيلا" . ألا تدخل الإجابة عن هذه الأسئلة ضمن دراسات تأثير وسائل الإعلام على شباب الأمة سلباً أو إيجاباً ؟!

لا نقصد الدكتورة **عواطف** بالذات ، ولكن المقصود على وجه العمـوم هو المرأة المصرية المثقفة وبصفة خـاصة عضوات هيئة التـدريس بالجامعات ، هالة ، ووفاء ، وأميـرة ، وسلوى ، وغيرهن ، ماذا قـدمن لهذا البلـد الذى أعطاهن الكثيـر.. ماذا قدمـن لبنات الجامـعة ، وماذا عـملن من أجل الحركة النسائية .. أسئلة كثيرة ستظل بدون إجابة .

الحلم الضائع

الزمن ردىء ، ونحن محبطـون مكبلون. مات الحلم الذى راود طفولتنا وأيام مراهقـتنا البريئة، وقتئذ كنـا نهتف ضد الاستعمـار ، ونشارك فى المظاهرات ، نهتف بسقوطه ونحن صغـار ، تلاميذ فى المدارس الابتدائية ، وبعدها فى الثانوية ، ثم فى الجامعة ، كان يشغلنا الهم العام ونعيش لقضية وطنية مقدسة .

وفى الجامعة ، كانت هتافاتنا ترج أركان الجـامعة، وتهز أسوارها ، وعلى الرغم من قسوة الأيام كنا سعداء بما ننجـز، وما دمنا نحلم ؛ وأى حلم. وفى هذه الأيام الصعبة سقـط الشهداء برصاص الإنجليز، وربما أيضـا برصاص قوات الأمن المصـرية الحارسة للسلطة والخـاضعة لأعـوانها ، ومن الأحـداث التى لا تنسى فى سـجل الكفـاح الطـويل حادثـة فتح كـوبرى عبـاس، حيـث كـانت مظاهرات الطلبة تمر فوقه، وفجأة يسقط من يسقط فى المياه، ويواجه الباقون الرصاص بصدورهم.

كنا نخوض المعـارك مع أعداء الأمة ، وكنا نعرف عـدونا ؛ الإنجليز والخونة ، والحـرب سجال يطلق الرصـاص من ناحيـة ، ويرمى بالوطنيـين الشرفـاء فى السـجون ،ونحن نرد بكل الوسـائل الممكنة من جهة أخرى ، وندبر للانتقام وينطلق الرصاص وترمى القنابل فيقع سليم زكى حكمدار العاصـمة قتـيلاً ، وتتكرر حـوادث الاغتيـال ، فيـسقط أمين عـثمان ، والنقـراشى ، وأحمـد ماهر وغيرهم، وترد السـراى والبوليس السياسى من الجـانب الآخر ، فيصـرع عزيز جمعة مـن الطليعة الوفدية وحسن البنا مرشد الإخوان وآخرون .

وعلى مدار الخمس والعشرين عاما التى سـبقت أحداث يوليو ١٩٥٢م لم يحكم مصر حزب الأغلبية . وتعاون المثقفون الباشوات مع السراى ، فشارك الكثير منهم فى حكومات الأقلية ، وظل حزب الأغـلبيـة خارج الحكم لفـترات طويلة وفى فـبراير ١٩٤٢م جـاء النحاس إلى الحكم بـعد حصار قصر عابدين بالدبابات ، وأعفـاه الملك أواخر عام ١٩٤٤م . وأخذت مصر تموج بالثورة ، وشكّل الطلبة لجنة تنفيذية دعت إلى عدم الدخول فى مفاوضات لإعادة النظر فى معاهدة ١٩٣٦م

إلا على أساس الجلاء التام .

وفى عام ١٩٤٧م صدر قرار هيئة الأمم المتحدة بقيام دولة إسرائيل ، ودخلت الجيوش العربية الحرب لتحرير فلسطين من العصابات اليهودية ، وفى مصر فاحت رائحة قضية الأسلحة الفاسدة التى أثارها إحسان عبد القدوس على صفحات روز اليوسف ، وألمح فيها إلى اشتراك السراى فى المؤامرة . وزادت ثورة الشعب وخاصة قواته المسلحة ضد السراى واندلعت مظاهرات الطلبة .

وفجأة يشب حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢م وتتخذ السراى الأحداث ذريعة لإقالة حكومة الوفد . ويتوالى تكليف الوزارات التى تعجز عن مواجهة الموقف المتفجر - وتهيأ الجو تماماً لقيام الثورة . وحدث فعلا ماكان يجب أن يحدث . وتحرك الجيش بقيادة الضباط الأحرار ليقوم بالثورة، ويتسلم زمام الحكم فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ومنذ سنوات الثورة الأولى والقوى الوطنية ترتاب فى نوايا الضباط الأحرار . ويرى الشباب المتحمس المتمرس فى العمل السياسى أن الضباط يجب أن يرجعوا إلى الثكنات ، وتندلع المظاهرات فى الجامعة ، إلا أن القيادات السياسية تعجز عن الأخذ بزمام الموقف ، وتتحرك لتشارك الضباط الأحرار فى الحكم أو تزيحهم عنه . ويصدر قانون تنظيم الأحزاب ثم قرار حل الأحزاب وتصفية شرذمة السياسيين السابقين . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تقام محكمة الثورة لمحاكمتهم . ويتمكن الضباط الأحرار أخيراً من الانفراد بالحكم . ويظل الحس السياسى مناهضاً للثورة ، وتجسد هذا الشعور فى استمرار المظاهرات التى كانت تطالب برجوع الضباط إلى الثكنات ، ولاحتواء مظاهرات الطلبة يصدر قرار نظام الفصلين الدراسيين بالجامعة ، وتهدأ ثورة الطلبة ويفتر حماسهم ، فالامتحانات صارت وشيكة على الأبواب ، تأتى فى منتصف العام بدلاً من أن تتأخر لنهايته .

ومع ذلك لا نستطيع أن نقول أن سخط الرأى العام كان سيستمر طويلاً حتى لو لم يُقرر نظام الفصلين الدراسيين ، فما لبث الأوضاع أن انقلبت لمصلحة الثورة بعد أن ضرب جمال عبد الناصر ضربته القوية ضد المصالح الأجنبية وإعلانه تأميم قناة السويس فى ٢٦يوليو ١٩٥٦م .

بلغت شعبية جمال عبد الناصر بهذا القرار مداها ، وصار رمزاً للكفاح ضد الاستعمار وتوّجته الشعوب النامية التى كانت ماتزال ترزح تحت براثن الاستعمار بطلاً . وبات ذلك واضحاً أكثر فى الدول العربية . وعلى أثر ذلك توهج الحماس فى سوريا من أجل الوحدة مع مصر التى تم إعلانها فى فبراير ١٩٥٨م ، ومنذ البداية أعلنت الثورة مبادئها الستة وكان من ضمنها تحقيق الديمقراطية ، هذا المبدأ الذى لم يتحقق طوال حكم جمال عبد الناصر والسادات وحتى الآن .

وصدرت فلسفة الثورة ، كتبها لعبد الناصر من كتبها !! . ولكن ما يهم أنها هاجمت أساتذة الجامعة ووصفتهم بالانتهازية والنفاق ، كل منهم يقول أنا وكأنه الوحيد دون غيره الذى يقدر على فعل المعجزات ، وفيما كتبته فلسفة الثورة كل الحقيقة ، حيث تظهر فعلاً بعد ذلك خيانة المثقفين وانتهازيتهم واضحة . فقد انبرى لفيف كبير من أساتذة الجامعة يداهنون وينافقون . والقائمة طويلة، هذا لا يمنع أن نفراً قليلاً من الأساتذة الشرفاء وقفوا معارضين ينقدون الحكم الفردى ، ويشيرون إلى أخطاء الحكم القاتلة ، وتحملوا فى ذلك الكثير . فى حين سارع الكثير من الأساتذة يعرضون خدماتهم على رجال الثورة ، وتكون منهم قيادات التنظيمات التى أسستها الثورة، وراح الكثيرون منهم ينظّرون للاشتراكية ويدعون للقومية العربية . وفى الحقيقة لم يكونوا اشتراكيين ولا قوميين ولكنهم ركبوا الموجة .

وعلى الدرب نفسه سار الكثيرون من الكتّاب والمفكرين والصحفيين . إن لم يكن كلهم . راحوا يسيرون فى ركاب الثورة يهللون ويصفقون ويزغردون أيضاً ، داعين للحكم القائم ، ومبررين لكل تصرفاته وأخطائه .

فى ظل هذه الخيانة الوطنية سارت الثورة فى غيها ، يصفق لها من يصفق ، ويؤيد ويبارك الآخرون ، ولا أحد ينقد الأخطاء أو يطالب بالحريات .

كبار الكتاب والصحفيين يؤيدون وأساتذة الجامعة يسيرون فى ركب النفاق وحتى أهل اليسار وافقوا على حل الحزب الشيوعى وأصبحوا من كبار المنظِّرين للاشتراكية العربية ، على رأس من ركب موجة الشعارات الجديدة .

وليس غريباً أن أولئك المنافقين الذى تظاهروا باعتناقهم للمبادئ الناصرية ، هم أنفسهم الذين أيدوا انقلاب السادات ضد الناصرية ، وراحوا يدافعون عن سياسته أبواقاً جوفاء مازالت مستمرة حتى الآن فى ظل نظام الحكم الحالى ، مؤيدين له أيضاً ومهللين ، وسريعاً ما يكشف اليساريون الذين ركبوا الموجة عن وجههم القبيح ، وخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وسقوط الأنظمة الشيوعية ، فيروجون لأفكار التنوير الغربية ، ويدخلنا البعض فى متاهة الكونية والنظام العالمى الجديد ، ويروج الآخرون للشرق أوسطية وسياسة التطبيع ، ويدعو من يدعو إلى الاحتفالية بمرور مائتى عام على الحملة الفرنسية على مصر .



الفكر المشبوه فى الساحة الثقافية

يتحول **لطفى الخولى** بعد سقوط الاتحاد السوفيتى من ماركسى قح إلى أمريكى فج . وفى سلسلة من المقالات ، نشرتها له الأهرام ، راح ينقد الوضع فى الاتحاد السوفيتى قبل الانهيار نقداً مريراً بطريقة لا يباريه فيها أعتى الأمريكيين كرهاً للنظام الشيوعى .

وفى محاولة على صفحات الأهرام للكشف عن أسباب انهيار الاتحاد السوفيتى ، كتب كلمات غير مفهومة ولا منطقية ، وألف كتابه بعنوان (عرب نعم ولكن شرق أوسطيين) ، وشارك فى اجتماع كوبنهاجن وأخيراً يستغل مرة أخرى جريدة الأهرام القومية ليعطى المثقفين المصريين الشرفاء درسا فى العمل السياسى والفكرى .

يقول **لطفى الخولى** فى أهرام ١٥ أبريل ١٩٩٧ :

" بين اليوم فى ١٩٩٧م وبين عام ١٩٤٨م تسعة وأربعون عاماً بالتمام والكمال ، تغير خلالها العالم والكون والمناخ وتوازنات ومفاهيم القوى الاقتصادية والعسكرية والسياسية والتكنولوجية تغيرات جذرية. اهتز اليقين الذى بدا وكأنه راسخ إلى الأبد فى الفلسفات والعلوم والأيديولوجيات الاشتراكية والرأسمالية والقوميات العرقية المنغلقة والمفتوحة .

وانعكس ذلك بالضرورة ويعمق على إسرائيل وفلسطين والعالم العربى إيجابا وسلبا ، غير أن الشيء الوحيد الذى ظل جامداً راسخاً ضد كل تغيير أو تفاعل معه كأنه الأبدى الخالد هو هذا التفكير الأبدى التقليدى لمجموعات من المثقفين حول الصراع العربى الإسرائيلى وأطرافه المباشرين وأيديولوجيته وشروطه الموضوعية والذاتية وأساليبه وإدارته" .

وهكذا يأتى **لطفى الخولى** الذى ركب موجة الاشتراكية العربية والقومية تحت ستار التغيير يُنظّر لسياسة النظام الحالى ، ولو أنه يكتب ما لا يرضى عنه النظام الحالى لما وجد طريقه إلى صفحات الأهرام . ولنتساءل الآن كم عدد من وقف فى جانب لطفى الخولى بالنسبة لمسألة الحوار مع ما يسميهم السلاميين الإسرائيليين ، إن أغلبية المثقفين العرب ، سوى هؤلاء المنافقين الذين

يسيـرون فى ركاب الأنظمـة العربية ، لا يوافـقون على الحـوار مع هؤلاء السلاميـين ، بل إنهم لا يوافقون أصـلاً على مشاريع السلام التى بدأت مع كـامب ديفيد وفرضـتها على الشعـوب العربية الأنظمة الاستبدادية الحاكمة .

إن كل المثقفين الشـرفاء يعتبرون الحوار مع إسرائيليين ، وخـاصة فى مؤتمر دولى علنى ، بمثابة خرق لجدار الحـيلولة دون التطبيع الذى يعد السـلاح الوحيد الآن للضـغط على إسرائيل . هذا فى مقابل أن خـرق هذا الجدار لا تعوضه المكاسب التى تأتى عن طريق الحـوار مع بعض الإسرائيليين السلاميين الذين لا تزيد أعـدادهم عن أصابع اليد وقد يكون معظمهم أدعيـاء للسلام ولا يقومون بنشاطهم هذا إلا بغرض الإعلان والدعاية .

إن معظم المثقفين الشرفاء لا يعتقـدون فى استحالة الحرب وإقامة سلام مع إسرائيل بأى ثمن ، وحتى إن قبلوا باسـتحالة الحرب ، فهم لا يعتـقدون فى أسلوب المفاوضات الذى تتبـعه حكومات عربية خـاضعة للنفوذ الأمريكى . وليس تفـكير الشرفاء تفكيراً انهـزامياً . فهذا التـفكير الانهزامى تتبناه الحكومات العربية التى تدخل معركة المفاوضـات مع إسرائيل ، وجميعها بدون استثناء تقوم بالتطبيع مـع إسرائيل بشكل أو بآخر . والمثـقفون الشـرفاء وحدهم هم الـذين يكونون درعاً إن لم يكن قوياً فهو أفضل من لا شىء . وهؤلاء أمثال من شـاركوا فى كوبنهاجن يمثلون طابوراً خامساً يحاول اخـتراق الجدار القـوى الذى يقف ضد رغبـات أمريكا ، فأمـريكا هى الأصل فى الموضوع كله ، فإسـرائيل لا تحاصـر العراق ، ولا ليبـيا ولا السـودان ، وأمريكا وإسرائيل لا يـزعجهـما أن يكون لدينا جيش قـوى بقدر ما يزعجـهما أن تكون لدينا إرادة شعـبية تستطيع فى يـوم ما أن تمهد لانتفاضة تكون عقبة كأداء فى طريق مشـاريع أمريكا وإسرائيل فى المنطقة .

والمثقفون الشـرفاء يعرفون أكثر من غـيرهم أن الحرب بالسلاح قد انتهت منـذ عقود مضت ، وأصبحت الحروب الاقتصادية أقوى وأعتى ، فـالحرب الاقتصادية تظل شرسة بين اليابان وأمريكا من جهة ، وأمريكا وأوربا واليابان من جهة أخرى ، الغلبة فيها لصاحب الإرادة الشعبية القوية .

دعنا نناقش الحوار بين الحضارات أو بين الدول ، الذى يعتقد فيه **لطفى الخولى** وأضرابه ، هل أفلح الحـوار بين الشـمال والجنوب ؟ وهل أفلح الحـوار بين أوربا والدول العـربيـة ؟ وإذا سلمنا بجدوى هذا الحوار فالنتـيجة لمصلحة من ؟ . وإذا كان الجواب بالقطع لمصلحـة الأقوى فإن الحوار مع الإسرائيليـين دون وجود أوراق ضغط لن يفـيد ، وقبل أن يكون لدينـا أوراق الضغط علينا أن نفكر ألف مرة قبل أن نبدأ الحوار .

ويصف **لطفى الخولى** فكر المثقفين الذين يعارضون خطواته المشبوهة بالفكر التقليدى المتجمد وغير المتجدد. مع أن هؤلاء كانوا أصحاب فكر يتجدد دائما ، فلم يعتنقوا الماركسية واتخذوها أيديولوجية راسخة ، كما اعتنقها لطفى الخولى وتركها منذ سنوات قليلة، وأخذ فكره يتجدد بهذه السرعة المذهلة . يستوعب الشرق أوسطية ويتنبأ بجدوى العائد من الدخول فيها ، وهو لا يعى- أو يعى والمصيبة أعظم - أن هذا التكوين الجديد يقوم على أنقاض القومية العربية التى ادعى فى يوم ما أنه فهمها واستوعبها، وهو ككل الماركسيين القدماء والجدد لا يعتقدون فى قومية ولا فى عقيدة.

ولم تمر أسابيع قليلة على وثيقة كوبنهاجن المباركة حتى أعلنت إسرائيل بناء مستوطنة جديدة فى جبل أبو غنيم بالقدس، ومع ذلك يواصل **لطفى الخولى** كتابة مقالاته فى الأهرام بعنوان كوبنهاجن! الفكرة، الإعلان، الحركة "هاتوا لى حبيبى- هاتوا لى حقوقى " ويظل نتنياهو يضع العراقيل أمام تقدم مباحثات السلام وتأخير الانسحاب المتفق عليه . وتسير إسرائيل قدماً فى سياسة الغطرسة والتهديد والاستيطان بدءاً من مسألة النفق فى سبتمبر ١٩٩٦، وانتهاء بالاستيطان فى جبل أبو غنيم فى القدس . وتظل إسرائيل ترفض إقامة الدولة الفلسطينية ، ثم يعلن فى النهاية مشروعه الذى يقضى باستيلاء إسرائيل على القدس وأكثر من ٥٠٪ من الأراضى الفلسطينية المحتلة - وربما يكون نتنياهو قد أفلح فى تحييد الموقف العربى الرسمى من تلك السياسات وبخاصة سياسة الاستيطان فى أبو غنيم وذلك بزيارته لمصر والأردن. وكذلك باستمرار الدعم الأمريكى للكيان الصهيونى الذى وضح تماماً من خلال زيارة نتنياهو لواشنطون وكذلك تصويت أمريكا المتكرر فى مجلس الأمن ، واستخدام حق الفيتو ضد أى مشروع لإدانة الاستيطان وحتى زيارات المبعوث الأمريكى إلى المنطقة كانت بغرض مهمة معينة هى مطالبة الجانب الفلسطينى بإدانة الإرهاب ، دون أن تلتزم إسرائيل بأية تعهدات جديدة بخصوص سياسة السلام .

مادور التحالف الدولى للسلام الذى يدعو له لطفى الخولى فى مواجهة ما تقوم به حكومة إسرائيل ؟ ، إذا هرول كل المثقفين كما يريد لطفى الخولى للدخول فى حوار مع إسرائيل ، فإنهم لن ينالوا من صلف نتنياهو وحتى الإسرائيليون المطالبون بالسلام لن يجدوا دافعاً للضغط على حكومة إسرائيل إذا رأوا أن كل العرب مسالمون وخاصة إذا طالبنا أيضاً بوقف عمليات المقاومة الفلسطينية . وتحول نسبة اليمين المتطرف فى إسرائيل من حوالى ١٠ ٪ إلى ٤٦ ٪ ما هو إلا رد فعل طبيعى للتخاذل والاستسلام العربى .

ويبدو أن القيادة السياسية رأت أن ما يكتبه **لطفى الخولى** على صفحات الأهرام يضعف من

مركز المفاوض العربى ، فأوحت إلى لطفى الخولى بأن يكف عن الكتابة ، فامتثل الكائن الوديع لتعليمات القيادة ، وأظن أنه لولا ذلك لما انقطع لطفى الخولى عن آداء دوره فى تقديم الخدمات الدعائية لإسرائيل وللغرب .

ماذا يقول أحد المثقفين الشرفاء بالنسبة للمشروع الشرق أوسطى الذى يتحمس له **لطفى الخولى** ، يقول **د . محمود عبد الفضيل :**

«ومن الواضح لنا أن المشروع الشرق أوسطى هو فى الأساس صياغة إسرائيلية بدعم أمريكى بهدف بناء ما سماه شمعون بيريز «الشرق الأوسط الجديد» الذى تلعب فيه إسرائيل دوراً رئيسيا وقياديا ، وتكون بمثابة الوسيط والوكيل المعتمد بين المراكز الرأسمالية المتقدمة فى الغرب وآسيا من ناحية وبلدان الشرق الأوسط والخليج العربى بالأساس من ناحية أخرى»

لقد شجعت السياسة المصرية بعض الدول الخليجية ! قطر وعمان ودول شمال أفريقيا تونس وموريتانيا على التطبيع والتسوية ، ولما اتضح لمصر المأزق الذى وقعت فيه بموافقتها على المشاركة فى المشروع الشرق أوسطى وحضورها مؤتمر الرباط ، بدأت هى وسوريا والسعودية فى إبداء عدم الارتياح للخطوات التى أقدمت عليها البلدان الخليجية والمغربية بشأن مسألة التطبيع واعتبرتها إما هرولة غير مناسبة ، وإما خروجاً عن الإجماع العربى ، ورغم تراجع الموقف الرسمى فى مصر عن الهرولة فى التطبيع تظل بعض الأجهزة الحكومية تقيم علاقات معينة مع إسرائيل سواء فى الزراعة أو فى مجال البحث العلمى . هذا فضلاً عن قيام بعض المفكرين فى مصر الذين يقومون بالدعاية والترويج للشرق أوسطية - كان على رأس هؤلاء لطفى الخولى والسيد يس . لكن الأخير كان أكثر ذكاء من الأول ، تراجع بسرعة عن هذا الاتجاه وخاصة بعد أن لاحظ أن الحكومة أعطت الضوء الأخضر للوقوف ضد هذا المشروع بعد أن تبين لها أن المشروع فى مصلحة إسرائيل التى سوف تسحب البساط من تحت أقدام مصر لتصبح هى قائده التجمع الاقتصادى المزعوم .

ويقول **سلمان مصالحة** (شاعر وناقد فلسطينى مقيم فى القدس) :

«أؤكد كمثقف وأديب يعيش فى إسرائيل أنه إذا كان التطبيع الثقافى من خلال هذه الوفود المتقاطرة يأتى على حساب الشعب الفلسطينى ، فنحن ضده لأن هذا التطبيع يهدف إلى إلغائنا وتحويلنا إلى بيادق حتى ينتهى دورنا».

المتناقضات الصارخة

الكثير من الكتّاب يخدعون القراء العرب. وتختلط الأمورفى الأمة العربية وفى مصر بالذات. ويقدّر الناس الكاتب بمقياس خاطئ ، كل الكتّاب كبار ، والمؤلفون عظام ، وما وجه الكبر والعظمة هذا أمر محير ، ففى اعتقادى أن القارئ على جميع مستوياته الثقافية يحكم على الكاتب بأسلوبه وبراعته فى سرد المعانى والمفاهيم بطريقة تبدو أنها متسقة وتعطى سياقاً عاما مقبولاً ، ولكن معظم الكتابات لا تخرج بمفهوم يتصل بحياتنا اليومية ويخدم قضية التطور والتقدم، فلا تحليل ولا نقد لمشكلاتنا ، ولا وصف لطريق الخروج من أزمتنا الحقيقية ، ولا علاج للتخلف ولا أمل للخروج منه ، كل شيء يتدهور ، والأهم من كل هذا الأخلاق ، ولا يبدو أن هناك على الساحة أى كاتب أو مفكر أخلاقى فالجميع تناسوها ولم يعودوا يعتقدون فيها ، وراحوا يروجون عبارات مبهمة عن إعلاء سلطة العقل ، والعقد الاجتماعى ، والتسامح ، والدولة المدنية.

ومن بين هؤلاء الذين يرددون هذه العبارات المفرغة من معانيها السامية **السيد يس** ، هذا الكاتب الذى انقلب فجأة هو الآخر من الماركسية إلى الليبرالية ، والذى راح يلمح فى بعض مقالاته إلى أنه مسلم ويعتقد فى الأديان . كان هو الآخر ممن نادوا بالشرق أوسطية ، ولكنه كان أكثر ذكاءً ودهاءً من معلمه الأول **لطفى الخولى** ، فبمجرد أن رأى الحكومة على وشك أن تسحب تأييدها للشرق أوسطية ، سحب هو الآخر الكلام عنها كلية . بعد أن تناولها فى بعض مقالاته مؤيداً لها . يروج لفكرة النظام العالمى الذى يصفه بالكونية ، وبدون تحفظات ، وينسبها إلى مقولات ما بعد الحداثة وهى تقضى باختفاء الحدود بين الدول وبالتالى الانتماء القومى لمصلحة سيادة فكرة العالم التى تلغى الأديان والأعراق والقوميات .

وكثيراً ما يردد سقوط المشروع القومى العربى ، وتبدأ المرحلة الأولى لسقوط المشروع مع هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، ثم جاء غزو العراق للكويت لضرب المشروع تماماً . هذا ما يقوله **السيد يس** .. وهو واهم فى كل أسانيده ، فلم تسقط القومية كما يزعم مع هزيمة يونيو ، بل إنها ظلت

عاملة وبلغت أوجها مع إنجازها العظيم فى أكتوبر ١٩٧٣م * فى هذه الأيام المجيدة فى تاريخ الأمة العربية ، حققت الجيوش العربية أول انتصار لها على إسرائيل . وفى الطلعة الأولى لطيران القوات العربية المشاركة فى القتال شاركت خمسون طائرة عراقية . ولما رفض الاتحاد السوفيتى إمداد دول المواجهة (مصر وسوريا) بقطع غيار الأسلحة المستهلكة ، طار بومدين إلى موسكو ليدفع ١٥٠ مليون دولار حتى يرفع الاتحاد السوفيتى الحظر عن تصدير قطع الغيار ، وبعد وقف القتال أصدر المغفور له الملك فيصل القائد الحكيم قراره بقطع البترول عن الغرب ، ٥٪ كل شهر.. وانتهى الأمر بالقطع النهائى حينما دخلت إيران معركة النفط مع الغرب ، ولأول مرة ينتصر العرب فى معركة حيوية مع الغرب ، كان من نتيجتها أن ارتفع سعر البترول من ثلاثة دولارات للبرميل إلى حوالى ٤٠ دولاراً ، وتصبح بذلك الأمة العربية قوة اقتصادية كبرى . وماذا تم بعد ذلك ، يتحول السادات بزاوية ١٨٠ درجة م ليعلن زيارته للقدس التى تبعها بعد ذلك الدخول فى مفاوضات كامب ديفيد ، ويقاطع العرب مصر ويصدرون القرار بابعادها عن الجامعة العربية ويظل القرار ساريا لمدة عشر سنوات ، وتدخل الأمة العربية فى دوامة من الصراعات الداخلية والخارجية ، وتغزو إسرائيل لبنان وتقوم حرب الخليج الأولى ، ثم الثانية .

ويظل العرب يتخبطون .. وتنهار أسعار البترول .. ويحدث كل هذا نتيجة التفكك العربى الذى بدأ بانحراف السادات عن الطريق الصحيح.... هذا ما يسكت عنه **السيد يس** وشلة المثقفين المتحدة المستفيدة من الوضع الراهن .

كل الكتاب فى مصر كبار ، وكل الزعماء صغار ، وما المعيار الذى يحكم به على قائد أو زعيم، أى المقاييس يبنى عليها قرار الإدانة أو التمجيد والتبجيل ؟ المقاييس جميعها توافقت كثيرا مع صفة النفاق والانتهازية التى يتصف بها الكثيرون فى هذه الأيام وللأسف تظهر هذه الصفة بوضوح فى الفئات المفروض أن تكون عقلانية وهى تصدر أحكامها ، والأفضل أخلاقيا وهى تتعامل مع الآخرين . قطاع كبير من الصحفيين يطنطن دائما بانتصارات النظام والخدمات الجليلة التى يقدمها للشعب المسكين . والأحوال تنتقل من سيء إلى أسوأ ، وفى كل يوم تقريباً ترتكب جريمة فساد أو إفساد جديدة ، ولا يرى هؤلاء لزوماً لمحاربة الفساد وحماية الشعب بل يدافعون عنه بتبريرات وحجج لا تستند إلى أساس من المنطق أو الحقيقة .

(*) أوضحت احتفالية مرور خمسة وعشرين عاماً على حرب أكتوبر ، أن الدعم العربى كان أكبر بكثير مما ذكر ، لقد شاركت الكويت وليبيا والإمارات والسودان والمغرب بإرسال قوات إلى أرض المعركة .هذا بخلاف الدعم المادى والمعنوى الذى قدمته .

ولا يستطيع **السيد يس** وهو يناقش مشروع القومية العربية أن يقول : كان هناك جمال عبد الناصر وحب الجماهير له ، وبغض النظر عن موقفى من عبد الناصر كانت هذه الحقيقة . الخيوط جميعاً فى يد الرجل ، هو الذى يحرك الجماهير ويلهب الأحاسيس . كان حقيقةً بطل القومية العربية دون منازع ، وبطل الحياد الإيجابى، والدفاع عن حريات العالم الثالث ، كان رمزاً شامخاً للكفاح ضد الاستعمار .

وهزيمة مصر فى يونيو ١٩٦٧ م لم تكن خروجاً عن المعتاد فى هذا الزمان ، بل إنها حلقة من حلقات ضرب القوى التقدمية فى العالم ، حدث الانقلاب ضد رموزها فى شتى بقاع الأرض: ضد نكروما فى غانا ، وفى أندونيسيا ضد سوكارنو ، وفى الجزائر ضد بن بللا، وفى فرنسا اشترك البوليس الفرنسى مع البوليس المغربى فى تصفية بن بركة أحد رموز المعارضة المغربية.

ولم يترك الاستعمار الغربى رمزاً وطنياً فى العالم إلا واستأصله . ولعلنا نذكر دور المخابرات الأمريكية فى الانقلاب العسكرى ضد سلفادور الليندى بشيلى بعد أن نصّبه البرلمان رئيساً للجمهورية بالانتخاب الحر .

لماذا لا يتكلم **السيد يس** عن دور القوى المعادية للقومية العربية بالخارج أو بالداخل ؟ ولماذا لا ينقد دور المثقفين ؟ لماذا لا يحلل وضع التيار القومى فى مصر ؟ لماذا لا يقول أنه بالقدر الذى يوجد فيه مفكرون كبار ومنظرون منافقون وانتهازيون لا يوجد شرفاء مناضلون (على الساحة الرسمية) ؟ لماذا لا يقول أن القرار السياسى فى كل الدول العربية قرار رجل واحد ، والجماهير مُغّيبة ، وساهم المثقفون فى عزلتها وإبعادها عن العمل السياسى الجاد ، بعد أن زاد تأييدهم لحد العبث للأنظمة الحاكمة . ولم يرض الجمهور عن هذا العبث فراح ينصرف عن المشاركة فى الحياة العامة .

وأخيراً لماذا لا يقول أن قرار الفرد الواحد الذى اتخذه السادات بالتحول إلى أحضان أمريكا أصاب القومية العربية فى مقتل ؟ وكان وقع هذا القرار برداً وسلاماً على الأنظمة العربية التابعة لأمريكا ، وعلى أنصار أمريكا الذين يقتاتون على موائدها القذرة .

والحقيقة الغائبة عن السيد يس وأضرابه أنه لم يكن فى مصر فى أى يوم من الأيام تيار قومى شعبى قوى بل حب جارف لعبد الناصر ، ولكن التيار الأقوى فى مصر هو التيار الإسلامى الذى تغيب عنه حقيقة أن الوحدة الإسلامية لا يمكن أن تتم فى المستقبل القريب ، وأنها إن بدأت يجب أن تمر أولاً من خلال الوحدة العربية، وعلى كل حال بات الصراع أقوى بين القوى الوحدوية

- بصرف النظر عن كونها قومية أو إسلامية - والقوى المناهضة للوحدة. هذا بعد أن انقلب فريق كبير ممن ركبوا موجة القومية العربية عليها وراحوا يقفون فى صفوف أعدائها.

إن قضية الديمقراطية فى مصر تظل قضية معلقة لن يصدر فيها قرار حتى إشعار آخر، وبالتالى تظل قدرة مصر على قيادة الأمة العربية للوحدة محدودة فى غياب الديمقراطية ، ويظل التنويريون فى تناقض غريب مع مبادئهم ، يؤيدون ولو من خلف ستار ديكتاتورية النظم الحاكمة ، ويعملون فى الوقت نفسه ضد الوحدة التى يجب أن تقوم أولاً وأخيراً فى ظل الممارسة الديمقراطية السليمة، لا بالغزو ،ولا بالتدخل فى شئون الدول الأخرى ....

إننا فى حاجة إلى تكوين جبهه موحدة من المثقفين الشرفاء تعمل على تطبيق عقد اجتماعى يلتزم الجميع ، الكبير قبل الصغير ، بنصوص هذا العقد ، تُحدد فيه أولاً العلاقة بين الشعب ورئيس الجمهورية ، تُحدد فيه الاختصاصات واضحة ، وفترة الرئاسة التى لا تصل إلى نهاية العمر .إن العمل فى الأحزاب الحالية لا أمل من ورائه . والتغيير عن طريق العمل الجماهيرى تعترضه صعوبات كبيرة فى الوقت الحالى ، وما يمكن عمله هو تدعيم العمل النقابى والمنظمات غير الرسمية ، هذا على أمل أن تظهر قيادات من المثقفين تضع ميثاقاً للعمل الوطنى ينص المبدأ الأول فيه أن الهدف الأول والأخير لكل عمل سياسى أو ثقافى أو اجتماعى هو تدعيم الديمقراطية والممارسة الحرة لجميع المواطنين .

سألت صديقاً عن رأيه فى **السيد يس** ، فقال : "**إنه تغير ، لقد كان فى الأصل ماركسياً ، ثم حمل لواء المشروع الناصرى ، والآن يتجه نحو الغرب فكراً وتنظيرا**" . لا غبار أن يتغير المفكر ، فهذا اتجاه عقلانى إيجابى ، أما السيد يس فإنه لا يتغير بل يتلون ، يتلون تبع طبيعة النظام الحاكم ، ويسير فى ركاب سياسته وأيديولوجيته إن كانت له أيديولوجية ، وهو يفعل ذلك تحت ستار نقل الأفكار الغربية التى تدعم الاتجاه الجديد ، وهو سرعان ما ينتقل من فكرة إلى أخرى قد تكون مضادة للفكرة الأولى ، ذلك حسب ما يستجد فى الغرب من نقد وتحليل للأفكار المطروحة . باختصار شديد لم نجد فكراً إلا وكان السيد يسن نصيراً له ، حتى الفكر الإسلامى الذى طالما هاجمه ، يغازله، ربما خوفاً من أن يأتى قائد إلى الحكم باتجاهات دينية .

فى إحدى مقالاته يقول السيد يس : "**إن مساحة التجديد فى الفكر الإسلامى بالغة الضآلة إذا ما قورنت بسيطرة التقاليد الراسخة**" . والغريب فى الأمر أن يتجرأ الماركسيون ومدّعو التنوير على الثوابت فى العقيدة ، ولم يفعلوا ذلك بالنسبة لماركس وصاحب العقل الخالص ، والعقل العملى

ومونتسكيو وروسو . واعتبروا أقوالهم ثوابت لا نقاش ولا جدال فيها . والأهم من ذلك أن يطالب السيد يس بالحرية لأنصاف المثقفين وأنصاف المتعلمين حتى يفتوا فى الدين ويؤولون النصوص كما يشاءون . وهو فى الوقت نفسه يطالب بالديمقراطية وحكم الأغلبية .. الإسلام واضح «لكم دينكم ولى دين» يمكنك أن تكون ماركسياً ، أو علمانياً أو هندوسياً ، أو مسيحياً أو يهودياً ، ولا يحاربك الإسلام تاركاً لك مطلق الحرية فى ممارسة عقيدتك . ولكن لا يتهاون الإسلام مع من يدّعى أنه مسلم ويحاول تخريب الديانة من داخلها وهدم أركان الإسلام . للمسلمين الحق فى الزود عن عقيدتهم . ومهما يكن الأمر فإن هذه القضايا التى يثيرها **نصر حامد أبو زيد** أو **حسن حنفى** وغيرهما من أدعياء العلم والدين لا تصح أن تصرفنا عن حقيقة مؤكدة هى أن الإسلام أقوى ممن يكيدون له .

يقول **سعيد النجار** فى مقال نشره **السيد يس** بتاريخ ٧ أغسطس ١٩٩٧ بجريدة الأهرام "**إن الحركة الإسلامية لها حضور قوى فى الشارع المصرى بين شريحة الطبقة المتوسطة المثقفة ورغم هذا لا تسمح السلطات للتيار السياسى الإسلامى بأن يقوم بدوره بطريقة مفتوحة من زاوية السماح له بتكوين حزب شرعى بصفة مستقلة - وهذا فى رأيى وضع غير صحى**" .

يقف ضد الإسلام هؤلاء الذين لا يؤمنون بالديمقراطية الذين يظنون أن علمهم هو الأعلى والأغزر والأصوب وهذا دليلنا ، يقول **السيد يس** نفسه فى أهرام ١٢ أغسطس ١٩٩٧ م مدعياً بأن الجميع لا يفهمون ولا يقرأون .

"أغلب من علقوا على هذا الكتاب (مستقبل الثقافة فى مصر لطه حسين) ، متقدين - لم يقرأوه. وأغلب من قرأوه لم يفهموه . قال طه حسين هل نحن أقرب إلى مجتمعات البحر المتوسط أم إلى مجتمعات الشرق ؟

كان يقصد الصين واليابان ، وليس المجتمعات العربية كما تصوروا (السيد يس هنا يؤول النص كما يشاء) ، **وهذا صحيح تاريخياً نحن أقرب إلى مجتمعات البحر المتوسط بحكم اتصال الفراعنة القدماء بالحضارة اليونانية (أين نحن الآن أيها المفكر الكبير من عصر الفراعنة) وهو ما أكده العالم الفرنسى الشهير (برودل) فى كتابه البحر الأبيض المتوسط فى عهد فيليب الثانى ، حيث خصص فصلاً عن تاريخ العقليات فى تاريخ البحر المتوسط . كما يؤكد المؤرخ الأمريكى مارتن برنال فى كتاب اسمه "أثينا السوداء" على أن الثقافة الفرعونية هى التى شكّلت الثقافة اليونانية .**

إذن نحن فى أشد الاحتياج لإعادة قراءة طه حسين" ، ماذا تقول أيها السلفى ، لو كان طه حسين قد عاش حتى الآن ورأى التقدم الهائل الذى أنجزته كل من اليابان والصين من المحتمل أنه كان يحاول أن يقول أننا أقرب إلى مجتمعات اليابان والصين . هذا مع العلم بأنه لم يقصد أبداً ما ذهب إليه السيد يس ، بل إنه كان يقصد تخلف الثقافة العربية الإسلامية . والمعركة التى أثارها بكتابه الشعر الجاهلى معروفة للجميع .

أما أن يسترشد **السيد يس** بكلمات الأجانب ليعضد رأى **طه حسين** فهذه إشكالية ينقدها هو نفسه ومع ذلك فإنه لا يستطيع أن يتخلص من تبعاتها . وذلك لأنه لا يسعه إلا أن يسير مع الموجة فى وسط شلة المثقفين المتحدين الذين أساءوا كثيراً إلى تطور الثقافة فى مصر حينما خلعوا أنفسهم عن الجذور ، وراحوا فى متاهات الفكر الغربى البعيد كل البعد عن واقعنا المعايش . وتقاعسوا عن شحذ القريحة لكى يبدعوا ثقافة معاصرة تمهد البيئة والمناخ لصناعة التقدم والنمو ، بيد أنهم استسهلوا النقل والترجمة عن الغرب .

وبهذا الصدد يقول **أنور عبد الملك** :

"إنه يمكننا التحرك مع حركة الجدلية الاجتماعية لمجتمعاتنا القومية فى صورها المعاصرة ، أى أن نواكب ونمارس عملية الصيرورة التاريخية من الداخل - من الداخل كعقول واعية صاحبة سيادة - لا كعقول عميلة لقوى الهيمنة الخارجية التى لا تهدف إلا إلى الاحتفاظ بعالمنا العربى فى مكانة التبعية بينما وجهتنا هى النهضة الحضارية ".

وعلى الرغم من كتابات **السيد يس** الكثيرة نقلاً عن الغرب فهو ينقد هذا الأسلوب - ويقول فى كتاب **"الوعى القومى المحاصر"** :

وقد أدى هذا الفشل إلى عدم فهم العملية التاريخية الكبرى التى بدأت باللقاء العاصف بين الحملة الفرنسية والمجتمع المصرى - ومن هنا بدأت عمليات التأثر البالغ بالنموذج الأوروبى باعتباره هو النموذج الأول الذى ينبغى أن يحتذى - أصبحت أوربا هى قبلتنا ونسينا أهمية تطوير تقاليدنا الفكرية ، وتحديث تراثنا الثقافى الزاخر ، وربطه بإنجازات الفكر الإنسانى المعاصر ، لقد حدثت قطيعة معرفية بين ماضينا وحاضرنا . وضعت موروثنا الثقافى بين قوسين باعتباره رجعياً ومتخلفاً وانطلقنا بدون هدى وبدون التسلح بنظرية واعية نستعير من الغرب الأفكار والقيم والمؤسسات ، ونسينا فى غمار عملية النقل والاستعارة أن هذه الأفكار والقيم والمؤسسات الغربية نمت وتطورت نتيجة صراع سياسى واجتماعى طويل وأنها تراكمت كمحصلة لتطوير تاريخ معقد. وحين زرعنا هذه النظم فى بيئتنا بغير توافر الشروط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ،

تحولت للأسف إلى مسوخ شائهة ، وصور كاريكاتورية لا علاقة لها بالأصول التى تم النقل عنها.

وعلى الرغم من نشأته الماركسية التى لا تزال تسيطر على أفكاره مهما حاول إخفاء ذلك ، حتى الآن ، ينتقد بالأسلوب نفسه المثقفين العرب الذين تحمسوا لفكر الماركسية وروّجوا له ، بعد أن اتهمهم بالاقتباس والنقل الآلى من كلاسيكيات هذا الفكر ، ثم يقول : **"مما لا شك فيه أن هناك أزمة إبداع فى الفكر العربى المعاصر"** ، ومع ذلك يطالب التيارات الرئيسية فى الوطن العربى التى صنفها إلى ماركسيين ، وليبراليين . وقوميين ، وإسلاميين أن يعبّروا عن إطار واضح لفكر كل منهم بدلاً من العموميات .. أليس هناك عموميات أكثر من هذه الكلمات التى يطلقها السيد يس نفسه .

وفى تعريف السيد يس للمشروع الحضارى العربى يقول **"إن لدينا فى الوقت الراهن أربعة مشاريع حضارية مطروحة هى المشروع القومى والماركسى والليبرالى والإسلامى"** .

وبعد أن ينقد هذه المشاريع يقول :

"ونحن نختلف مع الجابرى فى توقعاته ، فى تقديرنا أنه ليس هناك مستقبل للماركسية فى العالم العربى إلا إذا تجددت ، وفى هذه الحالة سيبقى دورها محصوراً فى تدعيم المنهج العلمى فى تحليل المجتمع .

ويبقى الأمل مفتوحاً أمام تأليف حى وخلاق لمشروع حضارى قومى جديد عناصره الحفاظ على الهوية الثقافية الإسلامية ، واعتبارها رافداً أساسياً لتطوير المجتمع وإثراء الشخصية الإنسانية والعدالة الاجتماعية التى تضمن الحد الأدنى لعدالة توزيع الثروة . كل ذلك فى إطار أوسع مدى من الحرية للوطن والمواطن على السواء" .

ويبدو من عباراته الأخيرة أن السيد يس يكتب كتبه للمثقفين العرب خارج مصر . أما فى مقالاته التى يكتبها فى الأهرام القاهرية فيقصد بها فى معظم الأحيان مغازلة النظام الحاكم ، فهى تتناقض تماماً مع ما جاء فى عباراته السابقة . فهو فى أحد مقالاته فى الأهرام ، عارض **محمد حسنين هيكل** حينما قال : **"إن ثقافتنا ينقصها الإبداع وهى منقولة عن الغرب"** ، فأخذ يردد السيد يس الإنجازات العظيمة التى حققها المثقفون العرب ، بالطبع كانت العبارات التى كتبها فى هذا الصدد جوفاء لا تحمل مضموناً ذا قيمة . أما عن دعوته لمشروع حضارى قومى ورافده الثقافة الإسلامية ، فهو دائماً فى مقالاته يقول عكس ذلك تماماً ، ويهاجم التيار الإسلامى بكل فصائله ،

ويدّعى أننا نعيش فى دولة مدنية ، مع أن المصدر الأساسى للدستور الشريعة الإسلامية ، كما أن مصر عضو فى المؤتمر الإسلامى .

تعالى معى أيها القارئ لنعرض لأخر صيحات السيد يس ولنقرأ هذا المقطع من مقالة فى الأهرام بتاريخ ١٥ / ١٠ / ١٩٩٨ بعنوان «قراءة منهجية لحركة الطريق الثالث» :

"الطريق الثالث ليس مجرد نظرية جديدة تحاول التأليف الخلاق بين إيجابيات الاشتراكية وحسنات الرأسمالية ، بل هو أهم من ذلك حركة سياسية نشيطة تقوم بالدور الفاعل فيها حكومات غربية متعددة ، استطاعت أن تصل الأحزاب التى كونتها للسلطة من خلال الانتخابات العامة . وهى من ثم ليست حركة فكرية نخبوية أطلقتها مجموعة من المفكرين السياسيين ، بقدر ما هى إعلان بارز عن تحولات خطيرة فى المزاج السياسى للجماهير - إن صح التعبير - وترجمة صادقة للتكيف الأصيل لكل من النخبة السياسية والمفكرين والجماهير لتغيرات العصر من ناحية وتأمل عميق فى الحصاد الإجمالى لخبرة القرن العشرين» .

أسلوب ساحر يستحق صاحبه جائزة الدولة فى الأدب ، ولا أعتقد فى السياسة أو فى العلوم الاجتماعية لأنه مازال يجرنا إلى نظريات وأفكار تتبلور وتتكون فى بيئات غريبة عن مجتمعاتنا وهى تنشأ نتيجة للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية هناك ، ومازلنا لم نتعلم ، فقبل أن نطبق الاشتراكية بعد أن اعتنقها واعتقد فيها معظم المثقفين المصريين ، سقطت الاشتراكية ومازالوا هناك يبحثون فى مسألة إنعاشها ، وقبل أن نعد أنفسنا لفهم الكونية التى "وجع" دماغنا بها السيد يس ، يجرنا إلى فكر جديد ، قبل أن نستوعب القديم ونهضمه . هذه الأفكار تنتج عن أزمات اقتصادية، قد تكون مؤقتة ، أو مستمرة ، وفى الحالة الأولى قد لا تصمد الأفكار الجديدة بعد علاج الأزمة واختفائها ، وبالتالى أجد لزاماً هنا أن أطرح سؤالاً على السيد يس حتى نستريح من وجع الدماغ الذى يسببه لنا :هل هناك علاقة بين الأفكار الجديدة والتحولات الاقتصادية فى المجتمعات المتقدمة ؟ إذا كانت الإجابة بنعم ، فإن هذه الأفكار الجديدة لا تصلح لمجتمعاتنا لأن التغيرات الاقتصادية لا تمر بنفس مراحل ولا هى بنمط التغيرات الغربية ، وكما يقول السيد يس ما هى إلا إعلان بارز عن تحولات خطيرة فى المزاج السياسى للجماهير .. والآن نتساءل هل تعرف أيها الكاتب الكبير شيئاً عن المزاج السياسى للجماهير ؟ أنت مازلت تطلق تكهنات عن المشروع الحضارى أو السياسى العربى ، هل هو ماركسى ، أو قومى ، إسلامى أم ليبرالى ، وفى الغرب عندهم طريقان ماركسى وليبرالى والآن الطريق الثالث ، أى أن الأمور تختلف عندنا عن عندهم ،

ولماذا لا نختصر الطريق ولانتكلم كثيراً عن المشروع القومى ، أو الإسلامى لأن صاحب الفكر القومى يمكن أن يكون قومياً ليبرالياً أو قومياً ماركسياً ، وباعتبار أن الليبرالية لا تتعارض أيضاً مع القومية ، ثم إن جميع المذاهب السياسية تقبل بالتعددية سواء الثقافية للجماعات المحلية أو الدينية، وبالتالى ستحدد هذه المفاهيم فى أضيق حدودها حتى تقترب إلى التوجهات فى الغرب فيكون النقل عنها أسهل كثيراً ولا يدخلنا فى متاهات ودروب متفرعة ومتنافرة ، وأخيراً متى يتوقف الكاتب الكبير عن الترجمة ويركز فى كيفية ترسيخ الممارسة الديمقراطية فى المجتمع العربى ؟! هل نحتاج إلى ضياع مائة عام أخرى نتكلم فيها عن فكر تنويرى أوربى - دون أن نطبق عملياً ، وهو سؤال موجه إلى كل التنويريين بل إلى كل المثقفين فى مصر .

الهطل الفكرى

يقول سمير أمين :

" تصدى الفكر الاشتراكى لمسألة القومية فى أوربا فى القرن التاسع عشر أولاً، ثم فى إطار الاستعمار خارج أوربا ، وأقل ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد هو أن الفكر بجميع تعبيراته واتجاهاته قد وضع نفسه فى خط سير فلسفة الأنوار ، فلم يتخلف عنها ، فاليسار تاريخياً ، وبالأولى اليسار الاشتراكى ينخرط ضمن القوى الأكثر ديمقراطية ، قوى تشك عن حق فى صدق ديمقراطية اليمين المستعد دائماً للحد من الحدود المكتسبة من أجل حماية امتيازات الطبقة المستغلة التى يمثلها من جانب آخر . فقد وضعت الاشتراكية لنفسها هدفاً رئيسياً هو تدعيم الوعى الطبقى وتشجيع التضامن بين صفوف الطبقات الشعبية - فعارضت من هذا المنظور الأيديولوجية القومية ومناورات الرجعية التى وظفت هذه الأيديولوجيات من أجل إنضاج الوعى الطبقى .

على أن دستور الاتحاد السوفيتى وكذلك دستور يوغسلافيا ، لا يمثلان فقط وثيقتين بل أيضاً تجليات تجربة معاشة بايجابياتها وسلبياتها ، ومن هذا المنظور أزعم أن البلشفيك رفعوا احترام القومية إلى أقصى حدود الاحترام من حيث المبدأ معترفين بحق الاختلاف" .

مما يثير الدهشة فعلاً أن يقول الكاتب أن البلشفيك رفعوا احترام القومية إلى أقصى جدود الاحترام . وعلى الرغم من أننا نعلم مدى مقاومة الشيوعيين العرب للقومية العربية فإننا نحاول أن نفهم معنى الوعى الطبقى وتشجيع التضامن بين صفوف الطبقات الشعبية . وهل هذاالوعى الطبقى والتضامن الشعبى يقوم دون ما وعى بالاتجاه القومى . وكيف يمكن أن يحدث هذا إذا أخذنا فى الاعتبار شعارات الاشتراكية : يا عمال العالم اتحدوا - وهى تقصد بذلك تعدى الحدود الوطنية والقومية ، ويقول سمير **أمين** ضمنياً أن الدولة لا تقوم على أساس دينى أو عرقى فى حين أن التاريخ يقول أن الدولة القومية يمكن أن تقوم على أساس دينى أو عرقى ، إلا أن **سمير أمين** بفكره الماركسى المسبق يلغى ما خطه التاريخ لصالح اعتناقه الخاص لعقيدة شبه ثابتة فى تفكيره .

ويقول سمير أمين : **"صحيح أن النظام السوفيتى قد اتسم بهيمنة ثقافية روسية لم تخل من**

ظواهر شوفينية إزاء الشعوب الأخرى" ، ومع ذلك يضفى على النظام صورة أخرى طية فيقول : **"ولكن إلى جانب ذلك حقق النظام السوفيتى فعلاً اعادة توزيع الثروة فى صالح آسيا الوسطى والقوقاز على حساب المركز الروسى"** ، **ولكنه يرجع فيقول "إلا أن التاريخ قد أثبت أيضاً أن عامل الشوفينية الثقافية الروسية قد أدى دوراً سلبياً لم تلغه إيجابيات توزيع الثروة لصالح الأطراف"** .

وكان الزائر للاتحاد السوفيتى قبل انهياره يلاحظ أن روسيا تمارس أبشع أنواع الاستعمار ضد الأطراف ، كما أطلق عليها **سمير أمين** . وكانت روسيا تفرض تعلم اللغة الروسية كلغة أولى فى كل مدارس الجمهوريات غير الروسية كما أنها كانت تمنع إقامة الطقوس الدينية .

ويقول سمير أمين :

"تعطى لنا يوغسلافيا مثالاً صارخاً عن الجوانب السلبية للتجمد الذى أنتجته ممارسات سياسية وقعت منذ احترام الخصوصية القومية إلى ما بعد الضرورى . فكان ثمة نسبة متزايدة من الشباب فى يوغسلافيا قد أخذوا يبتعدون عن تشديد انتمائهم إلى القوميات المعترف بها فى الدستور ، ويعلنون يوغسلافيتهم بصفتها قومية جديدة .

أعتقد أن هذا التطور كان إيجابياً ، وكان ينبغى تشجيعة والاعتماد عليه ، إلا أن قوى الرجعية فى الداخل - مسنودة من الخارج قد اختارت فى مواجهة أزمة النظام خطة أخرى تدعو إلى إنعاش القوميات إلى حد الشوفينية والنتيجة بينة أمام أعيننا" ، يُرجع **سمير أمين** أى خلل فى النظام الاشتراكى إلى الرجعية . وهل كان **جورباتشوف** رجعياً حينما أراد أن يصلح من أخطاء النظام . كما أنه يفسر انهيار الاتحاد السوفيتى ويوغسلافيا كنتيجة لفعل أيدى خارجية ، وتأجيج النعرة القومية بين شعوب الاتحاد السوفتى ويوغسلافيا فى حين أنه يقول أن الشباب أعلن يوغسلافيته بصفتها قومية جديدة ، مما يعنى أن القومية لم تختف أو تضعف بل زادت مع اتساع كياناتها ورقعتها دون أى تدخل من قوى أجنبية كما يقول .

والحقيقة فى انهيار الاتحاد السوفيتى كما يقول **توفلر** أن الاشتراكية قد اصطدمت بالمستقبل . وانهارت الأنظمة الاشتراكية ليس لتدخل وكالة المخابرات الأمريكية المركزية أو الحصار الرأسمالى أو الركود الاقتصادى المفروض من الخارج . لقد تهاوت الحكومات الشيوعية الأوربية كأحجار الدومينو بمجرد أن وصلت رسالة من موسكو بأنها لن تعود إلى استخدام قواتها المسلحة لحماية تلك الحكومات من شعوبها .

إن الأزمة الاشتراكية كنظام فى الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية الأخرى تنبع من فشل

النظام فى تنمية الاقتصاد القومى . وتحقيق مستوى معيشة يليق بسكان ثانى قوة فى العالم . ربما كان السوفيت يرون الأقمار الصناعية تنطلق إلى السماء ، ويبهرهم هذا التقدم الذى تحقق فى غزو الفضاء ، ولم يقابله تقدم مقابل على أرض الواقع . وفى خطابة عام ١٩٨٩م أعلن **جورباتشوف** : **"لقد كنا من بين آخر من تفهم أنه فى عصر المعلومات أصبحت المعرفة هى أكبر الموجودات قيمة".**

وقد كان **ماركس** نفسه الذى توصل إلى التعريف الكلاسيكى للحظة الثورية ، فهو الذى قال : **"إن اللحظة الثورية تكون قد حلت عندما تكون العلاقات الاجتماعية للإنتاج (طبيعة الملكية والإدارة) عائقاً فى وجه مزيد من تطور وسائل الإنتاج"** . والحقيقة أن هذه الصيغة وصف دقيق للأزمة الاشتراكية العالمية . وكما كانت العلاقات الاجتماعية للإقطاع فى وقت مضى عائقاً للتطور الصناعى فإن العلاقات الاجتماعية فى النظام الاشتراكى تجعل من المستحيل أن تفيد البلاد الاشتراكية من النظام الجديد لخلق الثروة الذى تأسس على الحاسبات الإلكترونية والاتصالات ، والقائم قبل أى شىء آخر على الانفتاح المعلوماتى والإعلامى ، والحق أن الإخفاق الرئيسى لتجربة الدولة الاشتراكية يكمن فى أفكارها البالية عن المعرفة .

ونظام الحزب الواحد مصمم للسيطرة على الاتصالات السياسية ، ولأنه لا توجد أحزاب أخرى ، فإن ذلك يحد من تنوع المعلومات السياسية التى ينبغى أن تتدفق داخل المجتمع ، ويوصد الطريق أمام التغذية المرتجعة ، وبذلك يضع غشاوة على أعين أولئك الذين فى السلطة فلا يرون مدى تعقد المشكلات التى يتعين عليهم علاجها ، إذ يضيق لحد كبير نطاق المعلومات والأخبار والأفكار التى تتدفق من أسفل إلى أعلى خلال القنوات المسموح بها . وتبقى الأوامر فقط تسير من أعلى إلى أسفل . وفى ظل هذا القصور فى نشر المعلومات يصبح من الصعب على النظام أن يكتشف الأخطاء ويصلحها.

وفى الحقيقة كان نظام السيطرة من أعلى إلى أسفل فى البلاد الاشتراكية يعتمد باطراد على الأكاذيب والمعلومات الخاطئة لأن تقديم أية تقارير تحمل أخباراً سيئة كان دائماً مخاطرة غير مأمونة العواقب .

ولم تكن البيروقراطية الطاغية التى خلفتها الاشتراكية فى مجالات الحياة جميعاً إلا جهازاً من أجهزة كبت المعرفة وحبسها فى كهوف أو غرف مقفلة ، وجعل تداولها قاصرا على قنوات رسمية مختنقة مع تحريم أية عملية غير رسمية لتداولها أو تنظيمها .

كذلك لم يكن جهاز الشرطة السرية وهيمنة الدولة على وسائل الإعلام وإرهاب المثقفين

والمفكرين ،وقمع حرية الفن والكتابة ، ليست كلها إلا محاولات للحد من تدفق المعرفة والسيطرة عليها . ومع كل هذه الخطايا التى ارتكبت فى الاتحاد السوفيتي يمجدونه ويتّبعون أوامره ولم يحاولوا أبداً فى نقد التجربة.

لم نكن نعيب على النظام الاشتراكى اشتراكيته ودعوته للتوزيع العادل للثروة ، بل كنا نرى فيه صورة سيئة للسيطرة على الفرد وتفريغه من روحانياته ، ولذلك لم نؤمن بالماركسية على الرغم من تعاطفنا معها واحترامنا وتقديرنا لما قدمه الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية لنا فى كفاحنا ضد الحصار الاقتصادى الذى فرضته علينا القوى الاستعمارية . فلا ينسى أحد أن الاتحاد السوفيتي موّل عملية بناء السد العالى ، ولا ننسى أن الاتحاد السوفيتي أمدّنا بالقمح حينما منعته عنا الولايات المتحدة . كما أن الدول الاشتراكية ساندتنا فى حروبنا ضد إسرائيل وأمدتنا بالأسلحة المتقدمة حتى استطعنا أن نخوض حرب أكتوبر بصورة مشرفة أعادت للعسكرية العربية شرفها وللأمة العربية كرامتها بعد أن عاشت سنوات الذل واليأس عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧م .

وحينما يتعرض **سمير أمين** للقومية العربية من منطلق أيديولوجيته الماركسية ، وهو يتكلم عن طبقات برجوازية رجعية ، وينكر الإسلام كعنصر لا ينفصل عن العروبة ، يقول :

"لا شك فى أن المضمون الرجعى لطابع مفهوم القومية العربية المعنى هنا قد أدى إلى نتائج سلبية فى الممارسة . فبدلاً من اعتبار ضرورة إنجاز الوحدة من خلال نضال ديمقراطى - وهو شرط اقتناع الشعب بإيجابية المشروع ، شجعت ضبابية مفهوم العروبة وهمَ احتمال إنجاز الوحدة بالقوة مشروعيته لاستخدام العنف".

هل كان مفهوم القومية العربية مفهوماً رجعياً تبنته القوى الرجعية فى الوطن العربى ؟ أم أن رفع شعار القومية العربية أدى إلى صراع حاد بين القوى التقدمية والرجعية فى الوطن العربى ؟ ألم ترفع القوى القومية شعار تطبيق الاشتراكية وتوزيع الدخل ... وسوف نوافق أن نظام عبد الناصر كان ديكتاتوريا بيروقراطيا برجوازيا ، ألم يفرز قوى سياسية أكثر تقدمية وديمقراطية كحزب التجمع التقدمى الوحدوى . ناهيك عن الحزب الناصرى فى مصر والبلاد العربية الأخرى، والحزب الناصرى هو كل جماهير الشعب العربى الذى يتكلم سمير أمين عن شرط اقتناعه بإيجابية المشروع .. **سمير أمين** لم يحس أبداً نبض جماهير الشعب العربى فى الستينيات ، الشعوب العربية كلها فى الكويت والسعودية وسوريا والجزائر والعراق كانت تقف مع الوحدة ، أما فئة المثقفين وخاصة الاشتراكيين الماركسيين فهى التى كانت تقف ضد الوحدة بكل عنف

وشراسة . وفشل تجربة الوحدة فى سوريا لم يحدث بسبب عدم رضى الجماهير عن الوحدة وفى سوريا بالذات ، ولكن لعيوب فى نظام الحكم . لم تنشأ عن ديكتاتورية أو سيطرة بل عن جهل سياسى بالتنظيم . فلو ترك **عبد الناصر** جماعة الخمسة المسيطرة على اقتصاد سوريا ، ولم يتخذ إجراءات التأميم التى تمت فى يوليو ١٩٦١م ، ربما لاستمرت الوحدة باقية . وبصرف النظر عن الانفصال ، فإن القوى التى تدّعى القومية هى التى نجحت فى السيطرة عن طريق الانقلابات العسكرية فى مصر وسوريا والعراق . ولكنها للأسف لم تسر فى طريق الوحدة . يعنى ذلك كله أن القوى الرجعية هى التى ضربت الوحدة ، مما يعنى أيضاً أن حكم الفرد - يسانده المثقفون الانتهازيون والمنافقون - هو الذى حال دون رجوع الوحدة .

ليس هذا فقط فالوحدة لن تتم أبداً بقرار فرد ، ينزاح عن الحكم بسبب ما ويأتى غيره بعده ليغيّر قرار الوحدة ، هذا ما قاله صاحب هذا الكتاب حينما وقف أمام المشير عامر فى فرنسا عام ١٩٦٦م . قال بالحرف الواحد : إن الوحدة يجب أن تتم بالطريق الديمقراطى ، وكان وقتها بن بللا كما يعتقد على رأس الحكم فى الجزائر وكان اتجاهه الوحدوى واضحاً وأكيداً ، وقال صاحبنا للمشير عامر ، قد تقوم الوحدة مع قطر عربى وليكن الجزائر مثلا فى وجود بن بللا ، ثم يذهب بن بللا فتضرب الوحدة وإمكانية حدوثها .

لقد حقق **سمير أمين** مأربه من مقالاته فى التأكيد على رجعية الخطاب القومى العربى وهو فى ذلك متسق مع فكره الماركسى الذى ينكر القومية والأديان . لقد ناقش **سمير أمين** المشروع العربى بعمومية كعهده دائماً ، فهو لا يطلق إلينا أكثر من عموميات تحتوى كلاماً نظرياً كبيراً ، ولكنه لا يمت أبداً إلى أرض الواقع بأيه صلة . ولم يناقش **سمير أمين** فصائل المشروع القومى العربى ، فحتى الآن لم ينزل **سمير أمين** بالتفصيل لشرح من هم القوميون العرب . وهو بالطبع يتطلع إلى قوميين عرب غير موجودين على الساحة الآن . وللأسف الشديد لن يظهروا بين صفوف الماركسيين ، لا لأن الماركسية قد انتهت فى الأمة العربية ، بل لأنها ظلت وستظل تابعة للخارج .

وحتى الآن لا نعرف من هم القوميون العرب ، البعثيون ، الناصريون ، الماركسيون الجدد ، كان من الأولى مناقشة الخطاب الناصرى لأسباب كثيرة أهمها أن **عبد الناصر** مفجر القومية العربية فى عصرنا الحديث ، وصاحب أول تجربة حقيقية فى الوحدة .

ونتساءل هل كان للناصرية منظرون وفلاسفة أم أنها فكر عفوى جادت به قريحة **عبد الناصر** ، هل هناك امتداد للفكر الناصرى يتمثل فى مبادئ وفلسفات الحزب التقدمى الوحدوى والحزب

الناصرى ، هل من مفكر حلل أو نقد سياسات وفكر الحزبين .... ما زال المثقفون العرب بدون هوية . ينقلون أفكاراً وفلسفات غربية عبارة عن مصطلحات مجردة بعيدة جدا عن واقع الممارسة والعمل السياسى.

وعلى كل حال يبقى **سميرأمين** يتفلسف ماركسيا . ويشير إليه جماعة الماركسيين بأنه الفيلسوف الكبير والمفكر العظيم ليقولوا ها نحن هنا مازلنا نتفلسف وننظر ونشارك فى تنمية الوعى السياسى . وهم واهمون فالجماهير العربية تتجه بعيداً عن أفكارهم ، بل إن العالم كله يتجه وجهة أخرى غير وجهة الاشتراكية الماركسية .

وعندما يتطرق **سمير أمين** إلى كيفية مواجهة عولمة الرأسمالية ، يعتبر أنه مادام هجوم ما يسميه بالرأسمالية المتوحشة يتم على مستوى العالم ، فإن الرد عليه يجب أن يكون عالمياً كذلك ، ولكن نظراً إلى أن الاشتراكية العالمية باعتبارها ليست للغد القريب ، فإن من الضرورى - كما يرى - العمل منذ اليوم فى اتجاه يسهل حدوث تطور يكون على المدى البعيد فى صالح هذا الخيار . وعليه فإن هناك قاعدة موضوعية يمكن ويجب أن تبنى عليها أممية الشعوب فى مواجهة أممية رأس المال ويعود **أمين** أخيراً إلى بلورة مشروع بديل إنسانى يخدم التنوع الديمقراطى وينطوى تحققه على إقامة نظام سياسى عالمى يضطلع بالمسئولية الكبرى فى الميادين الأربعة التالية : تنظيم سلاح كونى تنظيم الوصول المتوازى إلى استخدام موارد الكون ، وضع أنظمة عالمية لاتخاذ القرار فى هذا الميدان ، التفاوض على قيام علاقات اقتصادية مرنة ومتفتحة .

ليس هناك أفضل من هذا الكلام ، يطيب لأنظمة الغرب المتجمعة فى العولمة الرأسمالية طالما أن مشروع **أمين** لا يشترط العمل الفورى السريع ، بل إنه يستند إلى طول المدى والنظر إلى بعيد ، ومع أنه يصر على ما يسمى بالاشتراكية العالمية ، وأممية الشعوب وهى كلها مصطلحات ماركسية لا يشير أبداً إلى تحديد القوى الاشتراكية فى البلاد النامية التى ستتولى القيام بهذه المهمة .

ويظل **سمير أمين** يحلم بأنه مازال فى البلاد النامية قوى سياسية تؤمن بالاشتراكية وتدافع عنها، وهو يتجاهل تماماً أن الكثيرين الذين كانوا يقفون فى صف واحد معه قد غيروا من جلودهم وراحوا يروّجون للعولمة الرأسمالية تحت مسميات جديدة تناهض كل ما حاربت من أجله قوى العالم النامى . وفريق آخر بعد عن الماركسية ولكنه مازال يبحث عن ثقافة جديدة تصارع سيطرة الثقافة الغربية ، متجهين إلى البحث عن الهوية وتقوية الجذور الثقافية ، ولكن مازال هناك مسافة كبيرة بينهم وبين التيار الدينى بكل فصائله المعتدلة والمتطرفة .

مازال **سمير أمين** يعتقد فى فلسفة التاريخ التى تبناها **ماركس وانجلز** والتى بشرت بزوال الدولة وزوال السوق وزوال الحدود القومية ويتناسى أن ما يؤخذ على الدولة الاشتراكية وفاؤها المبالغ فيه لهذه التعاليم .

إن التشكيلات الاجتماعية فى الدول الاشتراكية التى انهارت لا يمكن أن نطلق عليها اشتراكية حيث لم تشهد هذه التشكيلات مبررات مفضية إلى انحلال الطبقات وزوال الدولة والقضاء على استلاب العمال .

ونتساءل الآن هل النظام الاقتصادى هو الأولى بالرعاية الآن أم أن التنمية السياسية هى التى يجب أن تكون محل رعاية . وهنا يجب الفصل بين الاشتراكية كنظام اقتصادى ونظام سياسى هذا إن أمكن . وإذا كان من الصعب فعل ذلك فمن الناحية العملية يجب أن نفسح المجال لتدعيم العمل الديمقراطى فى ظل النظم الرأسمالية الحالية ، فإن القوى الشعبية التى تأخذ على عاتقها عملية التغيير ليست بالقوة التى نستطيع بها أن نسير فى المعركتين معا . بل إن عليها أن تهادن القوى الرأسمالية وتتماشى مع النظام العالمى الجديد بحرص شديد حتى لا نقع تحت هيمنة القوى الخارجية أو أعوانها فى الداخل ، ونحن لا نقول ذلك إيماناً بالرأسمالية وخاصة المتوحشة . ولكننا مقتنعون أن فرصة تطبيق الاشتراكية فى البلاد العربية قد ضاعت .



سذاجة الفكر التنويرى العربى

فى مقاله بالأهرام فى ١١ فبراير ١٩٩٨م يقول **أحمد عبد المعطى حجازى** :

" غير أن هذا التداخل بين الدين والقومية عند اليهود كان رد فعل لموجة الاضطهاد التى تعرضوا له ، فهو يقوى مثلاً فى روسيا التى اضطهدتهم فى العصور القيصرية ، ويضعف فى للجتمعات الغربية التى سمحت لهم بالاندماج فى غيرهم من المواطنين ، والفضل فى هذا للعلمانية التى لا تفرق بين دين ودين ، وتعامل الجميع باعتبارهم مواطنين أحرارًا ، متساوين فى الحقوق والواجبات ، على عكس الدول الدينية التى يدعو إليها البعض عندنا ، فتتطابق دعوتهم مع الصهيونية التى حوّلت الدين إلى دولة ، أما نحن فنريد أن نكشف هذا التزوير ، ونثبت أن اليهودية شيء والصهيونية شيء آخر ، فاليهودية دين ، أما الصهيونية فحركة استعمارية ، فإذا ردت علينا الصهيونية قائلة إن إسرائيل هى الملجأ الذى يلوذ به اليهود المضطهدون . قلنا إن هؤلاء اليهود يستطيعون أن يندمجوا فى المجتمعات التى يعيشون فيها منذ مئات السنين ، كما يفعل معظمهم بالفعل ، فاليهود الأمريكيون أمريكيون ، والبريطانيون بريطانيون ، والمغاربة مغاربة .

ونحن لن ننجح فى هدم الأساس الذى قامت عليه إسرائيل ، وهو الأساس الدينى الذى قامت عليه الدولة ، ولن ننجح فى إقناع اليهود بأنهم يستطيعون أن يندمجوا فى المجتمعات الأخرى التى يعيشون فيها ، وبينها مجتمعاتنا العربية الإسلامية ، إلا إذا نجحنا فى فصل الدين عن الدولة ، وأثبتنا بالفعل لا بالقوة أن مواطنينا على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم يعيشون معاً آمنين متساوين أمام القانون ، لا فرق بين مسلم ومسيحى ويهودى ، وأن الدين لله والوطن للجميع ".

والمتابع لكل مقالات الكاتب فى الأهرام لا يجد غير هذا الفكر الذى لا يخدم غير قوى الاستعمار الغربى وخاصة فرنسا ، فالكاتب له علاقة حميمة بفرنسا ، يدعو لثقافتها ويروّج لأفكار التنوير التى تعمل دون وعى على مناهضة الروح الوطنية والهوية القومية .

ولن نعلق على الكاتب ذى الأصل الماركسى بأكثر مما كتبه **أنور عبد الملك** فى جريدة الدستور

العدد ١١١، ٢١يناير ١٩٩٨م .

"الحزب الشيوعى المصرى الأول الذى أنشئ عام ١٩٢٠-١٩٢١ كان أمينه العام يهودياً من الإسكندرية ، تجد اسمه فى كتب رفعت السعيد ، وما لم يذكر عنه أنه هو الذى دفع بالحزب إلى اليسارية وإقامة لجان عمالية أسماها سوفيتات الإسكندرية مابين عامى ١٩٢٤- ١٩٢٧ ، مما أدى إلى صدام مع حزب الوفد . وهناك أيضا الأسلوب الاستفزازى التروتسكاوى الصهيونى لهذه القيادة . وتتلخص فكرة هذا الأسلوب فى أن الدول العربية ، دول متخلفة اقطاعية ، أى دول تسلطية تحت الانتداب فهى دول برجوازية تتقدم ، وعلى من يؤمن بسلم التقدم الاجتماعى أن يدعم هذا التقدم . وهى نفس فكرة هل تريد أن تلحق بالحداثة إذن تغرب ، كن تابعاً للغرب ، قطاع كبير من اليسار العربى والمصرى بالذات والفلسطينى اتجه إلى قبول التبعية للغرب ، وقبول التطبيع مع الصهيونية ضد التوجه القومى الذى كان يؤكد فكرة الجبهة الوطنية وفكرة الاعتماد على الذات. وكان زعيم هذاالاتجاه التابع هنرى كوريل مؤسس الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى " حدتو " واسمة الحركى يونس وهو أستاذ رفعت السعيد .

بدأ مع هذا التيار المسيرة الثابتة ،تأييد التقسيم فى ديسمبر ١٩٤٧م . ثم كل المواقف التى أدت إلى ما يسمى بالتحديث والواقعية . وأدت فيما بعد إلى التطبيع وقبول كامب ديفيد ولغاية ما وصلنا إليه أخيراً فى كوبنهاجن ، هذا القسم من اليسار المصرى يرفع لواء التبعية لريادة الغرب . كانوا زمان يجرون وراء السوفيت ويقبلون الأيادى ، أما اليوم فهم يتهمون الاتحاد السوفيتى بالتخلف والبيروقراطية" .

وفى المقال نفسه يقول **أنور عبد الملك** :

"بعث التراث هو بعث ما هو حى فى الخصوصية التاريخية وليس ما هو ميت ، الميت ليس تراثاً . لو أخذنا أركان الخصوصية التاريخية فى مصر سنجدها الإيمانية من أول يوم فى تاريخها حتى الآن ".

إن **عبد الملك** لا ينكرماركسيته ، ويعبّر عن مواطن شريف ونزيه ومخلص ، أما هؤلاء الذين باعوا أنفسهم للشيطان فقد ورثوا داء الخيانة والعمالة ، فكانوا ماركسيين تابعين مرة ، وتنويريين تابعين أيضاً مرة أخرى ، وليتهم تابعون بحسن نية ، ولكن يبدو أن وراء تبعيتهم هذه مكاسب شخصية . بريق الدولار وجوائز الغرب . لقد كان أنور السادات من أكثر زعماء العالم الذين وضعت صورهم على غلاف مجلات أمريكا وإنجلترا ، وهكذا يفعل الغرب مع **عبد المعطى**

حجازى ، ويوسف شاهين ، ولطفى الخولى ، وكثيرين غيرهم . المتمركسون أو مدعو الماركسية السابقون هم من أشد الناس دعوة للتطبيع وللكوبنهاجنية واحتفالية مرور ٢٠٠عام على الحملة الفرنسية . ويبدو أن هؤلاء الذين يمدون أواصر الصداقة مع الغرب ينتشرون فى طول وعرض البلاد العربية فها هو **أحمد الجار الله** يبايع الغرب بقوله :

«المهم أن لا نبالغ بوجود دو ر إسرائيلى فى الأزمة التركية السورية ، ولا نرمى بأعبائنا السياسية وبأثقالنا على أكتاف الآخرين ، ونكف عن اعتناق نظرية المؤامرة ، ونتوقف عن إرجاع أخطائنا إلى سوانا ، وتحميلها للمخابرات الأمريكية التى بدت وفق ذهنيتنا مسئولة أيضاً عن تطليق رجل لزوجته، وليست الكراهية والبغض واستحالة العيش بينهما هى المسئولة (أخبار اليوم، ٢٦ جمادى الآخرة ١٤١٩ هـ ١٧ أكتوبر ١٩٩٨) .

بالطبع إذا اعتبرنا **أحمد الجار الله** * طرفاً من أطراف المؤامرة على العرب والمسلمين ، فليس هناك أى داع للرد عليه ، ولكن إذا أخذنا حسن النية فى الاعتبار ، وأن ما يقوله أحمد الجار الله يمثل رأياً حراً لا يمت إلى الخيانة والمؤامرة بشىء ، فإننا نطلب منه فقط أن يدلنا على شىء واحد فعلته أمريكا من أجل نصرة الحق العربى فى فلسطين ، بالطبع لا تدخل فى حسابك وقوف أمريكا مع الكويت ضد الغزو العراقى ، وحتى لو فعلت ذلك فهى لم تفعل ذلك لسواد عيون الكويت . وعليك أن تجيب على سؤال آخر ، لماذا انخفض سعر النفط من ٤٠ دولارا للبرميل إلى حوالى عشرة أو اثنى عشر دولاراً ، هل لأمريكا دخل فى ذلك ، أم أنها خيبة العرب ، ومن يتسبب فى هذه الخيبة ؟ أليسوا أعوان أمريكا فى المنطقة صاحبة المؤامرة الكبرى .. هى وأنصارها .

وننتقل إلى طرف آخر من أطراف المؤامرة حيث يكتب **نبيل سليمان** عن **أدونيس** فى كتابه "الثقافة بين الظلام والسلام" !

"غالبًا ما كان أودنيس وشعره وكتاباته مثار جدل وموضع خصومة وبعد ذلك راح يتغزل منذ حامت نويل حوله ، وحام حولها ، على الشأن اليهودى والإسرائيلى ... وبخاصة حينما اتهم الجنابى أدونيس بأنه لا يفتأ يشيع فى الوسط اليهودى الفرنسى أنه الوحيد فى العالم العربى الذى يدافع عن إسرائيل ، وأنه مطارد من قبل العرب لتعاطفه مع الكتاب الإسرائيليين . كما لا يفتأ يشيع فى الوسط العربى أن اليهود يحاربونه فى كل مكان ."

(*) أحمد الجار الله رئيس تحرير وصاحب جريدة السياسة الكويتية ، ومقولته هذه نقلتها إحدى الصحف المصرية عن السياسة .

وتكتب "**جميلة الماجرى**" (نفس المصدر) :

"إذا كانت الأمانة العامة لاتحاد الكتاب والأدباء العرب دعت لمقاطعة هذا الشاعر لممارساته المعلومة إلى جانب ما كشف طيلة السنوات الأخيرة من سرقات وإفلاس قيمته الأدبية ، فلماذا يصر الملتقى (ملتقى ابن رشيق) على دعوته" .

تنويريون نعم ، ولكنهم خونة أيضاً . والقائمة طويلة يتصدرها الفريق الجديد من الدكاترة الذين ظهروا فجأة فى وسائل الإعلام وخاصة التليفزيون المصرى ، ويتفنون فى ترويج ثقافة الاستسلام .

حـــــــوار

يفصح **محمود أمين العالم** فى رده على محاضرة **أنور عبد الملك** عن الفكر الذى سيطر على ثقافة القرن العشرين ،فكر الماركسيين من جهة ، والفكر الغربى بوجه عام من جهه أخرى ، الذى يعتقد **أنور عبد الملك** بأن اتباعه كان السبب فى الأزمة الثقافية التى تخيم على واقعنا المعاصر ، أزمة التخلف العربى وليست أزمة الأصالة والمعاصرة كما يحلو للكثيرين أن يطلقوا عليها .

يقول **أمين العالم** :

"لا شك أننى أتفق مع د. عبد الملك فى الإطار العام لاتجاهه الفكرى من أجل تحديد خصائص نوعية لحركتى الثورة المصرية والعربية ، فلا نجاح لثورة بدون اكتشاف هذه العناصر، بل وبغير مراعاتها فى صميم تصوراتها النظرية ، وخططها العملية . إن القضية التى يطرحها الدكتور عبد الملك هى قضية القضايا فى حياتنا الفكرية والسياسية والاقتصادية والقومية عامة ، إنها محاولة للإجابة عن هذا السؤال : لماذا الانحطاط ، وكيف تتحقق النهضة ؟ أو بتعبير آخر لماذا نحن متخلفون وما العمل للخروج من هذا التخلف ؟

إن الدكتور عبد الملك يرد التناقض الذى يستشعره المثقف العربى بين مفهومى الأصالة والمعاصرة إلى تبعية الفكر العربى للفكر الغربى بمفاهيمه ومناهجه ولكنى أرى أن التناقض بين هؤلاء المثقفين وبين الأصالة والمعاصرة إنما يصدر أولاً عن هذا الواقع المتناقض الذى يعيشونه ويعانونه ، وهو ثمرة توجيه وتغذية تقوم بها أجهزة وتيارات ومؤسسات فكرية تعبر عن مصالح اجتماعية وطبقية معينة. وهناك بلا شك تأثر وانفعال بأفكار خارجية ، وما هذا التناقض الفكرى إلا تعبير ببساطة عن تناقض اجتماعى قومى أساساً ، على أن القضية الجوهرية التى يثيرها الدكتور عبد الملك هى تقييمه للفكر الغربى الذى ينسب إليه محنة التناقض فى الفكر العربى ، وذلك أن الفكر الغربى كما يذهب الدكتور عبد الملك يمثل الرصيد الفكرى لمرحلة الهيمنة الغربية ، وهو ليس فكراً علمياً بل هو فكر سابق لمرحلة العلم ، هو مجرد افتراضات علمية لا غير ، بهذا التعميم المطلق يتهم الدكتور عبد الملك الفكر الغربى كله وخاصة ذلك الذى نشأ منذ القرن الخامس عشر

حتى القرن العشرين بأنه فكر هيمنة ، هو مصدر التناقض فى فكرنا العربى وهذا الموقف غير موضوعى وغير علمى . وأخشى أن يكون صورة أكثر لمعاناً وعمقاً من تلك الدعوة إلى رفض الفكر الغربى والفكر التقدمى منه بخاصة باعتباره فكراً مستورداً أو غزواً فكرياً باسم الأصالة أو الأصولية . وأهم ما يقوله أمين العالم أنه يخشى أن تتضمن هذه النظرة وهذا الموقف دعوة إلى تعميق التناقض الذى يدينه الدكتور عبد الملك بين الأصالة والعصرية .

إنه فى الحقيقة ليس هناك ما يسمى بالفكر الغربى على الإطلاق . وخاصة فى مجال الإنسانيات . الفكر الغربى ليس كتلة صماء ، وإنما هو مدارس واتجاهات وتصورات ، ومناهج تعبر عن مواقف ومواقع اجتماعية ."

ومن المفارقات الغريبة الحرجة أن **محمود أمين العالم** يأخذ من هذا التباين فى فكر الغرب ذريعة لتأييد تمسكه بالفكر الغربى وحاجتنا إليه . فى حين أن ما فى فكر الغرب من تباين يدعونا إلى أن نترك هذا الفكر ، لأنه السبب الحقيقى للأزمة التى نعانيها . كما أن ما يدعيه **محمود أمين العالم** بأن فكر الغرب بلغ مستوى العلمية والموضوعية أى مستوى الشمول والكلية فى كثير من دراساته وتطبيقاته ممايرتفع به فوق مستوى التحديد والخصوصية الأوربية ، لا فى مجال العلوم الطبيعية فحسب ، بل فى مجالات العلوم الإنسانية ، لا يجعلنا أيضا نقبل بأن نأخذ وصفة جاهزة كما فعل الماركسيون ثم يثبت فشلها فنصاب بالدوار والحيرة فى ماذا نفعل .

ويقول العالِمْ :

" وعندما يتهم الدكتور عبد الملك الفكر الغربى على إطلاقه من القرن الخامس عشر حتى العشرين ، وينبه إلى خطورة هيمنته على فكرنا العربى فهو بهذا يصب اتهامه على النظرية الماركسية ويدينها بعدم العلمية والهيمنة التى تعيق التطور وتحد الانطلاق ."

يقول **محمود العالِمْ** هذا الكلام وكأن النظرية الماركسية لم تهيمن فعلاً على فكره وفكر كل الماركسيين العرب .

ويضيف العالِمْ :

"وجوهر هذه النظرية كما يعرف الدكتور عبد الملك منهج عام لكشف الخصائص العينية فى كل مجال عينى ، فهى على حد تعبير لينين تمدنا بالمبادئ الموجهه العامة التى هى فى الواقع الخاص تطبق فى انجلترا تطبيقاً مختلفاً عن تطبيقها فى فرنسا أو فى ألمانيا . إنها علمية ذات شمول وكلية. ولهذا فهى بتعبير آخر تتعارض مع فكرة الهيمنة من الخارج بل تعارضها أو تتناقض معها تناقضاً جذرياً ."

وإذا كان لنا من تعليق ، فإن **محمود أمين العالم** جانبه الصواب حين كان يدافع عن عدم هيمنة الفكر الغربي مع أنه كما قلنا ترك الماركسية كأصل تسيطر على فكره . في حين أن هناك أفكاراً أخرى شرقية قد تكون أكثر نفعاً من الماركسية كالبوذية مثلاً ، والهندوسية وغيرها من العقائد قد لا تكون علمية بمثل علمية الماركسية ، ولكنها كانت مفيدة جداً في خلق ثقافات جعلت من بلدان شرق آسيا بلداناً قوية ومتقدمة سواء في حربها مع الاستعمار ، كما فعلت فيتنام وكوريا الشمالية، أو في صراعها من أجل التقدم العلمي والتقني ، كما فعلت الصين واليابان . وهنا نذكر أن للخصوصية التي ينكرها أمين العالم دورها في نجاح الماركسية في الصين وفشلها في الاتحاد السوفيتي . ومع ذلك لم يحاول محمود أمين العالم كما فعل طه حسين من قبل أن يفصل بين ما هو ثقافي وما هو علمي ، هذا إذا افترضنا أن الماركسية علمية .

ويقول **العالم** :

"خلاصة الأمر أن القول بالخصوصية التي يتخذها الدكتور عبد الملك أساساً لدراساته الاجتماعية هي ثمرة من ثمرات ما يسميه الفكر الغربي ، هذا الفكر الذي يتهمه على إطلاقه بعدم العلمية والهيمنة الخطرة، ونتساءل ماذا وراء هذا الموقف الفكري ، إن وراءه أيضا نظرة غير جدلية إلى الفكر الأوربي ."

ويكشف لنا **محمود أمين العالم** عن ماركسية **أنور عبد الملك** :

" إنه يقول (أي أنور عبد الملك) في كتابه " مصر مجتمع عسكري " بأنه يستند إلى فكر ماركسي في "الخصوصية التاريخية " لتحديد خصوصية المجتمع المصري ".

وفي الحقيقة - وأنا أتفق مع العالم - أن مفهوم الدكتور عبد الملك عن الخصوصية يختلف عن المفهوم الماركسي المحدد ، فبالطبع كان ماركس يعتقد بالخصوصية التاريخية في دراسة المجتمع في مرحلة تاريخية معينة ، لتباين طبيعة تركيبه الاجتماعي والاقتصادي والموضوعي ، عامة في تفاعلاته الجدلية مع العصر المحدد .

وينتهي **عبد الملك** إلى أن السلطة المركزية في مصر هي مفتاح الوجود القومي والصناعة والفكر. هذه هي خصوصيتها التاريخية الناجمة عن هذا النهر الممتد الطويل نهر النيل ، وما يستلزم من تنظيم لعمليات الري والزراعة ،والناجمة كذلك عن وضعها الجغرافي الخاص مما يفرض هذه السلطة المركزية التي تسيطر على الماء والأرض والقوة العسكرية والفكر جميعاً . ونحن نتفق تماماً مع **أنور عبد الملك** على وجود هذه السلطة المركزية التي تظهر قوية على فترات

متباعدة أو متقاربة ، ولكننا نختلف معه فى أسبابها الجغرافية .

أما **محمود أمين العالم** فيقول :

"ماذا يعنى هـذا ؟ ... ألا يعنى أننا نختصـر تاريخ مصـر كله فى أحمس ومحـمد على وعـبد الناصـر ، (ورغم الاختـلاف الجـذرى الاجتـمـاعـى والتـاريخـى بينهـم) . مُـغـفلـين ثـورة ١٩ وتحركات الجمـاهير فى ١٩٣٦، ١٩٤٦ ، ١٩٥١ ، وعشرات التحركات الشعـبية التى كانت تمرداً على السلطة المركزية، ويتساءل " ما هو أكثر أصالة فى شـعبنا تحركات جماهير الفلاحين منذ أول ثورة شعبية ضد ملاك الأراضى فى مصر القديمة حتى تحركاتهم فى كفور نجم وبهوت وكمشيش. أم هذه السلطة المركزية المستمرة تاريخيا" .

وهنا نجد علينا أن نتـدخل طويلاً فى هذا الحوار الفكرى الدائر بين أفكار **عبد الملك** وتعليقات **محمود أمين العالم** التى تنم مباشرة عن فكره أيضاً . إن السلطة المركزية حقيقة موجودة فى مصر . يحتاج تغييرها إلى القيام بثورة ، وهل هذه الانتفاضات التى عبر عنها **محمود أمين العالم** تبلغ حد الثورات . اندلعت فى العـالم ثورات قليلة غيرت طبيـعة المجتمـعات ، قد تكون الثورة الأمـريكية والثورة الـفرنسيـة والحرب الأهليـة الإنجليزية ، وأخـيراً الـثـورتان الصينيـة والروسيـة . وكل تلك الثورات تـرتبط بشدة بنشـوء العالم الحديـث والحضارة الحـديثة ،ويبـدو أن دخول هذه الحـضارة يلزمها إما ثورة فـكرية كالتى أشعلها كوبر نيكس ودّعمـها فرانسيس بيكون ، أو ثورة شعبـية كما حدث فى فرنسا وإنجلترا ، وتتمـيز الثورات الكبرى التى حدثت فى العالم **أولاً** بالتركيـز والتأكيد على قضايا المساواة والعدالة والحرية ، ومشاركة أعضاء المجتمع فى الحقل السياسى ، وترتبط تلك القضـايا بقضايا مـعاصرة من حـيث الإيمان بالتطور وبتـوسيع نطاق العـمل السياسى حـتى تتاح مشاركة الجميع فيه .

ثانيا : إن ما يعتبر أمراً جديداً هو الربط بين كل هذه الموضوعات مع نظرة يوتوبية شاملة تتعلق بإعادة بناء المجتمع والنظام السياسى وغير عابئة بالآلاف من أصوات المعارضة .

ثالثا : تنظرهذه الثـورات إلى المجتمع كـوجود وكـيان ينصهـر من خلال عـمل سياسـى يتفق والنظرة التى تحكم هذه الثورات . وتهدف هذه الثورات أيضاً إلى إعـادة صياغة وبناء المجتمع ، بما فى ذلك المؤسسات والتغييرات بعيدة المدى فيهـا ، وإعادة تشكيل الطبقات والعلاقات فيما بينها . وهى فى ذلك تتبنى نفس الطرق التقلـيدية التى ترمى إلى القضاء على الطبقات العلـيا . وإحلالها بغيرها من طبقات المجتمع ، سواء البرجوازية أو طبقة البروليتاريا .

رابعا : تركز هـذه الرؤى الجديدة على التنصل من الخلفيـة التـاريخيـة السابقـة للمجتمـعات والتنكر للماضى والتأكيد على بداية جديدة واقتران كل هذا بالسلاح والعنف .

خامسا : اتساع نظرتـها الشمـولية والرغبـة فى إسمـاع وتوصيـل رسـالتها للمـجتـمع العالمى والتبشير بها .

هل هذا ماحدث مع التغيرات التى أحدثها **محمد على** أو **عبد الناصر** . وهل هذا ما حدث مع الانتفاضات التى ذكرها **محمود أمين العالم** ؟

مازلنا فى انتظار الجواب عن طبيعة حركة يولية .. هل هى ثورة أو انقلاب؟!

إن النهضـة عند **عبد الملك** أو الثورة هى مـواصلة للاستـمرارية التـاريخيـة بسلطتهـا المركزية بجيشها الموحد وأيديولوجياتها التوحيدية بصرف النظر عن دلالتها الطبقية ، وإن العروة الوثقى - هذا التعبير الذى يُستلهم من **محمد عبده** الممثل للأصول الاسلامية عند عبد الملك - هى دلالة هذا التوحيد المركزى فى السلطة والمجتمع دون تحديد طبقى أو اجتماعى معين .

أما الثورة عند محـمود أمين العالم فهو ما يقول به لينين إن تحـول السلطة إلى طبقة أخرى هى العلاقة الأولى المبدئية للثورة وسواء من الناحية العلمية أو من الناحية العملية السياسية .

ويقول **أمين العالم** :

" أن التحديد التجريدى الذى يرتئيه الدكتور عـبد الملك لن يفضى إلى تغيير أو إلى نهضة ، بل إن مفهومه للخصوصية المصرية - بشكل محدد - لا يصلح سنداً للثورة أو النهضة ، بل إن الثورة أو النهضة تكون عليه لا به" . ولعل محـمود أمين العالم محقا حينما يقـول : "إن الخصوصية التى يقول بها عبد الملك سمة من سمات مراحل متخلفة ، وأصالتنا أو خصوصيتنا ليست فى استبقائها واستمـرارها إنما فى تخطيها تخطياً جدليـاً ، إنها قد توضع فى الاعتبـار لا كصيغة ثابتـة سرمدية . وإنما كبُعد من أبعاد الواقع التاريخى الذى نسعى للسيطرة عليه وتغييره وتطويره"

إن أصدق ما يقوله **محمود أمين العالم** عن دلالة الالتفاف حول **عبد الناصر** القائد العظيم على حد قوله ما يلى :

"إن دلالته مرتبطة بـالدلالة الاجتماعيـة لقيادة عبد الناصـر ، مرتبطة بقيم سيـاسية واجتمـاعية تتمـسك بها الجمـاهير وتحرص على مـواصلتها وتطويرها ، وليس الالتـفاف حول سلطة مـركزية تمسكاً بها وتوحـداً معهـا بشكل تجريدى غامض ، ولـيس فعلاً عاطـفياً تلقـائياً ، وإن لم يخل من

العاطفية والتلقائية " .

وأخيراً يكتب **محمود أمين العالم** عن خصوصية العرب فنجده يميل إلى التراث وإلى دراسته ومناقشته ، ولعلنا لا نضيع بعض السطور هباءً إذا ما نقلنا عن **أمين العالم** ما قاله بهذا الصدد :

"لسنا فى حاجة إلى تأكيد خصوصية العرب وأصالتهم ، فكل شعب له خصوصيته وأصالته التى تتراكم عن خبرته التاريخية وملابساته الموضوعية المختلفة والمتنوعة . والقضية هى تحديد نوعية هذه الخصوصية ، وأن المظاهر التى حدد بها عبد الملك الخصوصية المصرية هى بعض مظاهر موجودة عبر تاريخنا ، ، ولكنها ليست السمة المعبرة عن جوهر التجربة المصرية .

ولعل دراستنا لخصوصيتنا وأصالتنا العربية تستلزم الدراسة العينية المحددة لكل قطر عربى ثم الدراسة العينية المحددة للتفاعل والتداخل بين الأقطار العربية ، ثم تنوعها ووحدتها فى كل مرحلة ثم عبر المراحل التاريخية جميعاً ، إن حاجتنا إلى الدراسة العينية الدقيقة لواقع أمتنا العربية فى أقطارها المختلفة ، وفى مؤسساتها السياسية والاجتماعية المتنوعة وفى إطار عصرنا الراهن هى نقطة بداية حقيقية يفرضها إلحاح الحاجة إلى رؤية ثورية موضوعية نسلح بها كفاحنا العربى الراهن .

إن الأصالة ليست مجرد بحث عن الجذور أو عودة مستسلمة بليدة إليها أو استعادة جامدة لها، وإنما هى تحرير وتحريك واع للجذور إطلاقاً لطاقاتها وقدرتها على الخلق والإضافة ، والجذور الحقيقية هى الجماهير صانعة التاريخ الحقيقى وحاملة خصائصه النوعية بانطلاقها الواعى ومشاركتها الديمقراطية تتحقق الأصالة والعصرية بضربة تاريخية واحدة" .

هل فعل **محمود العالم** على مدى حياته الفكرية الطويلة بما دعا إليه فى السبعينيات و ما يكرر الدعوة إليه الآن . لقد فاته كما فات أضرابه من المفكرين المصريين الليبراليين والماركسيين أن يقرأوا التراث قراءة متأنية وواعية .

وهم يعجزون عن فعل ذلك فى خريف العمر ، ويظل **محمود أمين العالم** ماركسياً يلاحق التجمعات الماركسية والمؤتمرات التى تعقد الآن تحت دعاوى النظر فى شرعية النظرية الماركسية وإمكانية تطويرها - ويقول **محمود العالم** بعد أن حضر الملتقى الدولى فى باريس «البيان الشيوعى بعد ١٥٠ عاماً» :

"وبرغم المتناقضات والاختلافات فى الإجابة عن أين الواقع الموضوعى الإنسانى من هذا البيان بعد مائة وخمسين عاماً على صدوره ، نكاد نلتقى على رؤية محددة واضحة جهيرة هى أن الماركسية مع بيانها الشيوعى لا تزال حية نابضة فى الضمير الأخلاقى والثقافى والسياسى

والاجتماعى الإنسانى» .

إن وفاء محمود العالم للماركسية والعروبة فى الوقت نفسه يجبرنا على أن نحترمه ولكننا نعيب عليه مهادنته لمثقفى السلطة ، ربما طمعاً فى حصوله على التقديرية ، وهو يستحقها عن جدارة . وإنه سوف يحصل عليها فى يوم ما ، حينما يتيقين واهبو هذه الجوائز أنهم نزلوا إلى الدرك الأسفل حينما منحوا هذه الجوائز للكثيرين ممن لا يستحقونها .



التحالف الغريب

يتهم **غالى شكرى** كل المفكرين المصريين ، بخلاف الماركسيين ، بالإرهاب ، وحتى **جمال عبد الناصر والسادات** اتهمهما هما أيضاً بالإرهاب ، وفى كتابه يمجد **غالى شكرى جابر عصفور** عن أفكاره فيما يختص بالتراث ، فيقول :

"من هنا كان جابر عصفور حريصاً على ما يمكن تسميته بكاسحة الأوهام فى الأرض التى اختارها مجالاً للدراسة . وهى العلاقة بينه وبين التراث ، واكتشف المؤلف أن الأوهام كثيراً ما تفوق البحث العلمى فى هذه العلاقة . إن أحد أخطر هذه الأوهام رؤية تعويضية - أى أننا فى مراحل الضعف والعجز نستشعر حاجاتنا إلى الماضى نستنجد به ليؤازرنا فى مواجهه الحاضر ، ويعنى ذلك أن هذا الماضى هو الأقوى والأكثر إشراقاً والأقدر على إسعافنا فى ملمات الحاضر ومصائبه وقد تتوقف الرؤية التعويضية للتراث عند حدود العزاء- بما كان عليه الماضى من أمجاد وما أصبح عليه الحاضر من الضعف ."

ويثبت **غالى** على صفحات كثيرة حبه وتقديره وغرامه **بجابر عصفور** ، فيذكر فى كتابه اقتباسات كثيرة من كتب جابر عصفور عن الأنوار والتنوير ويقول فى الختام :

"ولابد من أن نكرر سؤال جابر عصفور بل أسئلته " كيف حدث ما حدث- وإلى أين نتجه - وهل من مخرج من هذا المأزق ؟".

يسأل **جابر عصفور** هذه الأسئلة وهو لا يعى تماماً أنه وأضرابه من الأسباب الأكيدة لهذا المأزق

ويسترسل **غالى شكرى** فى الكتابة بقوله :

"لذلك أقول فى اجتهاد مختلف أن عدم وصول نهضتنا إلى التنوير ، على ما هو شائع فى استخدامات هذا المصطلح هو البيئة المعوقة للفكر العربى الحديث ، وهى البنية التى حاول طه حسين المساس بها ، فُرد على أعقابه حتى أن أحد أحفاده - نصر أبو زيد - لم يستطع من النقطة

التى انتهى إليها طه حسين أو النقطة التى بدأ منها" .

ويتجاهل **غالى شكرى** كيف انتهى **طه حسين** وكتاباته القيمة عن الإسلام .

"ومع ذلك قامت القيامة وأصبح غاية المنى أن نفرق بين المقدس وتأويله حتى يمكن الانطلاق إلى نقد الفكر الدينى والمقصود هو التراث الفقهى القديم والمعاصر" .

والمسألة برمتها لا تخص **نصر حامد أبو زيد** أو **جابر عصفور** أو **سعيد العشماوى** أو **خليل عبد الكريم** أو **سيد القمنى** .... إنما تعبر عن اتجاه ماركسى علمانى انتهازى ، لا يعترف بالعقيدة ، ولا بوجود الإله .

تباهى **السيد القمنى** فى جلسات كثيرة بأنه كتب قبل **نصر حامد أبو زيد** متخذا اتجاهاته نفسها منهجاً له فى مناقشة العقيدة ، مع ذلك لم يقدمه أحد للمحاكمة - ويندهش لماذا يحدث ذلك . وأخيراً نالِ مأربه بعد أن قدمه بعض ضعاف العقول للمحاكمة بتهمة افتراءات على الدين ، ربما كسب **القمنى** بعض الشهرة . ولكن الإسلام لم يكسب شيئاً بتقديم القمنى للمحاكمة . والغريب فى الأمر أن **القمنى** لا يدرك لماذا تخلف تقديمه إلى المحاكمة . وجاءدوره بعد **نصرحامد أبو زيد** ، فهو لا يدرى أن الأوساط العلمية لا تعترف به كعالم له مكانته ، على عكس **نصر حامد أبو زيد** الذى يفوقه ذكاءًومقدرةً علمية ، وتعترف به الأوساط العلمية كباحث واعد فى مجال اللغة ، وبالتالى جاءت خطورته .

ويقول **غالى شكرى** :

"وتبقى محاولات شيلى شميل وفرح أنطون ، وسلامة موسى للانتقال بالنهضة إلى محفة التنوير وباعتبارهم من غير المسلمين فقد ظل تأثيرهم الحقيقى هامشياً فى مجتمع إسلامى ، وبقيت الشكوك تحيطهم إلى اليوم".

وهنا تظهر عقدته الحقيقية فهو مسيحى **ماركسى** قح ، ولا تتفق الماركسية والعروبة والإسلام ، ومع ذلك كان يدّعى أن ثقافته عربية إسلامية.

وفى كتاب آخر يقول **غالى شكرى** متهماً كل المفكرين المصريين بخلاف الماركسيين بالخبل والتخلف :

"ولكن وزيراً ممتازاً كالدكتور محمد حلمى مراد قد سقط فى فخاخ رد الفعل اليمينى حين أدخل الدين مادة أساسية فى مختلف مراحل التعليم ، لابد من النجاح فيها حتى يتسنى للتلاميذ والطلبة الانتقال من صف إلى صف ، بينما راح المناضلون ضد الشيوعية من أمثال يوسف

السباعى فى روايته "جفت الدموع" ، وإحسان عبد القدوس فى روايته "لا شيء يهم" ، وثروت أباظة فى كل ما كتب . يستكملون بالفن الرخيص ما عجزت عن تصديره أجهزة النشر الأمريكية العربية فى القاهرة ، وأصبح مصطفى أمين وعلى أمين وأنيس منصور وموسى صبرى من أولياء الله الصالحين يعلّمون الناس الصوم والصلاة وتحضير الأرواح .

ومن كاتب كبير كالعقاد إلى مترجم مغمور كماهر نسيم مروراً بالأسماء التى ارتعدت مفاصلها فركعت كأحمد رشدى ، وصالح جودت من المعروفين ، ومجاهد عبد المنعم مجاهد من أنصاف المعروفين، ولمعى المطيعى من المجهولين ، بدا المشهد الثقافى جحيماً من النيران لا تبقى ولا تذر على كل ما هو وطنى وتقدمى" .

ويهاجم **غالى شكرى العقاد** حينما تفرغ لقضية الحرية فى ظل الاشتراكية ، كما هاجم **عبد القادر حاتم ، وكمال الدين حسين** أيضاً لم يرحمه فقال :

"إننا نلاحظ رجلاً مثل كمال الدين حسين المعروف جيداً بميوله اليمينية المتطرفة قد هيمن على وزارة التربية والتعليم ورئاسة المجلس الأعلى للفنون والآداب والسكرتارية العامة للاتحاد القومى حوالى عشر سنوات من عمر التجربة الناصرية . كان أثره خلالها سلبياً مدمراً لأعرق التقاليد الوطنية فى الفكر المصرى .... وهى المناهج والشروط والأصول التى أفرخت فيما بعد أفواجاً من شباب محمد والإخوان المسلمين" .

إن كل الاجيال الشابة الحاضرة ، والأجيال القادمة يجب أن تعرف موقف كمال الدين حسين واعتراضه على السادات حينما حاول عمل استفتاء يزّور نتيجته لحل مجلس الشعب وبناء عليه اجتمعت جماعة السادات ، لتلغى عضوية كمال الدين حسين من مجلس الشعب .

وكل الأجيال يجب أن تعرف موقف **حلمى مراد** من **جمال عبد الناصر** حينما اعترض على تطبيق برنامج ٣٠مارس ١٩٦٨م . والذى بعده أعفاه **جمال عبد الناصر** من الوزارة بعد أن حرمه من حق الاستقالة .

ويضيف **غالى شكرى :**

"عبد القادر حاتم رجل بلا عقيدة ، تفضى سياسته الثقافية إلى ازدهار اليمين بمختلف ألوانه وأشكاله ومستوياته بدءاً من الرجال الأشداء كرشاد رشدى وعبد الرحمن بدوى ، وزكى نجيب محمود ، وأنيس منصور ، وإحسان عبد القدوس ."

ويتساءل : **ما السر فى أن يصبح السباعى رئيس الدولة الثقافية فى كل هذا الزمن هو وبطانته**

الموشاة بعصب الرجعية وعصب الأموات (رحمهم الله عزيز أباظة ، على أحمد باكثير ، عبد الحليم عبد الله ، أمين يوسف غراب ، عبد الحميد جودة السحار ، عبد العاطى جلال ، صالح جودت ، يضاف إليهم ابراهيم الوردانى وعبد العزيز دسوقى) .

ثم يصف رجالاً آخرين بالضعف مثل **ثروت أباظة ، وسليمان حزين ، وبدر الدين أبو غازى .**

أما عن عبد الناصر فيقول :

كان جمال عبد الناصر يقود نضالاً أليماً وباسلاً داخل مواقع السلطة مع أصدقاء العمر ورفاق السلاح . وانحاز عبد الناصر فى لحظة تاريخية حاسمة إلى جانب الشعب ومستقبل مصر ، وأجرى فى وقت واحد الجراحة الاقتصادية الدامية للفئات العليا من البرجوازية ، بتأميم عصب الإنتاج والجراحة السياسية الدامية للأفراد والفئات التى رفضت التحول الاجتماعى الجديد ، والجراحة الفكرية بالميثاق الوطنى .

وحسم عبدالناصر الصراع الدائر حول الاشتراكية العربية . وفى هذه الفترة بالضبط قال الرئيس أن هناك حزباً رجعياً منظماً .

وعلى الرغم مما ذكره **غالى شكرى** من مديح وتبجيل لعبد الناصر . رجع ليهاجمه بشدة فى أجزاء أخرى من كتابه ، وفى كتبه الأخرى . . لماذا ؟ هل هناك إجابة غير مرض انفصام الشخصية الذى يعانى منه معظم المفكرين العرب .

كنت كثير الاندهاش حينما أسمع أصوات الاستنكار والهجوم عند ذكر اسم **زكى نجيب محمود** ، وبعد ما قرأته من كلمات **غالى شكرى** زال عجبى ، وأدركت أنه متهم بالرجعية أولا : لأنه لم ينكر العقيدة فى أى لحظة فى تاريخ حياته الطويل ، كما أنه فى أواخر أيامه ، اعتقد بالقومية العربية ، وندم على أنه لم يعط التراث حقه فى الفحص والدراسة .

إذا كان **غالى شكرى** يهاجم بهذه القسوة كل المفكرين فى مصر ، فمن الذى أعطاه جائزة الدولة التقديرية لعام ١٩٩٧م . لقد أعطيت الجوائز فى عام ١٩٩٧لثلاثة من الماركسيين : **السيد يس ، أنور عبد الملك ، وغالى شكرى ؟!** .....

وهنا تظهر علامة استفهام كبيرة .. أليس هناك حزب أقلية يحكم جماهير هذا الشعب المغلوب على أمره ، وتتصرف كما شاء لها دون خشية اعتراض أو مقاومة . ومع ذلك لا يعلو صوت أفراد شلة المثقفين المتحدين مطالباً بفك الحصار القابض على حرية الشعب المصرى .

أعانني كثيراً د. **عبد المنعم تليمة** على الاقتراب من معرفة أسباب ما نراه على الساحة الثقافية من تناقضات . . وفي عدد الهلال نوفمبر ١٩٩٧م يكتب **تليمة** عن تكوينه :

"في المدينة الكبيرة القاهرة تيقظت واعيتي ، وأخذت شيئاً فشيئاً تتمرس بالتمييز والنقد والقياس والتقويم ، صرت كلما أوغلت في اليفاعة والشباب الباكر أجد في كل موقف هاتفاً داخلياً مناجياً يهتف مُصراً ، لابد للقلب أن يشع ، وللنظر أن يتدبر ، وللوجدان أن يتوهج ، وللنفس أن تطلب وللعقل أن يفكر، وتحول هذا الهتاف إلى منهج دائب ، لقد ناهزت الإدراك فجعلت أقرأ العلم من حولي . وجعلت أقيس الأمور بنظائرها .."

وهكذا يستمر **تليمة** إلى أن يصل إلى مصادر تكوينه :

"إنما أذكر هنا مصادر تكويني في دوائر علمية أخرى اتصلت بها وأخذت عن شيوخها ، فقد درست - في معهد البحوث والدراسات - المعجم العربي على الأب شحاته قنواتي ، وتجديد الفكر الديني على الشيخ على عبد الرازق ، والأدب والمجتمع كيف يتفاعلان على زكي نجيب محمود ، والأدب وفنونه ومذاهبه على محمد مندور ، وتكوين الأوطان العربية في العصر الحديث على محمد شفيق غربال ، ودرست في قسم الدراسات القديمة . اللغات والآداب الأوربية القديمة على محمد سليم سالم ، ونصوص البردى على زكي على ، والتاريخ القديم على إبراهيم نصحي، وعرفت - خارج هذه الدوائر النظامية - بقية الأئمة من شيوخ العلم والأدب ، فحضرت جلسات لمجمع اللغة رأسها أحمد لطفي السيد ، وحضرت ندوة العقاد مرات، وانتظمت في زيارات أسبوعية لسلامة موسى سنوات . وشرفت أن أكون مريداً قريباً من اثنين من هؤلاء الشيوخ ، شيخ النقاد محمد مندور ، وشيخ المحققين محمود شاكر . وكل منهما أمة وحده ، وكان مندور عضوالبرلمان عن الحي الذى أعيش فيه ، وكان مندور شعبياً ديمقراطياً جهيراً . وظل مندور إلى أن انتقل إلى رحاب ربه مع إبراهيم بيومي مدكور ، وزكي نجيب محمود

مراجع عليا أرجع إليها فى شأن دراستى ودراساتى . وأما شيخ المحققين شاكر فهو من يؤتم به ويقتدى فى علم العربية وصناعة تحقيق تراثها . فلقد سار فكره فى هذا الأمر سير الشمس لدى جمهور العلماء وأهل الاختصاص ، إذ كانت له سابقة فى إخراج العيون والأمهات بأدق المناهج وأقومها.. ولقد سعيت إلى الشيخ سعياً ، فانتفعت بعلمه وصاحبته وصارت صلتى به مثالاً فريداً لصلة المريد بشيخه .

ولما استقرت قدمى على أول طريق الاختصاص ، درست الأدب ، وأوغلت برفق قاطعاً الخطوات الأولى على تلك الطريق ، وقصدت الاتصال بالفنون الأخرى لأستكمل أدوات الدرس والتدريب ، وفن العمارة أعرق فنون هذه الأمة وأكثرها رسوخاً وتواصلاً عبر المراحل الحضارية الثلاث لهذه البلاد منذ فجر التاريخ المصرى إلى المرحلة العربية الإسلامية مروراً بالمرحلة المسيحية فوصلت نفسى بحامد سعيد واستمعت إليه ، ثم تابعت بالنظر والدرس كتاباته عن الفن المصرى القديم - واستولت على مجامع روحى تلك الرومانتيكية الصوفية الدافئة التى كان يعالج بها حامد سعيد الفن المصرى . كان سعيد يرى أن عمارة المصريين هى إبداعهم عبر تاريخهم منذ عُرف إلى اليوم ، إذ كان يرى المثلثة فى المسلة وغير ذلك من الشواهد . بيد أن هذه الصلة لم تدم طويلاً فقد رحل سعيد إلى دار البقاء - ولم أكمل عملى معه ووصلت نفسى برائد هذا الفن حسن فتحى ، فزرته مرات ، وزرت قريته النموذج بصعيد مصر . صاغ فتحى نظرية للعمارة مدارها أربعة محاور ، وأهمها طبيعة الإنسان الساكن من الوجهة الجسمية وطبيعة موروثاته الروحية وعوامله النفسية" .

لقد استعرض **تليمة** فى مصادر تكوينه أئمة الفكر والأدب والفلسفة على مدى النصف الثانى من هذا القرن استعراضاً يريد منه أن يستعرض ثقافته هو نفسه ....لا ثقافة عصر كان من المفروض أن تترك آثارها فى فكره ... **تليمة** يعالج السياسة والفكر برومانسية متألقة بعيداً عن الواقع بكثير..

يرنو إلى الحرية المطلقة وأعنى بذلك الحرية غير المسئولة ... يعيش فى وهم كبير اسمه العالم ، ويرى مصر من خلال هذا العالم وليس العكس ، يقول أنه لا يؤمن بالقومية العربية ولكن بالوحدةولا يزيد على ذلك الكثير .. كيف لم يؤثر فيه فكر محمود شاكر الأديب ، وحسن فتحى المهندس الفنان . هذا عشق العروبة من خلال تحقيقه للتراث العربى والإسلامى ، وذاك أحب مصر بدون شك فأحيا تراثها العظيم ، كلاهما لم يجعل **تليمة** يشعر بانتمائه العربى أو المصرى.. مصر لا تعنى له شيئاً إلا من خلال العالم ... الأيديولوجية الماركسية تغلبت عليه منذ البداية ، فصدته عن تمثل الفكر الذى عاش بوجدانه وعقله معه ، ومع ذلك لم يذكر فى تكوينه كيف تسرب الفكر

الماركسى إلى عقله ، فلم يذكر الماركسيين الذين قرأ عنهم بخلاف **سلامة موسى** . أنكر ماركسيته : لا تدرى عن قصد ، أم أن محرر الهلال المجلة التى جاء فيها مصادر تكوينه حذف ما قد يكون **تليمة** كتبه عن تكوينه الماركسى ، **تليمة** بما كتبه أظهر لنا أن هناك على الساحة الثقافية فى مصر (شيئا غلطا) ، إن العديد من المفكرين والمثقفين الذين ذكرهم **تليمة** يدل على أننا أمام خليط عجيب من الأفكار والاتجاهات ، لم يرسخ أى منها ، ومن المحتمل أن **تليمة** لم يستطع أن يتكيف مع أى منها لفكر مسبق لديه ،أو لأنه رافض لكل ما هو عربى مسلم متخلف تبهره أفكار الآخر سواء كانت تأتى من الشرق أو الغرب . ظل ماركسياً لفترة طويلة يدعو للماركسية ويناضل من أجلها ، والآن هو أميل إلى النظام العالمى الجديد وفلسفاته ، يبرر ذلك بأننا قادمون لا محالة على الدخول ضمن اتفاقية الجات ، وأن الحدود تنهار بين الدول ، والقوميات تذوب وتتفتت . وفى كل مرة يردد هذا ، تأتى الأحداث بعكس ما يقول تماماً .. ففى ظل النظام الجديد تقوى القومية الأمريكية ، ويظهر الأمريكان أكثر من أى وقت مضى ، ليسوا مستعدين للتنازل قيد أنملة ليس فقط عن حدودهم الإقليمية ، بل أيضاً عن حدودهم الأيديولوجية ، وتعلو النبرة الذاتية ويتكلم البعض عن نهاية التاريخ وآخرون عن انتصار الثقافة الغربية . . وأخيراً يسمح فى إنجلترا بإقامة برلمان أستكلندى وآخر فى إقليم ويلز بالمملكة المتحدة ، وتبزغ الكنيسة فى الدولة الاشتراكيةالسابقة تناصر قومياتها الجديدة ، وتنقسم تشيكوسلوفاكيا إلى قوميتين وتفتت يوغسلافيا . وعليه يظل غير مؤمن بالقومية - قضية القدس لا تهمه ، سواء بقيت لدى العرب أو أخذتها إسرائيل ، فهى فى النهاية جزءمن العالم .

ما يعجبنى فى الرجل وأقدّره فيه عدم التمويه عما يعتقد فيه . يقوله بكل صراحة ودون مواربة، ولا يخشى فيما يعتقد أنه حق لومة لائم .. يستقبل النقد بصدر رحب ويدعو المثقفين فى صالونه كل خميس ، يناقش موضوعات متباينة - لا يقتصر الصالون على اتجاه معين .. إلا أن أغلبية من يحضر الصالون يسيرون فى هدى فكر **تليمة** ، ربما يرجع ذلك لحبهم للرجل ، أو لأنه يجيد عرض بضاعته ..

ولكن ما يحزننى كثيراً أن ما يقال فى صالون **تليمة** لا يجد صدى لدى رجل الشارع العادى لأنه لا يلهب فيه حماس الوطنية ولا وهج القومية .. ولا حتى يعطيه أملاً فى العدالةالاجتماعية.. فلا يمكن أن تتحقق العدالة الاجتماعية ونحن سائرون إلى الجات التى تتطلب أول ما تتطلب الرضوخ إلى اقتصاديات السوق بما يتبعها من خصخصة القطاع العام ، كل القطاع العام ، لمصلحة طبقة رقيقة استولت بدون حق على مقدرات هذه الأمة .

وأخيراً أن ما يجرى فى صالون **تليمة** هو فكر فوقى ، أبعد ما يكون عن النضال الحقيقى الذى تحتمه ثورة التغيير .إذا كنا فعلاً نريد التغيير - ولكن الحالمين الرومانسيين لا يفعلون ثورة ولايميلون لها .

كان بودى أن أكتب بالتفصيل عن مفكرين لهما كل احترام وتقدير ، **شكرى عياد** ، **وعبد الجواد سيد عمارة** - وأنا هنا لا أنسى **فاطمة نصر** فقد قابلتها مرة أو مرتين - سمعت فى أثنائها بعض كلمات تفيد :

"إن مايقال عن الحداثة وما بعد الحداثة جاء فى سياق تطور مجتمعات أخرى غير مجتمعاتنا ، وبالتالى فهو لا يخدم قضية الثقافة عندنا" .

ثم أعجبنى أكثر فى كلامها أنها تقول :

"إنهم يفتعلون معركة بين أفكار الغرب وثقافتنا ، وينسون تماماً مشاكلنا وأحوالنا الداخلية" .

أما عن شيخنا الكبير شكرى عياد ، وصديقى عبد الجواد سيد عمارة فكل ما أستطيع أن أقوله فى عجالة أن جهدهما فى صناعة ثقافة جديدة ، جهد كبير - ولكنه ضاع فى هذا الزمن الردئ لظروف خارجة عن إرادتنا .. ؟!

التناقض الخفى

لا ريب أن الأزمة الثقافية تنتج عن متناقضات كثيرة ، وقد تصبح هذه المتناقضات نفسها سمة الأزمة وأهم مظاهرها . التناقض بين المثقف وما ينطوى عليه هذا اللقب ، التناقض بين الثقافة وما ينبغى أن تتضمنه حسب معناها بينما لا تتضمنه فى الواقع ، بالنسبة للتناقض الأول يقول **جابر عصفور** فى كتابه (دفاعاً عن التنوير) :

"وآية ذلك أن منتجى الثقافة على المستوى الثقافى بدلاً من أن يواجهوا الدولة والمؤسسات والأجهزة التى تسلبهم المناخ الذى يساعد على الإبداع والتى تسهم فى إلغاء لغة الحوار ، يواجهون أنفسهم بالاتهام والإدانة ، ويسممون حياتهم بالقمع اللغوى والإرهاب الفكرى ، وبدل أن يواجه المبدعون المتسلطين على الهيئات الثقافية التى لا تمنحهم المنابر التى يمكن أن تعكس إبداعهم ، يواجهون أنفسهم ، ويتلذذون بتعذيب بعضهم البعض ، وذلك فى حالة من التواطؤ اللا واعى الجمعى التى رضى عنها الكل فيما يبدو" .

اقترب **جابر عصفور** من التعبير عن التناقض الأول ، **جابر عصفور** نفسه مثقف جزء من السلطة، ما هو فاعل مع السلطة . لا شك حركته مقيدة ، وبالتالى يكاد يفقد صنعة المثقف ووظيفته - وما يحدث مع **جابرعصفور** ينطبق على كل المثقفين الذين يعملون فى كل المنابر الثقافية التابعة لأجهزة الدولة المختلفة ، ويطالب **جابرعصفور** المثقفين أن يواجهوا الدولة والأجهزة التى تسلبهم المناخ الذى يساعد على الإبداع ، وأنا هنا أعمل بنصيحة **جابر عصفور** المثقف وأواجهه كأمين للمجلس الأعلى للثقافة .

لقد استحوذ **جابر عصفور** وآخرون على صناعة الثقافة فى البلد ، **وجابر عصفور** بالذات حول قاعة المجلس الأعلى للثقافة إلى كلية آداب ، وليتها كلية آداب بفروعها المختلفة ، بل إلى قسم واحد وهو قسم اللغة العربية ، وأخذت معظم الفعاليات تخدم المجال الأدبى .

أما بالنسبة للتناقض الثقافى ، وهو التناقض بين مفهوم الثقافة ومضمونها ، فيظهر جلياً فى

الإصرار على الاحتفاء بكتاب (مستقبل الثقافة فى مصر) **لطه حسين** . فما قاله **طه حسين** منذ أكثر من خمسين عاماً لا يرقى بأى حال من الأحوال إلى معنى الثقافة بمفهومها فى نهاية القرن العشرين وبالأحرى مشارف القرن الحادى والعشرين التى تخطت بكل المقاييس والمعايير مفاهيم **طه حسين** وحصيلته الثقافية . ما قاله **طه حسين** عبارة عن مبادئ إنسانية ، فلسفية من الممكن ، ومهما كانت قيمتها فى زمانها ، لا تظل دستوراً نعمل به طوال حياتنا . وعلينا أن ننطلق إلى إقامة ثقافة جديدة تخدم دخولنا إلى القرن الحادى والعشرين . وحتى الآن ما يقدم فى المجلس الأعلى للثقافة يحصرنا فى معظمه فى ثقافة متقادمة وفى تراث أدبى سخيف ، يتوزع بين أدباء القرن الماضى ولا يعطى أية دلالة للمستقبل .

وقد يقول **جابر عصفور** أن المجلس قدم فعالياته فى مجالات أخرى ، قد تكون الثقافة العلمية، أو مناقشة العولمة ولكنى أعتقد أن هذا من باب التغطية على الجرعة الكبرى . إن من أهم ما كان يجب أن ينظر إليه المجلس هو الهوية بقصد إيجاد التجانس بين أفراد المجتمع ، ثم تنمية أخلاقيات التعامل مع التقدم . إن الثقافة التى لا تعمل على بناء التجانس بين جماهير الأمة هى ثقافة خاوية تهدم ولا تبنى ، وعلى أية حال قبل أن نتحدث بعمق أكبر عن موضوع الهوية ، نقول باختصار شديد أن الثقافة ليست أدباً . فالثقافة فى عصرنا هذا هى ثقافة العلم والتقنية ، ولا أعتقد أن المجلس الأعلى للثقافة أفلح فى بناء هذه الثقافة ونشرها . وقد يرد **جابر عصفور** أن هذه مسئولية لجنة الثقافة العلمية بالمجلس ، وليس هذا صحيحاً ، فمسئولية نشر هذه الثقافة فى مجتمعنا مسئولية الدولة بجميع مؤسساتها ، والمؤسسة التى فى الطليعة هى المجلس الأعلى للثقافة لا إحدى لجانه .

وينبغى هنا أن ننوه بالجهد الكبير الذى يقوم به أعضاء لجنة الثقافة العلمية ، على الرغم مما يجدونه من معيقات لإنجاز مشاريعهم الطموحة - ونجد لزاماً هنا أن نذكر استقالة الدكتور المحترم **محمد عامر** الأستاذ بكلية العلوم والذى اختير عضواً هذا العام بلجنة الثقافة العلمية ، ولقد استقال لأن له أسبابه .

إنه ينبغى أن يعرف الجميع أن **رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده** تكلموا فى أحاديثهم وكتبهم عن العلم الطبيعى والتقنية ، أكثر مما تكلم مثقفو القرن الماضى بكثير ، بل إن القرن الماضى يعتبر القرن الضائع بالنسبة لمفهوم ثقافة التقدم ، إنه منذ بداية القرن وحتى الآن ينظر إلى الثقافة على أنها أدب ، ثم أدخل فيها حديثًا - وبعد انهيار الاشتراكية الماركسية - مفاهيم

التنوير والدولة المدنيـة والتسـامح ، وهى كلها مـفاهيم مغـلوطة لا تكّون ثقافـة جماهيـرية تصلح لتحريك كل قـوى الشعب للمشاركة فى اتخاذ القـرار وفهم طبيعة ما يجـرى حولها ، إن كان فى مصلحـتهـا ، أو ضد مصـالحهـا . وإن هؤلاء الأدباء مدعى الفكر والثـقافـة ضعفـاء فى السيـاسة والاقتصاد وشئون المجتمع الأخرى .

وبالنسبة لأدباء القرن الماضى ، يقول **عبد العظيم أنيس** :

"يدهشنى أن الكثيـر من الكتّاب ، ومنهم مـحـفـوظ - كـانوا مسـرفـين على الأقل ظاهرياً فى الإشـادة بكل مـا يصدر فى المرحلة الناصـرية من قرارات وأعـمـال ، ولم يرتفع صـوتهم بالنقـد الصريح إلا بعد وفاة عبد الناصر «عاد إليهم الوعى» ولا ينطبق هذا على توفيق الحكيم فقط ، وإنما ينطبق على نجيب محفـوظ أيضاً وهو يعرف ذلـك بدليل أنه يرد فى كتاب السيـرة الذاتيـة لرجاء النقاش بحماس شديد على الذين اتهموه بالنفاق" .

ويواصل عبد العظيم أنيس (الهلال سبتمبر ١٩٩٨) :

"الأمر الآخر الذى أدهشـنى فى حديث محفوظ هو حـديثه المستخف بحـرب الاستنزاف التى سمـاها «كلام فارغ» فـمبلغ علمى أن للعـسكريين ، مصريين كـبار وعسكريـين إسرائيليين كـبار وأساتذة استراتيجية فى معاهد الغـرب ، رأياً آخر فى حرب الاستنزاف . وكان من واجب محفوظ أن يطلـع على آراء هؤلاء قـبل أن يبـدى رأياً فى حـرب الاسـتنزاف بهـذه السـهـولة وهذا الاستخفاف".

لم يكن مـحـفـوظ وحـده الذى أخـذ هذا الموقف من حـرب الاستنزاف ، بل إن عـبـد العظيم رمضان ، وثروت أباظة يقولان أيضاً إنها كانت استنزافاً لمصر .

ويرد **الجمـسى** على هذا الكلام غـيـر المسئـول ، بأن **وايزمان** رئيس دولة إسـرائيل يقـول فى مذكراته : **«إن الحرب التى خسـرناها هى حرب الاستنزاف»** ، فى أثنائها اسـتعد الجـيش المصرى لبناء خط الدفـاع الجوى ، وتدرب على التعـامل مع الطيران الإسرائـيلى ، وهذا ما ساعـد الجيش المصرى فى القيام بهجوم الطيران الناجح فى بداية حرب أكتوبر .

نجيب محفوظ الذى نال فى الفترة الناصرية كل ما يتمناه كاتب ، **والذى سُمح له بعرض أفلام رواياته ، لا يقف** موقفاً محايداً من الفترة الناصرية .

يقول عبد العظيم أنيس :

صحيح أن الديمقراطية كانت معطوبة فى الفترة الناصرية ، ولكن هذه الفترة حققت إنجازات كبيرة : كسر احتكار السلاح وبناء السد العالى ، والتعليم المجانى ، وارتفاع مستوى المعيشة فى الفترة ٥٤ - ٦٧ ، وبناء الصناعة الوطنية ، وتمصير المؤسسات الاقتصادية الأجنبية واعتزازنا بمصريتنا وعروبتنا ".

وأخيراً يمثل **عبد العظيم أنيس** موقف **محفوظ** من المرحلة الناصرية بأنه موقف وفدى محافظ لا يختلف كثيراً عن **رأى فؤاد باشا سراج الدين** .

من حق الأجيال الصاعدة أن تعرف أن كل الكتّاب ليسوا على هذه الشاكلة . وهناك الكثيرون خارج السلطة ساهموا فعلاً فى فكر التنوير ، ورائدهم الراحل **يوسف إدريس** فهو ينقد سياسة الانفتاح الاقتصادى ، فيتحدث عن ما آل إليه حال شركة بيع المصنوعات المصرية التى أصبحت تبيع كل شىء مستورد حتى أبسط السلع والأدوات المنزلية قائلاً على لسان **طلعت حرب** :

"أيها المصريون يا أصحاب مصر هل متم ! ألا تعرفون هذا كله ؟ لماذا أنتم ساكتون ؟ يا من علمتكم وطنية الاقتصاد واقتصاد الوطنية ، يا من مت أحلم بجيش يحمى حلم إنساننا واقتصادنا واستقلالنا . أين ذهبتم ؟ أضاعتكم المناصب والتوكيلات . أمات عندكم الضمير ؟ يا مصر أين ضميرك الاقتصادى أين ؟"

ويضيف يوسف إدريس من عنده :

"ظللت أستمع إلى هذه الصرخات وأستمع . ولا أحد يلتفت لا أحد هنا ، لكأننا فى الربع الخالى مع أننا فى قلب العاصمة وتماماً بجوار الصارخ المتحدث" .

واليوم وصلنا إلى نهاية المطاف فى سياسة الانفتاح ولا أحد من المفكرين الأدباء يصرخ أوقفوا هذه المهزلة .. ولا أحد يساند ابن مصر البار **محمود عبد الفضيل** وهو يقول :

« تعجبت بدورى . هل صوت طلعت حرب هذا الذى يستصرخه يوسف إدريس قد أصبح صوتاً أم أنيناً ينتمى إلى الماضى السحيق ؟! أم أنه مازال صوتاً حياً يخاطب ضمائرنا ومصالحنا الوطنية أو قل الإنمائية أو الاستراتيجية لأن كلمة الوطنية الاقتصادية قد أصبحت فى نظر البعض موضة قديمة لا تواكب روح العصر .. عصر العولمة» .

وللأسف نجدنا مضطرين هنا لذكر ما قاله الصديق **جابر عصفور** فى إحدى المقابلات الصحفية فى مقابلة مع **سليمان الحكيم** يسأله الأخير :

* إذا كان هذا هو مفهومك للتنوير ، فلماذا تتهم ثورة يوليو بأنها أصولية عسكرية ، ولا تختلف فى شىء عن الأصولية الدينية ، متجاهلاً دورها التنويرى الواضح ، خاصة فى مجال الثقافة والتعليم وتكريمها الأدباء أو الفنانين فى عيد العلم ، وغيره من مظاهر التكريم التى كان يحرص عبد الناصر شخصياً على حضورها .

- وجاء فى رد **جابر عصفور** ما يأتى :

"ففيما يتعلق بعبد الناصر .. أنا ناصرى وأنتمى إلى ثورته وأعتبر نفسى واحداً من أبنائها ، ولكن أنا - كما فى النقد الأدبى - أومن بفكرة الوعى النقدى ووضع الأشياء دائماً موضع المساءلة . وإن الإبداع الحقيقى أن تضع الأفكار والمسلمات موضع المساءلة ، وحين تضع ثورة يوليو موضع المساءلة ، فسوف تنتهى مثلى إلى أن التكوين العسكرى تحول ، من خلال الممارسة وبواسطة التسلط الذى أخذ يتصاعد مع غياب الديمقراطية ، إلى نوع من الأصولية العسكرية التى هى الوجه الآخر من الأصولية الدينية . والدليل على ذلك أن كل شىء كان يهبط من فوق إلى تحت وليس العكس .. وبسبب غياب الديمقراطية وهى الخطأ الأساسى لثورةيوليو - حدثت الكوارث التى مازلنا نعانى آثارها حتى الآن ، لأننا لم نتخلص من بنية الثورة حتى الآن ، وعلى هذا الأساس فإن ثورة يوليو حين تصحح مسارها فإن ذلك لا يكون إلا بإضافة الديمقراطية لها . وأنا أرى الهوامش الديمقراطية التى تحققت الآن تحققت فى إطار ثورة يوليو التى لم تنته بعد كما أومن ، وحينما نتحدث عن الناصرية فإننى أراها فى أن تتحول أحلام الأمة من الضرورة إلى الحرية ، ومن الظلم إلى العدل ، ومن التخلف إلى التقدم ، هذه هى الممارسة الديمقراطية الحقيقية. هذه هى مبادئ الثورة الأساسية فى تقديرى ، وعلينا نحن أن نكف عن نقدها على هذا الأساس ، بمعنى ألا نكتفى بنقدها نقداً انتهازياً فنذكر مساوئها ونتجاهل مساوئ غيرها كما يقول إدوارد سعيد فى كتابه الجميل عن المثقف - حينما تكون مثقفاً حقيقياً وتملك العقل النقدى للمثقف ، فينبغى أن تنقد ثقافتك أولاً ، بقدر ما تنقد ثقافة الآخرين ونحن نتحدث عن ثورة يوليو على هذا النحو ، فإنما نتحدث عن بعض السلبيات التى يجب أن نتخلص منها فى حياتنا" .

* أنت ترى إذن أن ثورة يوليو لم تحقق العدل والتنوير .

- " ثورة يوليو حاولت ، ولكنها فشلت ، لأن من أرادوا تحقيق العدالة لم يكونوا عادلين مع أنفسهم أو مع الجماهير ، ومن هذا تغلغل الفساد والانحراف .

* هذا الفساد من سمات العصر الحالى ، ولم يكن من سمات الثورة أو حكم عبد الناصر .

- لا .. الفساد كان فى ذلك العهد وأنت عارف وأنا عارف .

ينقد أمين المجلس الأعلى للثقافة بهذا الأسلوب ثورة يوليو مبرراً ما يفعله بأنه يطبق أسلوب النقد الأدبى وهو بالتالى يخلط كل الأوراق ، فلا ينبغى أن يعطى الناقد الأدبى لنفسه الحق فى تحليل ومناقشة ونقد الأحداث السياسية إلا إذا كان مؤهلاً لذلك ، ثم لا يصح للمثقف فى مركز سلطة فى بيئة تتمتع بهامش ضيق جداً من الديمقراطية أن يتعرض لنقد التجربة الناصرية بفكرها المخالف تماماً لفكر النظام الحالى الذى يعمل لصالحه . وبالتالى ما يقوله **جابر عصفور** سوف يشوه الصورة أمام الأجيال التى لم تكن موجودة فى فترة **عبد الناصر** .

ومن مصلحة هذه الأجيال أن تعرف تعاقب الأحداث التالية :

يوليو ١٩٥٢ - قيام الثورة .

يونيو ١٩٥٤ - إبرام اتفاقية الجلاء مع الإنجليز .

يوليو ١٩٥٦ - تأميم قناة السويس .

نوفمبر ١٩٥٦ - الاعتداء الثلاثى على مصر وانهزام المعتدين .

ديسمبر ١٩٥٦ - الجلاء عن بورسعيد .

فبراير ١٩٥٨ - إعلان الوحدة مع سوريا .

يوليو ١٩٦١ - إعلان القوانين الاشتراكية .

سبتمبر ١٩٦١ - حدوث الانفصال بين مصر وسوريا .

١٩٦٢ - ثورة اليمن .

١٩٦٣ - إرسال الجنود المصريين إلى اليمن لحماية ثورته .

١٩٦٧ - حرب يونيو وهزيمة القوات المسلحة .

١٩٧٠ - وفاة عبد الناصر .

١٩٧٣ - حرب أكتوبر المجيدة

١٩٧٧ - ضياع الحلم بعد زيارة القدس .

١٩٧٧ - ١٩٩٨ : عشرون عاماً من الضياع .

وإن يبدو أن هناك مظاهر تنمية فإنها تقوم على حساب إيرادات بيع القطاع العام الذى أقامته ثورة يوليو ، والمعونة الأمريكية التى تمنح لمصر ثمناً لانعزالها عن التيار القومى ، ومحاولة أمريكا لتأخير فرصة ظهور عبد الناصر آخر يحكم مصر ويقود الأمة للتحكم فى مواردها وتخليصها من

استغلال أمريكا وحلفائها . ولقد حقق الاقتصاد المصرى بعض النمو بعد أن خفضت الديون على مصر مكافأة لها على الاشتراك فى التحالف الدولى ضد العراق .. وأصبحنا نعيش الآن على عظام أطفال العراق الذين تحرمهم أمريكا من الغذاء والدواء ، ونحن لا نستطيع أن نقف بجوار العراق ضد ما تدعيه أمريكا بالشرعية الدولية التى تحت شعارها تحاصر العراق ، ناهيك عن محاصرة ليبيا والسودان .. وأخيراً تتم المؤامرة بين تركيا وإسرائيل ضد سوريا أى ضد الوطن العربى ، وتخضع الأمة لابتزاز تركيا ، هذا ولن ندخل فى حساب التكلفة الاجتماعية التى يتحملها المواطن المصرى نتيجة لإجراءات الإصلاح الاقتصادى ..

قبل أن يرسل الكتاب إلى المطبعة "اجتمعت دول إعلان دمشق فى الدوحة بعد توقف دام لمدة عامين ، وبعد أن كان وزير خارجية سوريا قد شيع الإعلان وأعلن عن موته اجتمعت الدول لتصدر قراراً يعلن أن صدام حسين هو المسئول عن أية عواقب قد تحدث نتيجة لضرب أمريكا للعراق»

هل يستطيع **السيد يس أو جابر عصفور** أن يتخذ أى منهما موقفاً مع أو ضد هذا القرار ... بالطبع لا ، لو قال أى منهما نعم للقرار ، فسوف يغضب كل الاتجاهات الوطنية والقومية التى تقف بشدة مؤيدة لشعب العراق ضد أى اعتداء أمريكى ، ولو عارض أى منهما القرار ، فسوف يغضب النظام الذى يعمل فى مؤسساته كل منهما .. وهكذا ترى أننا لا نحكم على أى مثقف من موقفه تجاه فكر أو حدث أو شخص معين ، بل على موقفه تجاه قضايا الأمة ، وهو يزيف كل الحقائق ليخدم ازدواجيته الخادعة أو تغطية للمأزق الذى وضع نفسه فيه يأخذنا إلى عالم المجردات بعيداً عن أرض الواقع، ويميل أكثر إلى توجهات النظام ، وإدعاءاته عن التنوير والتسامح التى لا تفيد فى شىء لا فى مسائل توزيع الدخل، ولا فى مدى الفساد والانحراف - ولا فى تدهور التعليم، وسلبية الشباب واللامبالاة التى أصبحت السمة الظاهرة للأجيال الصاعدة .. إلخ

وننقل عن **د . محمود الربيعى** ما كتبه فى الهلال أكتوبر ١٩٩٨ ":

«منذ السبعينات من هذا القرن وأصوات من استراحوا لتسمية أنفسهم "بنقاد الحداثة" تتعالى رقعة نفوذهم - عن طريق تولى بعض المناصب الرسمية - تتسع ، وظهورهم فى وسائل الإعلام يتزايد ، وارتباطهم بالمسئولين الرسميين عن الثقافة يتوطد» .

وفى هؤلاء الحداثيين العرب يقول **عبد العزيز حمودة** :

"فشلوا فى إنشاء حداثة عربية حقيقية ، ورغم تأكيداتهم بأنهم لا ينقلون عن الحداثة الغربية

فإن الواقع يؤكد نقيض ذلك» .

ويستطيع **جابر عصفور** أن يغتال **عبد العزيز حمودة** بل يسحقه على صفحات أخبار الأدب ، ولكنه لا يستطيع أن يقول أنه قدم ثقافة نقدية عربية . ولا يستطيع أن يقول أنه من موضعه فى المجلس بإمكانه أن يطالب بإلغاء قانون الطوارئ وتقرير حق الإضراب للعاملين بالدولة ، كما أنه لا يمكن أن يعترف بأنه يساهم فى ضياع الأمة أو على الأقل يسكت عن معارضة هؤلاء الذين يعملون على ضياع الأمة .. هذا بالرغم من ادعائه بالتنوير وأنه ابن بار يسير فى ظل **طه حسين** .. ويبدو أن تعاليم **طه حسين** أثمرت حقاً فى إنتاج أمثال **جابر عصفور ، وعبد المنعم تليمة والسيد يس** .. وغيرهم كثير .

هل هذه حقيقة ؟! أم أنه افتراء وادعاء كاذب بأنهم تلاميذ **طه حسين** .

التناقض مع التراث

فؤاد زكريا يسارى ، نظرته عن التراث العربى الإسلامى غامضة وغير منصفة ، يمجد الاشتراكية، فيقول في كتابه (أفاق الفلسفة) :

"ظهرت الفكرة الاشتراكية فى صورتها المحددة المعالم من قلب الرأسمالية بوصفها رد فعل على ذلك النظام الذى ظن الناس فى وقت ما أنه سيجلب لهم مزيدا من الرخاء ، فإذا به يصيب الكثيرين منهم بالفقروالشقاء ، ويصيب الإنسان بأنواع من العبودية ربما كانت أشد مماكان يعانيه فى كثير من مراحل التطور الاجتماعى السابقة . إن الرأسمالية مرحلة اكتملت بالفعل ، ومرت بأطوار متعددة حتى وصلت إلى شكلها الحالى الذى لا ينتظر أن تطرأ عليه تغيرات كبيرة فى المستقبل ، وهى تحارب فى الوقت الراهن معاركها الأخيرة ، أما الاشتراكية فما زالت بالرغم من نجاحها السريع تمر بمرحلة التجارب" .

هذه كلمات لا تحتاج إلى تعليق ، فانهيار الاتحاد السوفيتى وما حدث فى دول الكتلة الاشتراكية وازدهار الدول الرأسمالية والانجازات العظيمة التى قدمتها وما تزال تقدمها فى ميادين العلم والتقنية . كل ذلك رد بليغ على **فؤاد زكريا** الذى وضع اعتقاده الراسخ فى الاشتراكية غشاوة على عينيه لم تجعله يبصر حقيقة المأزق الذى كانت فيه والذى أدى فى النهاية إلى الانهيار الكامل للدولة الاشتراكية .

يكره **عبد الناصر** ويحقد عليه كمعظم اليساريين ، ويقول عنه فى إحدى كلماته :

"كيف يحكمنا رجل يحمل شهادة الثانوية وماذا ننتظر من مثل هذاالرجل" .

وحينما يقول **زكى نجيب محمود** فى كتابه (تجديدالفكرالعربى) :

"ويعد واحداً من العوامل المسئولة عن تخلف الفكر العربى ، هو الاستبداد واضطهاد الحريات".

يعارض **فؤاد زكريا** هذا الرأى بقوله :

"تاريخ الفكر الأوربى بدوره حافل بمظاهر قمع الحريات ولا سيما الحرية الفكرية ، ولسنا نود أن نشهد هنا بما كان يحدث للخارجين عن التيار المعترف به فى العصور الوسطى ، أو لشهداء الإصلاح الدينى فى عصر النهضة ، بل إن العصر الحديث ذاته قد استهل بفترة طويلة من اضطهاد الفكر باسم الدفاع عن الدين ، وفى هذه الفترة أُحرق جوردانو برونو حياً وحوكم جاليليو وكاد يدفع حياته ثمناً لإيمانه بالنظام الفلكى الجديد ، وتأييده له بالملاحظات العلمية والمعادلات الرياضية ، وعاش ديكارت مهدداً بمصير مماثل لمصير جاليليو ، واضطر اسبينورا إلى أن يكتب بلغة ظاهرها لاهوتى وباطنها عقلانى علمى ، وهكذا لم يكن تاريخ الغرب خالياً من مظاهر قمع الحريات الفكرية ، وكانت السلطة الدينية تمارس إرهاباً فكرياً لا يقل عما شهدته الحضارة العربية فى العهود التى بلغ فيها الاستبداد قمته ، ومع ذلك فهذا الاستبداد لم يمنع الغرب من التقدم ولم يحل دون ظهور عصر التنوير بحريته الفكرية الرائعة ، بعد قرن واحد من الزمان" .

نحن مع **فؤاد زكريا** حينما يقول إن الاستبداد فى أوربا لم يمنع من تطور العلم وتقدمه . ولكننا ندهش لتناقضه حينما يقول فى مكان آخر أن تخلف الفكر فى البلاد العربية يرجع إلى سلطة الحكم وسلطة الدين وسلطة التقاليد .

يطرح **فؤاد زكريا** هذا من منطلق عدم قناعته بإحياء التراث ، فإنه يقول :

"إن الأوربيين لم يخجلوا من إعلان رفضهم القاطع لتراث كامل ينتمى إلى صميم ثقافتهم وتمتد إليه جذورها . فقد كان الفلاسفة فى هذه الفترة يقفون من تراث الفكر الأرسطى الذى سيطر على العصور الوسطى سيطرة كاملة موقف التحدى الصحيح . وكانت نقطة بداية العلماء من أمثال جاليليو هى ضرورة تحرير الفكر من سلطة القدماء والتوجه إلى الطبيعة مباشرة ، بدلاً من كتب التراث ، من أجل فهم العالم وقوانينه ، ولم يكن فى موقف الرفض القاطع هذا ما يعيبهم ، بل لقد أصبح هذا الموقف هوأساس مجدهم وهو الذى وضعهم على قمة العلم والفكر فى عصرهم" .

ويرد قسطنطين رزيق على فؤاد زكريا بقوله :

"هل هذا صحيح ؟ .. لا يدل تاريخ الفكر الأوربى أنهم رفضوا التراث الأرسطى بكامله ، لعلهم رفضوا المنطق أو ما وراء الطبيعة ، ولكنهم ظلوا يتأثرون بكتب أرسطو الأخلاقية والسياسية ثم لما جاءتهم كتب أفلاطون وأرسطو بأصولها اليونانية من أهل القسطنطينية اللاجئين إلى أوربا أقبلوا على دراستها بفهم ، لأنهم بدافع إعجابهم بالأصول اليونانية كانوا حريصين على

الاطلاع عليها مباشرة لا عن طريق ترجماتها العربية أو العبرية .

إن حركة النهضة لم تكن تمثل رفضاً قاطعاً ، إنهـا من جهة رفض للعقلية اللاهوتيـة الكلامية الوسيطية التى جندت منطق أرسطو و فلسفته لغاياتها ، ولـكنهاكانت أيضاً من جهه أخرى بعثاً للتراث اليونانى فى عقلانيته ، وللتراث اليونانى اللاتينى فى إنسانيته وفى روائع أصولهما الأدبية والفنية" .

هل حقيقة مات التراث اليونانى واللاتينى ، ومن أين تستلهم الفلسفات الأوربية أصولها أليس من التراث إما نقداً له أو بناء عليه . ولماذا إذاً كـان كل هذا التراث الأوربى القديم لا قيمة له ، لماذا قمنا بترجمته إلى العربية وطبعاً لم يترجمه السلفيون المسلمون بل العلمانيون المجددون .

يقول **زكى نجيب محمود** فى كتابه (رؤية إسلامية) عن رسالة أرسلتها له إحدى القارئات تقول:

"إننى أم لطفلين وكنت على وشك أن ألقنهـما درساً فى أصولهـما الفرعونية ، وكيف ينبغى لهما الاعتزاز بما يجرى فى عروقهما من دم فرعونى أصيل، لولا أن أوقعتنى المصادفة على كتاب "هموم داعية " للإمام الغزالى فوجدت إمامنا يقول فى صفحة ٤٢ من ذلك الكتاب : إن إبعاد العرب عن الإسلام خيانة وطنية إلى جانب كونها "ردة ومعيبة" ، فأمسكت عما كنت أعتزم مع ولدى ، .... وما فرغت من قراءة الإمام الغزالى ، حتى وقعت على كتاب " ما قبل السقوط " لفرج فودة فوجدته يطالبنا بعقلانية وواقعية شديدتين ، بألا نستمع إلى دعوة تقول للمسلم المصرى ، أن المسلم فى الهند أقرب إليه من القبطى المصرى ، وها أنت ذا تنادى بأن العروبة ما هى إلا نمط ثقافى متميز بخصائصه ، وأن مصر كانت تقيم حياتها على ذلك النمط الثقافى حتى قبل الفتح العربى .. فهذه آراء ثلاثة فأيها تصدقه ؟"

ويواصل **زكى نجيب محمود** الكتابة عن عروبة مصر فى كتابه (رؤية إسلامية) بقوله :

" تلك كانت الخطوط الثلاثة التى تلاقت عندى فيما يقرب من ساعة زمنية واحدة ، فما كان منى إلا أن جلست أفكر فيها متدبراً متروياً ومتسائلا : هل تخرج منها بما يؤيد وجهة نظرك فى حقيقة العروبة ، أو أن الأمر أصبح فى حاجة إلى مراجعة . رأيت عند ئذ أن أبدأ بما ورد فى رسالة السيدة القارئة التى ظنت أنها إزاء ثلاثة آراء متعارضة . وهى تريد أن ترسو بسفينتها على بر تطمئن له" .

يرد **زكى نجيب محمود** ، ولكنه يبدو فى رده توفيقياً حيث يقول :

"الرأى عندى هو ألا تعارض هناك بين الآراء الثلاثة التى وقفت السيدة أمامها حيرى ، وقبل أن أبين ذلك يحسن أن أبرز الجانب الذى يفلت من عين الرائى: هناك صفتان تتلاقيان حيناً ، وتفترقان حيناً وهما العروبة والإسلام ، فنحن منهما أمام احتمالات ثلاثة ، الأول ، هوأن نجد الصفتين قد تلاقتا فى شخص واحد فيكون ذلك الشخص عربيا مسلما ، والاحتمال الثانى هو أن يكون المسلم غير عربى ، والاحتمال الثالث هو أن يكون الشخص عربياً غير مسلم ، (هل هذه قضايا مطروحة فى أى من المجتمعات الأخرى أوربية كانت أو هندية أو أمريكية؟ بالطبع لا. الكاتب) **فإذا كانت السيدة صاحبة الرسالة قد وجدت الإمام الغزالى يحذر من أن تباعد بين العربى وإسلامه ، أو بين المسلم وعروبته ، فهو إنما يتحدث عن فئة واحدة من الفئات الثلاث التى ذكرناها وهى فئة الاحتمال الأول، ومحال أن يكون الإمام الغزالى قد ربط بين العروبة والإسلام ربطاً لا يتسع لوجود الاحتمالين الآخرين ، وهى أن يكون المسلم غير عربى وأن يكون العربى غير مسلم"** .

لا يناقش **زكى نجيب محمود** مفهوم القومية العربية ولا مفهوم الأمة الإسلامية . . قد يكون العربى غير مسلم وقد يكون هذا العربى مصرياً ، وإذا اعتبرنا أن العروبة ثقافة كما يرى **زكى نجيب محمود** فما المصرية ؟

لقد ارتضى الكثيرون من المسيحيين الثقافة العربية الإسلامية ثقافة لهم ..**ميلاد حنا** ، **غالى شكرى** وغيرهما ، ولكن كلا من هؤلاء يرى الثقافة العربية الإسلامية من منظوره الشخصى . **فميلاد حنا** يقبلها بطابعها الناصرى ، أما **غالى شكرى** فيريد أن يصبغها بلونه حتى تكون فى النهاية ماركسية . لقد تناسوا جميعًا ضمير الأمة الذى ينبع من تراثها ويحتضن جميع أبنائها.

ومن تعريف **زكى نجيب محمود** للعروبة بوصفها نمطاً ثقافياً ، فلا هو يتعارض بالضرورة مع ما قاله الغزالى فى وجوب عدم الفصل بين العروبة والإسلام ، ولا هو يتعارض بالضرورة مع ما قاله الدكتور فرج فودة فى ترتيبه للأولويات .

وينتقل زكى نجيب محمود إلى عناصر النمط الثقافى فيلخصها بـ :

"إنها إحساس دينى عميق ينبض به قلب الإنسان من حيث يدرى أو لا يدرى - هذا الإحساس الدينى يتميز به إنسان هذه الرقعة الجغرافية من الأرض" .

والعنصر الثانى فى بنية النمط الثقافى فى مصر وفى غير مصر من أجزاء هذه الرقعة من الأرض هو اللغة ، فبالرغم من تعدد الفروع اللغوية فى أقطار هذه المنطقة قديماً . إلا أنها جميعاً

تشترك فى طابع مميز ، بما فيها لغة المصريين القدماء ، ويعتمد فى ذلك على ما أشار إليه الدكتور أحمد فخرى من بحوث فى علم أصول اللغات أدت إلى نتائج من أهمها مشاركة اللغة المصرية مع سائر لغات المنطقة فى المفردات وفى قواعد التركيب ، هل هذا معقول ؟ هل تدخل فى هذه التركيبات المعقدة لتكوين اللغات والعلاقات فيما بينها لكى تفسر وتشرح عناصر القومية العربية؟

وهل كان **زكى نجيب محمود** يعى تماما لأهمية عنصر الدين فى العروبة ؟ وهنا نتساءل ما المقصود بالعروبة - القومية العربية - الثقافة العربية ، أو النطق بالعربية ؟ هل هناك ثقافة عربية لا تكون ثقافة إسلامية . من أدخل العروبة أليس هو الفتح الإسلامى ، عنصران متلازمان لا انفصال بينهما ، والقومية العربية ماذا تعنى فى الفكر الحديث ، بكل بساطة تعنى :

"الاتجاه إلى الوحدة من أجل الوقوف أمام الأجنبى ، وتنمية الاقتصاد ، وحفظ كرامة الإنسان العربى ورفاهيته"

وإذا كان دين العروبة هو الإسلام ، فلا بد أن يكون هناك تناقض بين **زكى نجيب محمود ، وفرج فوده - فزكى نجيب محمود** يؤكد على عنصر مهم للعروبة يريد **فودة** أن يفرغها منه ، عنصر الدين هذا ما تحسه القارئة التى أرسلت خطابها إلى **زكى نجيب محمود** . وهذا ما يحسه الذين يعارضون **فرج فودة** وكل التيار العلمانى .

المجتمع مسلم ، ولكن ليس فى الإسلام سلطة دينية بوجه من الوجوه ، بمعنى أن الحاكم أو السلطان يستمد سلطانه أو قوته من الله - وإذا كانت الدولة تعبر عن المجتمع فهى إذن دولة دينية.

يقول الامام **محمد عبده** :

"الإسلام دين وشرع فقد وضع حدوداً ورسم حقوقاً ، وليس كل معتقد فى ظاهر أمره بحكم يجرى عليه فى عمله فقد يغلب الهوى ، وتتحكم الشهوة ، فيغمط الحق ويتعدى المعتدى الحد ، فلا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضى بالحق ، وصوت نظام الجماعة" .

ونحن نختلف مع **محمد عبده** حينما يقول :

وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى فى عدد كثير. فلا بد أن تكون فى واحد هو السلطان أو الخليفة ، ولو أنه يقول : **إن الأمة هى صاحبة الحق فى السيطرة عليه ، وهى تخلعه متى رأت ذلك فى مصلحتها فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه"**، فإننا نرى أن القوة يجب أن تتوزع بين نواب الأمة وعلمائها ، وأئمتها وشيوخها وقياداتها المهنية ورؤساء طوائفها المختلفة . كل هؤلاء تطبعهم

ثقافة واحدة ، ثقافة قومية بدون شك .

يشير **أرنست جلنر** إلى أن القومية في طريقها إلى أن تصبح ظاهرة ثقافية أساساً ، تخلق بشكل مصطنع وحدة رمزية تحتاج إلى تدعيم سريع ، وإن الدولة هي فقط التي تستطيع القيام بذلك ، فيجب أن يكون هناك رباط بين الدولة والثقافة ، هذه هي القومية . هذا هو السبب الذي يجعلنا نعيش في عصر القوميات ، وعلى ذلك فإن وجود الدولة أمر لا مفر منه .

إن القومية قد لا تنميها الدولة ، ولكن هي بالأحرى تنشأ في كل مرة كمعارضة لنوع معين من الدولة باسم هوية جماعة معينة ، تدّعي أنها رفضت وقُلل من شأنها ، والقومية كنمط نموذجي قد اخترعت في الواقع في فرنسا في أواخر القرن التاسع عشر تقريباً كحركة تهدف إلى إعادة الشرعية بشكل من الهوية الثقافية الجماعية هي الكاثوليكية التي تعبر عن المجتمع الفرنسي جسداً وروحاً التي كانوا يعتقدون أنها غير ممثلة بوساطة الدولة الوضعية التي كانت تصر على فرض قواعدها العالمية عن طريق علمانياتها .

نخلص من كل ما ذكر عاليه في هذا الجزء ، إلى أن التناقض يسيطر سيطرة كاملة على هذا المجتمع ، ويظهر ذلك بوضوح حينما نرى أن جوائز الجهات الرسمية والمؤسسات العلمية كانت تمنح في الغالب مناصفة بين **فؤاد زكريا** اليساري (الماركسي) الذي لا يؤمن بالتراث ، **وزكي نجيب محمود** اليميني أو الليبرالي المؤمن بالعقيدة والقومية العربية والداعي لتأكيدهما . . . ويحصل **فؤاد زكريا** أخيراً وأخيراً جداً على جائزة الدولة التقديرية رغم كل النقد الذي توجهه إليه كل الأوساط الثقافية والسياسية والفكرية لا لشيء إلا أنه آخر العلمانيين .

أصل التبعية

عشنا مع **طه حسين** صغاراً ونحن نستمتع بأعماله فى الأدب والثقافة ،وطالما انتظرنا بفارغ الصبر حديثه الذى كان يذاع من إذاعة القاهرة ولم نعرفه إلا رمزاً لتحرير الأمة من ظلمة الجهل وخاصة ونحن نقرأ ونسمع مقولته المشهورة " **التعليم كالماء والهواء**" .

غاب عن الكثيرين أن **طه حسين** الرمز ، والرموز الأخرى التى قادت الفكر فى القرن الماضى كان يجب أن تظل شامخة لا تقع وتشوه صورتها ، ولكن لا تأتى الرياح بما تشتهى السفن . وانكفأ البعض يستغل هذه الهامات الشامخة لمصالحه الضيقة . وظن الكثيرون من قدامى الماركسيين بعد أن انهارت الماركسية ، وراح نجمها ونجمهم يأفل ، إنهم ربما يجدون السند فى آراء وأفكار الماضى وهم يواصلون هجومهم المستتر ضد القومية وعقيدة الأمة تحت دعاوى الاستنارة والدولة المدنية والتسامح وشعارات كثيرة أخرى فُرغت فعلاً من معانيها الأصلية وفى الأونة الأخيرة خرج علينا أنصار **مونتسكيو وكانت وهيجل** وعلى رأسهم أنصار **ماركس** بتقليعة جديدة ، يتمثل أحد جوانبها فى إحياء ذكرى مفكرى القرن الماضى بصفتهم رجال التنوير عندنا . . ولسنا ضد ذلك إذا لم يتم اختيار الأشخاص بطريقة انتقائية تخدم أغراضا خبيثة ، ظاهرها الاعتزاز بما أنجزه هؤلاء العمالقة أما الجانب الآخر فيدعو أصحابه إلى الشرق أوسطية والكونية وهم يرمون بانظارهم إلى ما يسمى بالنظام العالمى الجديد الذى تهيمن عليه أمريكا حتى الآن .

تظاهرة ثقافية كبيرة ضمت هؤلاء وأولئك تعرضت لآراء وأفكار وموضوعات عديدة ، وبعدت كل البعد عن مشكلات المجتمع ، بل إن أهم قضايانا ، قضية الصراع العربى الإسرائيلى وتحقيق السلام العادل لم تنل فى لغوهم أى اهتمام . وحتى أفعال **نتنياهو** الأخيرة ومحاولة إسرائيل القضاء على عروبة القدس ، فى محاولة خطيرة لجعلها مدينة واحدة تكون فى المستقبل عاصمة إسرائيل ، غابت كلها عن التظاهرة الثقافية التى يقودها أعلى جهاز فى الثقافة فى مصر بقيادة **جابر عصفور** ، وكإحدى فقرات هذه التظاهرة الثقافية الجديدة اندلع النقاش حول طه حسين بوصفه مؤلف كتاب (مستقبل الثقافة فى مصر) - ورحنا نقرأ فى الصحف الكثير عن خبايا

لم نكن نعلمـهـا ، وإذا بها تثيـر الفضـول وتدفع إلى قـراءة وثائق التـاريخ فنجد مـا يطلق عليـه المخادعون ثقافة التنوير ما هو إلا وهماً كبيراً . . . بانت معظم ملامحه فى الصفحات السابقة .

أما بالنسبة لطه حسين فلنقرأ قوله :

" أنا أعلم أن كـثيرا من رجـال الثـقـافـة المتـازين فى أوربا يضـيـقـون بالثـقافـات الوطنيـة ويكرهونهاويودون لولم تعرف الإنسانية إلا ثقافة واحدة ، وأنا أعلم هذا ولكننى أعلم أنه مخالف لطبيعة الأشياء . فمن عناصر الثقافة ما هو شـائع عام مشترك بين الناس جميعاً نرى ذلك فى كثير من ألوان العلم . ومن عناصر الثقافة ماهو بطبيعته شخصى مقصور على هذه الأمة أو تلك " .

ولكن هل تتفق هذه الكلمات مع ما يقوله **طه حسين** فى موضوع آخر :

"سواء رضينا أم كرهنا فلابد أن نتأثر بهذا المنهج فى بحثنا العلمى والأدبى كما تأثر به من قبلنا أهل الغرب ، وأن نصطنعـه فى نقد أدبنا أو بناء تاريخنا كـما اصطنعه أهل الغـرب فى نقد آدابهم وتاريخهم ، ذلك لأن عـقليتنا نفسـها قد أخذت منـذ عشرات السنين تتغير وتصبح غـربية أو قل أقرب إلى الغربية منها إلى الشرقية " .

أين فى كلمات **طه حسـين** الأخيـرة ، ما هو إنسـانى يتصل بالإنسـانية ككل ، ومـا هو قومى وكيف تصبح العقلية غربية فى حين أنه يقول :

"قد أتاحت طبيعة الحياة الإنسانية للناس أن يخصصوا ما هو عام فيطبعونه بطابعهم"

كما أنه يقول :

إن العلم لا وطن له ، ولكنه إذا استقـر فى وطن من الأوطان تأثر بإقليمه وبيئته ليـتصل بنفوس ساكنيه"

. . أى تناقض هذا الذى نراه .

ويرد عليه **فريد وجدى** :

"تقول إننا لا نظن أنه يوجد عـقل شرقى ، وعقل غربى ، ونعتقـد أنه يوجد علم وجهل ، وهذا العقل الغربى حينما كان الجهل مخيمـاً على أوربا لم يغير من أهلها شيئاً ، فكانت الشعوب تباع مع أراضيها . وكـان كل مجتمع فيهـا منقسماً إلى طبقات بعـضها يستغل البعـض الآخر ويسخره لشهواته . وكان كل من يتجرأ على البحث العلـمى يلقى فى تنور مسجور . وكان العقل الشرقى إذ ذاك يكشف المساتير للباحثين وينير الغياهب للسالكين .. ويبنى العلم والفلسفة والسياسة على

أساس قيم ، ويقيم أركان العدل والمساواة والحرية بين الناس أجمعين " .

وحينما هوجم **طه حسين** لأقواله فى " الشعـر الجاهلى " أنكر **طه حسين** الأمر المتعلق بالدين الإسلامى أو الطعن فيـه، ونشر أثناء التحقـيق معه مقالاً بجـريدة السياسة الأسبـوعية تحت عنوان (العلم والدين) قال فيه :

(وكل أمرئ منا يستطيع إذا فكر قليلاً أن يجد فى نفسه شخصـيتين متميزتين، إحداهما عاقلة تبحث وتحلل وتغـير اليوم مـا ذهبت إليه الأمس ، والأخرى شـاعرة تلذ وتتألم وتفـرح وتغضب وترغب فى غير ثقة ولا بحث ولا تحليل . كلتا الشخصـيتين متصلتان بمزاجنا وتكويننا ولا نستطيع أن نتخلص من إحداهما ، فما الذى يمنع أن تكون الشخـصية الأولى عاقلة باحثة ناقدة وأن تكون الشخصية الثانية مؤمنة مطمئنة طامحة إلى المثل الأعلى . وقد لاحظ وكيل النيابة غرابة هذا الفصل بقوله "**لسنا معترضين على هذه النظريةبأكـثرمما اعترض به هو على نفـسه فى مقالة أخـرى حيث ذكر بعد ذلك - سنقـول وكيف يمكن أن نجمع المتناقضين ولست أحاول جـوابا لهذا السؤال وإنما أحولك على نفسك " .**

إن عدم المحاولة على الإجـابة كما يقول **سيد البحراوى** هو أن يترك القارئ يتخيل أن المؤلف واع بما يقوله فى تناقضات وثنائيات غلبت على فكره .

لقد وقع **طه حسين** أثناء ممارسـة المنهج الذى عالج به قـضية (الشـعر الجـاهلى) فى كثـير من التناقضات فإنـه أعلن مثلاً ضرورة التخلص من كل الأهواء والعواطف ، ولكنه عـمليا لم يستطع أن يتخلـص منهـا ، ولم يستطـع أن يمارس شكلاً منهجـياً ، وفى هذا الإطار ذكر نقاده كما يقول **د. سيد البحراوى :**

"- وثق طه حـسين بداية فى كـثير من النصوص التى كـان يشك هو نفسـه فى أصحابـها بل الكثيرين مما اعتمد رواياتهم كانوا من المشكوك فيهم أصلاً .

- إنه كان يجتزئ النصوص ، أو حتى يعطى النص معنى غير معناه لخدمة فكرته .

- إن أسلوبه فى الاستدلال غير صحيح إنه يبدأ بالفرض ثم يبنى عليه فرضاً آخر ، ثم ينتهى ، بالقطع والجزم والثبوت ."

وفى هذا يقول وكيل النيابة فى قراره :

إنما هو الخطأ الذى اعتاد أن يرتكبه المؤلف فى أبحاثه حيث يبـدأ بافتراض يتخيله ثم ينتهى بأن يرتب عليه قواعد كأنهاحقائق ثابتة . كما فـعل فى أمرالاختلافات بين لغة حمير ولغة عدنان . ثم

فى مسألة إبراهيم وإسماعيل . وهجرتهمـا إلى مكة وبناء الكعبة إذ بدأ فيها بإظهار الشك ثم انتهى باليقين .

ويقول أحد الكتاب :

"ولكن طه حسيـن أصر على اتجاهه بعد أن تحول كل الـذين معه فى مخطط التغـريب منصور فهـمى ، وزكى مبـارك ، وإسماعـيل مظهر ، ومـحمد حـسين هيكل ، وبقى هو وحـده يدافع عن التغريب حتى اللحظات الأخيرة مخادعاً بأنـه يستمع إلى إذاعة القرآن - وغير ذلك مما كان يحاول أن يرسم به لنفسـه سمت علماء الإسـلام بينما ينطوى فى أعمـاقه على كراهية له عـميقة وحـقد شديد ".

نكتفى بذكر أخطاء طه حـسين فى منهجه ، ولا نذهب لنناقش وثائق أخرى تاريخـية وجدناها تصف سكوته ، ولا نقول تحـالفه وتعضيده للحـركة الصهيـونية واستيلاء اليـهود على فلسطين - وفى ذلك هاجمه العقاد وغيره .

كانت خيانة الأمـانة صيغة تكاد تكون عامة بين طبـقة كبيرة من المثقفـين الباشوات ، وللتدليل على ذلك نذكر فقط بعض فقرات اقتبست من موضوعات مختلفة .

يقـول **مـصطفى نبـيل** فى عـدد الهـلال يناير ١٩٩٧ فى مـقـاله (حـسين هيكـل بين الفكر والسياسة):

ولـم يعد أمـامه سوى القـصر بعد أن خـاصمته الإرادة الشـعبيـة ولم يتأخر عن الاعـتداء على الدستور والوصول إلى الحكم بالوسائل غير الديمقراطية .

ويبرر هيكل علاقـته وعلاقة حزبه بالقـصر " أن فاروق شاب سيجلس على العـرش عشرات السنين وسيكون عوناً للأحرار الدستوريين " .

ويواصل هيكل اعتمـاده على السراى مؤكداً على ديمقـراطية الملك ، ورغم كل ذلك لم يسلم من بطش الملك ، فعندمـا كان د. هيكل رئيسـاً لمجلس الشيوخ وتقـدم مصطفى مرعى باسـتجوابه بشأن إعانة مـستشفى المواساة ، أقـصاه الملك فاروق عن رئاسة مجلس الشـيوخ بمرسوم ملكى فى ١٧ يونية ١٩٥٠. ولـم يشفع له ما سبق وقدمه للملك .

وفى كتاب آخر :

"فلطفى السيد أستاذ الجيل الذى كان من دعـاة الديمقراطية والذى ساهم فكره فى تطور مصر السيـاسى والثقافـى ، اشترك فى كـثير من الوزارات التى عطلت الـدستور ووقـفت من الدعوات

الديمقراطية موقفاً عنيفاً مثل وزارة محمد محمود التى سُميت وزارة القبضة الحديدية ، و وزارة صدقى عام ١٩٤٦م التى حاربها الشعب للإرهاب الذى أشاعته" .

ويتهم **سلامة موسى** أدبنا وتراثنا العربى بأنه أدب خلفاء وفقهاء ، وتسلية ونوادر ونفاق ، وبعيد عن مشكلات الشعب بجانب إغراقه فى البلاغة والمحسنات .

وهذه أمثلة لبعض هؤلاء الذين احتلوا مركزاً مرموقاً فى ساحة الفكر والأدب والصحافة لا يستحقونه.

يبدو أن من المناسب هنا أن نذكر أن هؤلاء المثقفين كانت الثقافة عندهم تساوى الأدب ، ويقول **حسين** معلومة عن قراءات فى الفكر القومى ، الكتاب الرابع (القومية العربية والثقافة الأساسية) .

"إن الغالبية العظمى من النصوص قد تعاملت (ضمنياً) مع مسألة الثقافة العربية من خلال الثقافة فى المجتمع ،وبالتحديد من منظور الثقافة أدب .. ومنها محاضرة طه حسين عن الآداب والقومية العربية (١٩٥٧) والتى جاء فيها "وقد تقولون أنى لم أحدثكم إلى الآن عن الأدب والقومية العربية ، وإن كنت أنا أعتقد أننى لم أحدثكم إلا فى هذا الموضوع ، فكل ما قلته لكم منذ أن بدأت الحديث على طوله إلى الآن ينتهى إلى شىء واحد هو أن القومية العربية مدينة بوجودها وقوتها ونموها للأدب العربى . وأن القومية العربية الحديثة مدينة بنهضتها وقوتها وبهذه الآمال العراض التى تطمح إليها إلى الأدب العربى الحديث" .

مع كل ما ذكرناه فى هذا الجزء من الكتاب نقول للعلمانيين والماركسيين اتركوا أعلام الأمة يرقدون فى مثواهم الأخير بسلام وأمان فهم قد أدوا رسالتهم على أحسن ما يرام فى ظروف عصرهم الخاصة. والعالم يتقدم بوتيرة سريعة جداً لا تسمح لأحد بالنظر إلى الوراء ، ونسجل هنا أن **طه حسين** كان أديباً عظيماً ، وقدم للإسلام خدمات لا تقدر من خلال تأليفه لروائعه الخالدة : على هامش السيرة، الفتنة الكبرى ، والشيخان ، الوعد الحق ، ومرآة الإسلام ، أليس ما انتهى إليه طه حسين يبدو فى تناقض تام مع ما يدّعيه العلمانيون ويروجون له ؟!

ماذا فعل بنا السادات؟!

لقد تحول **السادات** فجأة عن الخط القومى الحلم وعن الاشتراكية إلى الانفتاح الاقتصادى ، واضطره ذلك إلى مغازلة أمريكا والسعى إلى كسب ودها ، واعتمد فى ذلك على استشارة عدد من الخبراء الاقتصاديين الأمريكيين دون أخذ رأى مستشاريه ومعاونيه ، ولعل من أشهر الأمثلة التى تذكر فى هذا الصدد علاقة **السادات بديفيد روكفلر** رئيس مجموعة بنك تشيزمنهاتن التى شهدت تطوراً ملحوظاً حتى قبل حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م ، وقبل الإعلان رسمياً عن الأخذ بسياسة الانفتاح الاقتصادى فى عام ١٩٧٤م .

ويقول **السادات** فى حديثه مع **أحمد بهاء الدين** :

"كلامك ده سمعته بالضبط من ديفيد . أصل أنا جبت ديفيد مرة من أمريكا وطلبت منه أن يبقى فى مصر وينكش فى كل الاقتصاد المصرى ، وأمرت كل الجهات فى مصر أن تضع تحت يده أية بيانات يطلبها ، وفعلاً وبعد أسبوعين تقريباً ، جاءنى ديفيد وقال لى "يا ريس اقتصادك سليم . وفيه إمكانية هائلة بس الغربال بتاعك فيه خروم واسعة لاز م تتسد" .

ويقول الدكتور **عبد المنعم القيسونى** أنه فوجئ بما أبلغه به **روكفلر** إبان اجتماعات البنك الدولى وصندوق النقد الدولى فى واشنطون فى خريف ١٩٧٤م من أن **السادات** طلب من روكفلر أن يفتح بنكاً أمريكياً فى مصر يتبع بنك تشيز منهاتن ووعده السادات بمنح جميع المزايا والإعفاءات اللازمة لتيسير مهمته ولنجاح البنك الجديد .

ويذكر **محمد حسنين هيكل** فى هذا الصدد أن أى مؤسسات مالية أمريكية خاصة سارت على نفس رغبة الوكالات الحكومية والدولية الكبرى فى استغلال الظروف السانحة فى مصر للحصول على نصيب من الفرص المالية والاقتصادية فى مصر .

ويذكر **محمد حسنين هيكل** أن رفض الدكتور **القيسونى** لفكرة إنشاء فرع تشيز منهاتن لم يؤثر على إصرار **السادات** على رأيه فى التعاون مع البنك ، فقد تم التوصل إلى صيغة وسط ، تم

بمقتضاها تكوين بنك مشترك بين هذا البنك والبنك الأهلى المصرى تحت اسم (بنك تشيز الأهلى برأسمال قدره (٥) خمسة مليون دولار ، و على الرغم من أن الأهلى كان له نصيب الأغلبية (٥١٪) من رأسمال البنك الجديد ، إلا أن إدارة البنك الجديد كانت من نصيب بنك (تشيز منهاتن) وحقق الأخير ربحا كبيرا من جراء ذلك بلغ فى السنة الأولى وحدها ٤ ملايين دولار بسبب الامتيازات التى أعطيت له - وإعفائه من قوانين بنوك القطاع العام فى مجالات الادارة والعمالة والأجور والأرباح .

وتضخمت ودائع البنك ، وبالطبع للحب الجارف الذى يكنه الكثيرون من الأشخاص والهيئات لأمريكا ، ومن المؤسف حقا أن أغلب استثماراته اتجهت إلى المشروعات الخدمية والاستهلاكية دون توجيهها للصناعة أو الزراعة ، كما وجه جزءاً كبيراً من الودائع والأرباح للاستثمار بالخارج .

ويقول **أحمد بهاء الدين** :

"كانت هناك قوى ضاغطة وجماعات مصالح يتبادل معها الرئيس السادات فتح القنوات الخلفية من أجل تحقيق سياساته وطموحاته ، وحيث التقت معه فى ذلك مصالح قوى فاعلة معينة محددة داخل أو خارج السلطة ، قد تكونت مجموعة من الصحفيين فى المصور من صالح جودت وابراهيم البعشى ، وشريف نمام ، كانت لها اتصالات مباشرة مع الرئيس، وتنقل إليه ما يدور فى دار الهلال وخاصة ما يقوم به بهاء الدين من التدخل فى المقالات التى يكتبونها بالحذف ، فقد كانت مليئة بالهجوم على عدد من زملائهم ، وتصفهم بالشيوعية ، وكذلك بالهجوم على الاتحاد السوفيتى .

ومن أهم التغيرات التى حدثت ما يراه البعض بخصوص دور الرئيس الذى تحول إلى مفهوم كبير العائلة المصرية لإضفاء الاحترام ، وماترتب على ذلك من الطاعة لهذا الأب ، والمفهوم بالطبع مفهوم غير ليبرالى ويتعارض مع المطالب المشروعة فى إعادة توزيع الثروة والسلطة ورمز للحكم التسلطى المحافظ مع ترديد نغمة أخلاق القرية التى لم تكن تعنى غير الطاعة العمياء لكبير العائلة مع التظاهر بالأبوة للجميع ، فى حين أن السيد الجديد يتخذ القرارات ضد إرادة القطاعات العريضة من الشعب مما أدى إلى عدم جنى هذه القطاعات ثمار السياسات الانفتاحية الجديدة وتشجيع الاستثمار العربى و الأجنبى .

لقد استند السادات فى سياسته الجديدة التى اتجهت إلى محاولة السيطرة على القوى الشعبية

وحركاتها المنظمة وشبه المنظمة على أجهزة الأمن ، ولم يستند فى ممارسة سلطاته إلى دوائر محورية تضم عدداً محدداً من الأفراد والأنداد أو حتى من رفاق الثورة ، كان يمكن أن يضعها فى حساباته عندما يزمع فى اتخاذ أى قرار" .

وكان **السادات** حريصاً على إصدار قراراته دون استشارة أقرب المسئولين إليه وكانت أبرز مظاهر ذلك المنطق فى أخطر قرارات السياسة الخارجية التى اتخذها . ويمكن القول هنا أن الدائرة السرية لتداول المعلومات التى يتم على أساس توافرها إصدار القرارات السياسية المصيرية داخليا وخارجيا كانت تتم بين السادات والدوائر الأجنبية . وفى هذا الصدد يروى **حسنين هيكل** ما دار حول اتفاقات **السادات** مع **كيسنجر** وزير الخارجية الأمريكية الأسبق إبان مفاوضات فك الاشتباك فى ديسمبر ١٩٧٣ على سحب كل الوحدات الثقيلة من الضفة الشرقية للقناة فيما عدا ثلاثين دبابة وستة وثلاثين مدفعاً دون أن يبلغ وزير الحربية آنذاك **محمد عبد الغنى الجمسى** أو يستشيره فى الأمر ، مما جعل الأخير يتأثر بوضوح - وحسب تعبير **هيكل** إنه اقترب من نافذة فندق كتراكت ، وأخرج من جيبه منديلاً وكان واضحاً لبقية الواقفين أن هذا الجندى المنضبط لم يتمالك دموعه وأبلغ كيسنجر بقوله: **"ما دامت هذه الأوامر فسوف تنفذ فبالنسبة لنا الأوامر هى الأوامر .**

تبرير ساذج محافظ سلبى لا يقدمه إلا موظف حكومى من أصل قروى.. فرد فى عائلة رب الأسرة الكبيرة . . وليس مسئولاً أمام الشعب والتاريخ - كان عليه أن يقاوم برفض أو يستقيل" .

وذكر الرئيس الأمريكى الأسبق **ريتشارد نيكسون** فى مذكراته ما يؤيد ذلك بقوله :

" كثيراً ما كان يتجاهل وزراءه - ويتخذ قراراته بنفسه " كما أشار السفير الأمريكى السابق بالقاهرة **هيرمان إيتلس** إلى أن **السادات** لا يظهر التسامح إزاء إبداء مساعديه ووزرائه أية معارضة لأفكاره . وبالإضافة إلى ذلك فقد أورد وزيرا الخارجية السابقان **إسماعيل فهمى ومحمد إبراهيم كامل** فى مذكراتهما وأيضاً **بطرس غالى** فى كتابه الطريق إلى القدس ما يؤيد ذلك .

ويذكر الرئيس الأمريكى السابق كارتر فى مذكراته (البحث عن الإيمان) والتى نشرها فى نوفمبر ١٩٨٢م فقد قال :

"لقد لاحظت فى كامب ديفيد أن السادات يريد أن يتخذ قرارات مصر بنفسه ، ولم يكن يحب وجود أحد من مساعديه معنا ، وكان يبدو بشكل أو بآخر غير مستريح إذا كانوا قريبين منا ".

ويقول **بطرس غالى** فى كتابه (الطريق إلى القدس) عن خطاب **تيتو** **للسادات** وموقفه ضد الصلح مع إسرائيل :

"كان خطاب تيتو شرحاً مطولاً لاقتناعه بأن إسرائيل ليست على استعداد لإبرام اتفاق للسلام الشامل مع الدول العربية ، لأنها لا تعترف بالشعب الفلسطينى وبحقه فى تقرير المصير. وقال : **إن مبادرة السادات ستؤدى إلى التمزق الداخلى للعالم العربى وإضعاف الجبهة الموحدة لحركة عدم الانحياز .. ودعا الرئيس السادات للعودة إلى التضامن العربى"** .

كما يذكر بطرس غالى فى كتابه :

"وعندما اكتسبت مزيداً من الخبرة فى وضعى الجديد عرفت أن الطريق الفعال لاكتساب المعلومات يأتى من المصادر غير الحكومية فالسادات لا يحرص على إطلاع مستشاريه على الحقائق أما زملائى فيعتبرون المعلومات مركزاً للقوة وبالتالى فهم يكنزونها".

أليس غريباً أن ينضم **بطرس غالى** إلى هؤلاء الذين ينتقدون سياسة السادات الذى لولاه ما كان وصل بطرس غالى إلى منصب الأمين العام للأمم المتحدة ، ربما يريد **بطرس غالى** أن يعترف بآثامه التى ارتكبها فى حق هذا الشعب والضمير الإنسانى ، فيقابل ربه نظيفاً نادماً على ما فعله.

كما يقول **بطرس غالى : " السادات يساند الصومال فى صراعها مع أثيوبيا لمحاربة الشيوعية** والتقارب مع أمريكا ، وايران (الشاه) تحول المساعدات التى تقدمها مصر لبلدان أفريقيا " .

ومن الأمثلة الأخرى للجوء الرئيس **السادات** إلى أسلوب القنوات الخلفية واستعانته بعناصر غير رسمية معروفة بصلاتها الوثيقة معه واتفاقها مع توجهاته . ما قام به **حسن التهامى** فى الإعداد لزيارة القدس فى ١٤ نوفمبر ١٩٧٧م ولقائه **بموسى ديان** وزير خارجية إسرائيل فى المغرب فى الأسبوع الأول من سبتمبر بترتيب من الملك **الحسن الثانى** . وعقب اتصالات قام بها الرئيس الرومانى **شاوشيسكو** ورضا بهلوى شاه إيران السابق مع قادة إسرائيل . كان **السادات** يوجه هذه الاتصالات مع الكيان الإسرائيلى فى الخارج ، ويتظاهر فى الداخل بوقوفه الصلب أمام العدو الإسرائيلى ، مما دعا **دافيد هرست** أن يكتب فى الجارديان مقالا بعنوان (السادات زبيبة فوق الجبهة، وزبيبة خارجها . وهو يعنى بذلك ادعاء السادات التقوى والإيمان داخل مصر ، أما فى خارجها) ، فهو يقوم بمحادثاته مع عدو العروبة والإسلام.

ويذكر **محمد إبراهيم كامل** وزير الخارجية إبان مفاوضات كامب ديفيد الذى قدم استقالته احتجاجاً على مسيرتها وليس على عملية السلام نفسها وإلا ما كان سافر مع **السادات** إلى أمريكا: **"أن الرئيس السادات دعاه إلى حضور اجتماع مجلس الأمن القومى عقب تعيينه وزيراً للخارجية فى ٢٤ديسمبر ١٩٧٧م لمناقشة بحث سفر الوفد المصرى برئاسته إلى القدس ، إلا أنه**

وجد السيد حسن التهامى حاضراً ، رغم عدم وجود صفة رسمية له ..»

ويشير **كامل** إلى أن **التهامى** ظل يمارس دوره غير الرسمى فى أغلب مراحل مفاوضات كامب ديفيد حتى التوقيع عليها فى واشنطون .

وأخيراً كلنا نعرف قراره غير العقلانى باعتقال كل المفكرين والسياسيين الشرفاء فى مصر على مدى الطيف السياسى كله من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ، لأنه لم يتحمل معارضة فيما يتخذه من قرارات بشأن مسيرة المفاوضات مع إسرائيل ووقفت وراءه أمريكا تؤيده لأنها رأت أن ما يفعله **السادات** فى مصلحتها ، فى حين أنها هددت بقطع معوناتها عن بولندا حينما قامت الحكومة هناك باعتقال أفراد حركة التضامن التى كانت تعارض الحكومة .

ماذا فعل بنا **السادات** ؟ لقد جعل **الجمسى** يبكى متحسراً على ضياع سيناء وبقائها رهينة لدى اسرائيل على الرغم من دعاوى تحريرها ، واضطر **محمد إبراهيم كامل** أن يقدم استقالته فى امريكا غير راض عن سياسة **السادات** فى المفاوضات ، لقد كان **السادات** فى المفاوضات يريد أن يخرج بأية اتفاقية بأى ثمن - ولقد ترك **السادات** شعباً بل أمة تترنح تحت ضربات أمريكا التى جرنا لحبالها ، هذا بخلاف ما تدفعه الأمة العربية والشعب العربى من تضحيات فى فلسطين ، وقد يقول البعض أن العرب أخطاوا حينما لم يسيروا مع **السادات** فى اتفاقية كامب ديفيد ، ونتساءل هل **إسماعيل فهمى ، ومحمد إبراهيم كامل ، ومحمد رياض** والرئيس **تيتو** كانوا مخطئين حينما اعترضوا على طريقة معالجة **السادات** للقضية الفلسطينية .

إن كل الشرفاء وقفوا أمام **السادات** يعترضون على موقفه فى مفاوضات السلام مع إسرائيل وتفريطه فى الحقوق العربية مما اضطره إلى أن يضع ١٧٠٠ مفكر وكاتب وسياسى فى معتقلات مصر - هذا العمل البشع لوحده يكفى أن نحكم على **السادات** بديكتاتوريته الغاشمة واستبداده... ولكن نرجع ونقول أنه لو كان هناك بدلاً من الألف وسبعمائة ، مائة ألف وسبعمائة، أو مليون وسبعمائة ألف . لأصبح أمر اعتقالهم صعباً .

لقد تحركت أمريكا خطوة بعد حرب أكتوبر حتى تم توقيع كامب ديفيد ولكن من يدرى أن أمريكا كانت ستضغط على إسرائيل لتسلم بحقوق الفلسطينيين - لقد تحركت أمريكا بعد غزو العراق للكويت وكان **بوش** مستعداً أن يضغط على إسرائيل حتى توافق على توقيع اتفاقية السلام مع العرب هذا نظير ما قدمه له العرب الأصدقاء من مساندة فى حربه ضد العراق لجلاء القوات العراقية عن الكويت .. ولم يتحرك **بوش** والادارة الأمريكية للضغط فى اتجاه اتفاقية سلام إلا بعد

أن غزا العراق الكويت ، ومن أجل بترول الدول العربية دخلت أمريكا المعركة ، وكان اعتمادها الأول على مساندة مصر وسوريا ، وكانت أول زيارة قام بها **هيج** وزير الخارجية الأمريكى عقب الغزو زيارة سوريا ليقنع **حافظ الأسد** ألا يربط بين غزو العراق فى الكويت وقضية فلسطين . هذا مقابل وعد قدمه **هيج** بأنه بعد انتهاء معركة غزو العراق للكويت سوف تضغط أمريكا بكل قواها لخروج إسرائيل من الجولان وتوقيع اتفاقية سلام بين العرب وإسرائيل - ولكن لا تأتى الرياح بما تشتهى السفن . ويسقط **بوش** - ويأتى **كليتون** لتبدأ من جديد حلقة من حلقات الغطرسة الأمريكية ومساندتها لإسرائيل وإذلال العرب.

ويبدو الآن أننا فى حاجة إلى هزة كبرى كما حدث فى أكتوبر ١٩٧٣م ، أو بعد غزو العراق للكويت حتى تتحرك أمريكا لتضغط على إسرائيل ، هل يمكن أن تصل حكمة القيادة المصرية إلى أن تحرك الأمة العربية لإحداث هذه الهزة التى يتطلبها الموقف الآن ؟! أشك كثيراً فى ذلك .

ولا ننسى هنا أن نقول أن **محمد عبد الغنى الجمسى** ذكر فى مقابلة فى أحد محطات التلفزيون العربية ، أنه حينما قرأ فى مذكرات **حافظ إسماعيل** أن **السادات** أبلغ **كيسنجر** فى السابع من أكتوبر ١٩٧٣م أى بعد بداية الحرب بيوم واحد بأن القوات المصرية لن تتعمق فى الهجوم وستقف عند حافة القناة . يقول **الجمسى** :

"**إنه غضب غضباً شديداً حينما علم بذلك فما كان ينبغى للسادات أن يفعل ذلك**" . ويبدو أن السادات قد أجهض مكاسب حرب أكتوبر منذ أيامها الأولى .

وفى أهرام ١٥ أكتوبر ١٩٩٨ م تقول **سكينة فؤاد** :

"**أمس وفى ظلال احتفالاتنا بالنصر استقبلنا العام الثانى عشر مع قيادة الرئيس مبارك رمزاً لقيادة قيم ونصر أكتوبر لمصر ، ولقد كشفت الندوة الاستراتيجية التى أقامتها الشئون المعنوية بالقوات المسلحة عن مخزون الكفاءات البشرية الهائل فى جميع المجالات وكشفت الدراسات والأبحاث العلمية والموضوعية الأمينة مدى احتياج مجالات كثيرة للعلاج والإصلاح السياسى والاجتماعى والإدارى لتفجير القوى المصرية الكامنة ودعم الطموحات والمشروعات الكبيرة المستهدفة ومواجهة التحديات .. وليواصل القائد رفع السلبيات عن صدر مصر لتزداد قدرتها على التحليق بنصرها ونسرها الأكتوبرى ، وليجنى المصريون البناءون ملح الحياة وحفظتها ثمار الإصلاحات والمشروعات جزاء عدلاً لما بذلوه واحتملوه .. دعوة الرئيس الدائمة وجوهر خطابه السياسى ...**

إلى هنا والأمر طيب جداً ، ولكن ما يدعو **سكينة فؤاد** إلى أن تضيف فقرة أخرى هى :

"تهنئة لك بشعبك ولنا بك مصرياً وقائداً عزيزاً وعظيمًا" .

لا أود أن أخوض فى شرح التناقض بين الفقرتين ، ولكن أتساءل أية ثقافة هذه التى تفرض على كتابها ومواطنيها أن يبتهلوا قيادتهم بهذه العبارات الضخمة الرنانة ، إنها حقيقة ثقافة التخلف ، فلا يمكن أن نرى مثل هذه الابتهالات فى صحافة الدول المتقدمة .

قد يكون ما كتبته سكينة فؤاد بعيداً عن الموضوع الذى نتناوله فى هذا الجزء من الكتاب ، ولكن دفعنى إلى ذكره - رسالة أخرى تجىء من مواطن باسم دكتور ...... فى نفس العدد ، ماذا يقول الدكتور أستاذ الجامعة (كما أظن) فيما يتعلق برسالة السادات إلى كيسنجر ؟

وضع المواطن نفسه أعلى درجة وعلماً من محمد حسنين هيكل ومن محمد عبد الغنى الجمسى ، ليس هناك ما يمنع من فعل ذلك ، ولكن أن يصف السادات بأنه داهية لا يجود الزمان بمثله . هذا كثير ، لا يتفق مع المنطق العلمى لأستاذ جامعى .

هكذا نتحيز للرؤساء الأموات والأحياء وبنفس أسلوب النفاق والانتهازية ، لست ضد التحيز لكل قائد شريف وعظيم فى هذا البلد ، ولكن بموضوعية أننا لا ننعت الإله فى حياتنا العامة ولا فى صحفنا بالقدر الذى نقدس به رؤساءنا .. وهل هذه عادة نكتسبها من عهد الفراعنة ، إذاً فإننا لا نتغير . ونحن فى حاجة دائماً إلى فرعون لا يترك الحكم إلا إذا حل القضاء إما بالقتل أو بالموت سمة للتخلف ، فأعظم قيادات العالم أزاحتها الشعوب المتقدمة حينما أرادت : ديجول ، تاتشر ، بوش ، وآخرون كثيرون .. قالت لهم شعوبهم "متشكرين ، نحن نريد التغيير" .

ومعظم شعوب العالم المتقدم لا يتركون حكامهم يحكمون حتى يتقدم بهم السن ويفقدون أبصارهم وأسماعهم ويصبحوا فى حالة لا تسمح لهم باتخاذ القرار السليم ، وعلى كل حال إن وتيرة الحياة الآن هى التغيير السريع ، يا من تتكلمون عن ما بعد الحداثة .

ويحاول ترزية الدفاع عن السلطة تفسير رسالة السادات إلى كيسنجر بطريقتهم الخاصة ، فيقولون أن السادات كان يعنى بالعمق ، عمق إسرائيل ، وليس عمق سيناء ، ونسوا أن المسألة برمتها كانت قد نوقشت إبان حرب أكتوبر ، وقيل وقتئذ أن الخلاف بين الشاذلى وأنور السادات ، نتقدم إلى الممرات أم نبقى لعمق عشرة كيلو مترات على حافة القناة ولو أن كلمة العمق كانت تعنى عمق إسرائيل ، فما الذى جعل الجمسى يستاء من الرسالة ...؟!

وأخيراً .. هل يعنى قرار دول إعلان دمشق بأن صدام حسين هو المسئول عن الضرب الأمريكى للعراق .. الدعوة للحل الدبلوماسى أم دعوة أمريكا لضرب العراق .. حسب ما أعلنه كلينتون فى مؤتمره الصحفى وأذيع على شاشات التلفزيون ، أن دول إعلان دمشق تبارك ضرب

العراق .. وبعد ذلك فليفسر من يفسر من أعوان السلطة وأبواقها كما يشاء .. لو أرادت دول الإعلان أن لا تضرب أمريكا العراق ، لطالبتها برفع الحصار عن العراق ، كما فعلت المعارضة المصرية بكامل هيئتها حينما بعثت برسالة إلى سفير الولايات المتحدة بالقاهرة **دانيال كيرتزر** (الأهرام ١٨ نوفمبر١٩٩٨) تطلب فيها رفع الحصار عن العراق . بعد أن التزم العراق بقرارات الأمم المتحدة ، وفتش عن كل شبر على أرضه ، المسألة شديدة الوضوح ، ولكنهم مازالوا يستهينون بعقول الشعب العربى .. يؤيدهم المثقفون .

وماذا يعنى أيها المثقفون المحترمون أن ترفع أمريكا الحظر عن الهند وباكستان بعد أن دام فقط لمدة ستة أشهر ويستمر الحظر على العراق لمدة ثمان سنوات . إن المعنى الوحيد ليس إزاحة النظام العراقى ، بل إذلال العرب وإهانتهم ، والإبقاء عليهم فى موقف الضعف فى مواجهة إسرائيل والعالم ، والكيل بمكيالين لا ينطبق إلا فى حالة الدول العربية فقط التى يصمت فيها المثقفون عن الكلام فى مواجهة الطغيان الأمريكى . وابتزاز أمريكا لحكام الخليج ، ونهب موارد النفط ، الذى انخفضت أسعاره بدرجة مخجلة ، لأن حكام الخليج يضخون كمياته بدون حساب .

مسيرة القرن الضائع فى الفكر العربى

ربما لا يشعر الناس بأزمة النظام إذا عزلوا أنفسهم عن المتغيرات المحيطة بهم ، ولكن فى عصرنا الحاضر لا يمكن لأى نظام أن يعيش فى عزلة عن الأنظمة المحيطة ، وهو يتأثر باستمرار بالتيارات الخارجية . وفى عالم يتغير بسرعة كبيرة لا يمكن للناس أن يستقروا وهم قلقون تجاه ما يشعرون به من مخاوف حول المستقبل . وفى الدول المتقدمة يشعرون بأنهم فى حلبة صراع محموم . ويستحوذ القلق على الشعوب المتقدمة ، وهى تخشى التخلف وراء ركب التقدم الذى يسير بوتيرة سريعة جداً . وتعتقد الدول المتقدمة جميعها وبدون استثناء أن رقيها وتقدمها يعتمدان على نظام تعليمى ممتاز وخاصة فى مجال العلوم والتقنية ، وأن أسباب الأزمة تكمن فى تخلف النظم التعليمية والمؤسسات البحثية .

والأمر لا يختلف كثيراً فى الدول النامية . ويزيد من حدة الأزمة ، الصراع النفسى الذى يعانيه سكان الدول النامية حينما يشعرون بالعجز عن سد الفجوة بين بلادهم وبين الدول المتقدمة . وأن هذه الفجوة آخذة فى الاتساع . وأن جهودهم لتحقيق التنمية وحماية المجتمعات ضد استغلال القوى المهيمنة تفشل فى الوصول إلى أهدافها . وذلك بالطبع فى غياب النظرة الشاملة للمشكلة والمحاولات العقيمة لإصلاحها .

إن محاولات الإصلاح كان يجب أن تتصدى لإنشاء كيان علمى تقنى يرتكز على تعليم قوى ومناخ ثقافى يساعد على تنمية التفكير العلمى والبحث العلمى فى ضوء دراسة واعية ومتأنية لإشعال روح الابتكار والإبداع فى المجتمع ، واستيعاب مفهوم النمو وطبيعة النهضة والتطور .

إلا أن ما حدث منذ بداية عصر النهضة العربية ، التى قد نختلف حول نشأتها ، أن المجتمعات العربية حادت عن الطريق المفروض لتقوية التعليم وخلق المناخ الثقافى المطلوب .

ولقد أعانتنا كثيراً الندوة الكبيرة التى عقدتها مجلة عالم الفكر بمناسبة مرور ٢٥ عاماً على إنشائها فى تحليل واقع الثقافة العربية فى الخمسين عاماً الماضية . والواقع قد يمتد إلى أبعد من

ذلك، إلى قرن من الزمان يمكن أن نطلق عليه دون الوقوع فى الخطأ ، القرن الضائع فى مسار الثقافة العربية الحديثة التى تمتد على مدى قرنين . كيف حدث أن ضاع القرن هباء ؟

هذا ما سوف تساعدنا على الإجابة عنه أبحاث الندوة .

الاتجاه السلفى : البحث الأول فى الندوة :

لقد طرح **حيدر إبراهيم** فى بحثه بعنوان (الاتجاه السلفى) سؤاله :

"هل هى أسلمة الحداثة أم تحديث الأسلمة أم الاثنين معاً وفقاً لكل ظرف ؟ ولا يختلف هذا عن السؤال المطروح حول (الأصالة والمعاصرة) وكيفية التوفيق بينهما ، وهو هنا بالطبع لم يأت بجديد وراح الباحث يردد سلسلة من الأسئلة : أين موقع السلفيات وسط هذه التحولات السريعة والكثيفة ، وكيف سنواجه بداية قرن شهد القرن السابق له مستجدات ومتغيرات تساوى ما عرفته البشرية منذ فجر التاريخ ، فالقرن الحادى والعشرون سيمثل قمة فى النضج الإنسانى على الأقل فى مستوى التقنية والعلم والعقلانية والتنظيم ، فهل ستظل السلفيات تصر على أنها تملك التقدم الروحى بلا إنجازات مادية، وهل السلفيات قادرة على أن تساهم روحياً وخلقياً فى حضارة تتهمها بالمادية الخاوية ، وهل يمكن أصلاً الفصل بين الروحى والمادى بحيث يتقدم الإنسان مادياً بلا روح. وهل تبقى الروح فوق المادة ، هذه تحديات حقيقية تواجه السلفيات وتنتظر الإجابة الصحيحة" .

بداية ، يشهد التاريخ أن النهضة الحديثة بدأت مع تولى **محمد على** حكم مصر ، وربما ترجع بداية عصر النهضة إلى الوراء قليلاً إلى فترة الحملة الفرنسية ، وربما إلى قبل ذلك مع ظهور شيخ متنور، هو **حسن العطار** ، ومهما تكن البداية ، فإنه معها تحمس **رفاعة الطهطاوى** رجل الدين ، الذى أرسله **محمد على** مع البعثة المصرية للخارج ليكون مشرفاً لها وإماماً لطلبتها ، للعلم الغربى. وعند عودته راح يشيع روح العلم ، وكان له الفضل الأكبر فى حركة الترجمة التى بدأت فى عصر **محمد على** ، بيد أنه لم يتزحزح قيد أنملة عن التقاليد والأصول الفكرية التى مبعثها الإسلام ووعاؤها العربية ، وعلى الدرب سار من بعده **جمال الأفغانى ومحمد عبده** يدعون للعلم والتقدم .

ومع رفاعة الطهطاوى السلفى كانت البداية الكبيرة للتقدم العلمى العربى فى الفترة الحديثة ومع جمال الأفغانى ومحمد عبده ، كانت الدعوة لإحياء الروح القومية والوطنية ومحاربة الاستعمار والنهوض بالعلم واقتباسه من الغرب .

وفى بداية القرن الحالى وبعد وفاة محمد عبده بقليل ، ظهر رواد آخرون ولكن من نوعية

مختلفة ، قد تختلف قليلاً أو كثيراً عن الرواد الأوائل ، إلا أن المهم أنهم سيطروا على الساحة الثقافية وفرضوا عليها أفكارهم . ومنذ بداية القرن وربما حتى الأربعينيات سيطر الفكر الليبرالى الجديد وتوجهت الأمور حسب هواه وأسفر الجهد عن صدور دستور ١٩٢٣ ... إلا أنه وفى ظل سيطرة هذا الفكر ساءت الأمور وتدهورت أحوال الأمة تدهوراً كبيراً مما دفع بالجيش الذى أصابه ما أصابه فى حرب فلسطين أن يتقدم للاستيلاء على السلطة (قد يكون تحليلنا لما حدث فى مصر وهو لا يختلف كثيراً عما حدث فى الدول العربية الأخرى بوجه عام) .

وتبدأ فترة أخرى فى منتصف القرن يمسك فيها الضباط الأحرار بزمام الحكم ، ويعلنون بعد فترة وجيزة من توليهم الحكم القوانين الاشتراكية . ثم يتعاونون مع الاشتراكيين لتدعيم التطبيق الاشتراكى الذى حلموا به .

هذا وحتى الآن لم يصل التيار الإسلامى السلفى إلى سدة الحكم ، وهو مازال لا يسيطر على الساحة الثقافية ، لا فى الإعلام ، ولا فى التعليم ، ولا فى أى جانب آخر ، وقد يكون له بعض التجمعات ، ولكنها لا تساوى شيئاً بجانب خمسة عشر ألف جمعية مدنية المفروض أنها تعمل فى مصر ، وأحزاب قد تصل إلى العشرة ليس من بينها حزب دينى واحد . وحتى لو كان لحزب أو أكثر توجهات دينية ، فهو لا يمثل شيئاً بجانب الأغلبية البرلمانية التى يسيطر عليها الحزب الحاكم .

وفى ظل هذا الفكر الذى يسيطر على الأمة منذ بداية القرن ، لم ندخل حقيقة القرن العشرين ، فنحن لم نفجر الذرة ، ولم نصعد إلى الفضاء ، ولم نصنع الحاسب الآلى ، ولم نجر الأبحاث فى الهندسة الوراثية ولا فى الطاقة الشمسية ولا أى بحث من بحوث العلوم الكبيرة المتقدمة .

إذن التحديات التى طرحها الباحث كان من باب أولى أن يطرحها على أصحاب المذاهب الأخرى المسيطرة لا على السلفيين . لا اعتراض على أن يناقش الاتجاه السلفى ، ولكن ليس من المنطق أن يجرنا إلى افتراض خاطئ مفاده أن السلفيين يمكن أن يصلوا إلى سدة الحكم وبالتالى يجب أن يطرح عليهم السؤال عن ماذا سيفعلون أمام تحديات القرن الحادى والعشرين ، وبالتالى نضيع الوقت فى قضية خاسرة .

وبما أن السؤال عن التحديات غير وارد ، دعنا نناقش الفكر السلفى كفكر مطروح على الساحة هل المناقشة تستحق كل هذه التعقيدات ، يقول الكاتب :

"يحاول الفكر السلفى بمختلف اتجاهاته وتياراته التعبير عن موقف الدين كنصوص أو نص مقدس ومن الواقع وتحولات التاريخ والحياة ، فالسلفية هى فى الأساس فكر أزمة بسبب محاولة

التوفيق بين المثال والواقع وبين تأكيد التـراث ومواجهة الآخر ، وبين الزمن (النسبى) وبين الأزلى (المطلق) . فـهى محـاولة للتكيف ، ولكن فـى نفس الوقت ترتكز على فـرضيـة متـعـالية بسـبب امتلاكها حقيقة كاملة ونهائية - على تقلبات الحياة والمجتمع التى تقتضى التراجعات والتنازلات".

ويستشهد **حيدر** بأقوال كاتب أجنبى هو **جيرتز** حين يطرح ما يعتبره **السؤال المهم الذى يواجه الاجتمـاعى والأنثروبولوجى فى حالة احتكاك العقـيدة والواقع . كيف سلك أصحاب الحسـاسية الدينية عنـدما تبدأ عـقيدتهم فى التـآكل وتضعف التـقاليد ؟ يرد بأنهـم قد يفقـدون الحساسـية أو تحـويلها إلى حـمى أيديولوجـية أو ينبتـون عقيـدة مسـتوردة أو التـحـول بقلق إلى دواخلهم أو يتمـسكون أكثر بالتـقاليد البـالية . أو يحاولـون تفعيل هذه التـقاليد بطريقـة أخرى ، أو يقسـمون أنفسهم إلى نصفين ، واحد مادى فى الحـاضر وآخر روحى فى الماضى ، أو بالتعبير عن تدينهم فى شكل علمـانى . ويفـشل قليلون فى رؤية عـالمهم وهو ينهار أو يـتحـرك . وتشمل السـلفيـة على عناصـر من أغلب هذه المواقف بالذات ، الرجـوع إلى التقـاليد ومـحـاولة إحيـائها ، وهذا يقـسم الإنسان بين عالمين .**

هل هذه الكلمات التى اقـتبسـها الكاتب توحى بتحليل عـلمى منطقى للظاهرة . أم أنها تعتـبر إطناباً مملاً . وعلى كل حال إذا كـانت تجد رضى عند علمـاء الاجتماع وكـبار المثقـفين النظريين ، فإنها لم تدفع خطوة إلى الأمام فى فهم السلفية .

ينعت حيـدر التيـار الإسلامى بأكـمله ، الجامـدين فيه والمجـددين بالسلفـية . وعند **حيدر** كل المؤمنين سلفيون ، **فالإسـلام يقدمه المؤمنون كـدين كامل حسب الآية "اليـوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعـمتـى .. ..الآية" والإسلام دين شـامل لذلك لا يجـد المؤمن الحقـيقى إجـابات قـاطعـة لأسئلـة الواقع المتـجدد إلا بالرجـوع إلى القـرآن الكريم والسـنة المطهـرة . "وأنزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء وهدى ورحمة .. الآية"** . عن أى مؤمن يتكلم الكاتب ، عن المؤمن الفقيه رجل الدين ، أم عن المؤمن الطبيب ، أو المهندس ، أو العالم فى الطبيعة والكيمياء والأحياء . من المحتمل أنه لم يقرأ عن "**عبد السلام**" العالم المسلم الذى حصل عـلى جائزة نوبل والذى كان من أشد الدعاة إخلاصاً للإسلام والتمسك بتعاليمه ونصوصه . وماذا عن "**على مصطفى مشرفة**" رائد العلم المصـرى وهو يتحـدث عن مـاضى العلم المشـرق فى تاريخ أمتنا فـيلفت النظر إلى تقـريب الحكام والأمراء للعلماء فى العصر الأمـوى والعصر العباسى . ويقول **مشرفة** لا شك أن المصريين القدماء قاموا بدور هام فى تاريخ العلوم منذ فجـر التاريخ حتى نهاية العصر الإسلامى المزدهر أى إلى نحو القرن العاشر أو الحادى عشر الميلادى .

مشرفة هذا الذى يدعونا إلى دراسة الماضى بما فى ذلك من سلفية ، يحاول أن يرسم للمستقبل سياسة علمية لمصر ، ويحدثنا عن المقاييس التى يقاس بها تقدم العلم وبأنها بعيدة كل البعد عن أن تكون محلية ، فالعلم يقاس بمستوى عالمى لا يختلف فى الصين عنه فى الهند أو أمريكا .

وماذا عن **أحمد زويل** العالم المصرى الأمريكى الذى يتفجر إيماناً وعشقاً للتاريخ المصرى . والذى أثار سخط التنويريين بزيارته لضريح أحد أولياء الصالحين .

والكلام فى عمومه يبدو كأنه يأتى من كاتب متعصب متحيز ينكر الدين ، لا ينقد ، بل يهاجم بدون أن يعطى لنفسه فرصة للنظر فى إيجابيات الثقافات الأصيلة ، ألم يفكر **حيدر** فى أن وراء النهضة فى اليابان والصين والنمور الآسيوية ، ثقافات لها جذورها التى يتمسك بها أهل البلاد ، وأنهم لم يندفعوا منقلبين عليها متخذين من ثقافة الغرب زاداً لهم ، وربما يكون **حيدر** قد كتب مقالته للندوة قبل أن تقوم الهند وباكستان بالتجارب النووية والإعلان عنها . لم يقف التعصب الهندوسى وأيديولوجية جماعات السيخ المتطرفة فى الهند ضد تحقيق هذا الإنجاز العلمى الكبير ، كما لم تحل الأصولية الإسلامية فى باكستان دون وقوعه .

ويقول **إسماعيل الشطى** فى تعليقه **"أن ما جاء فى مقالة حيدر يبعد عن النقد ، فلا يتعدى أن يكون خطاباً حماسياً ضد خصم سياسى"** . ونحن نقول يبدو أننا نرفض الآخر الأجنبى والمحلى ، وبالتالى فإننا نساهم جميعاً فى تمزيق أواصر المجتمع باعثين فيه أبشع أوجه الشقاق والصراع . ويبدو أن المعتدى هنا على الديمقراطية والحوار البناء ، التيار غير السلفى .. أى تيار آخر ..

ولن أتناول هنا ما جاء فى تعقيب **إسماعيل الشطى** فهو من التيار الإسلامى ، ومن ثم فهو قد يكون متحيزاً لفكر التيار . ولكننا نتفق معه تماماً حينما يقول معبراً عن واقع الثقافة العربية المريضة الفاشلة :

"من كان منكم بلا خطيئة فليقذفهم بحجر ، إن التيارات العربية كلها بلا استثناء متهمة بنفس التهم التى تدفع فى وجوه الإسلاميين اليوم . لقد عاش العالم نصف القرن الأخير تحت أنظمة تتبنى القومية والماركسية والاشتراكية أو الليبرالية فماذا فعلت بالعالم العربى ؟ أليست هى المسئولة اليوم عن تخلفه وترديه ، أى تلك التيارات كان مؤمناً بالديمقراطية ومارسها بالفعل . وأى تلك التيارات قبل التعددية ولم يزج منافسيه من التيارات الأخرى داخل المعتقلات والسجون . من سيّس الجيوش العربية ووجهّها للعبة الانقلابات السياسية وفرض ظاهرة العسكرتارية بدلاً من الديمقراطية . أى تيار عربى احترم حقوق الإنسان وكرس الحريات العامة . وهل تذكرون سجل

المفكرين والأدباء والصحفيين والفنانين من كافة الاتجاهات الذين مجدوا الاستعباد وهتفوا لسحق معارضيه مطالبين بتجريدهم من حقوقهم الآدمية ، هل تذكرون مفردات الاتهام والإدانة كالخونة وعملاء الرجعية والاستعمار . ثم ماذا قدمت لنا التيارات الأخرى سوى الشعارات الجوفاء تماماً كما يفعل الكثير من الإسلاميين اليوم ؟؟

الفكر الليبرالى :

وتأكيداً لكلام **الشطى** عن خيبة التيارات الفكرية العربية المختلفة يأتى **علىّ الدين هلال** لينقد الليبرالية العربية ، بعد أن يقدم لنا مقدمة مطولة عن الفكر الليبرالى ونشأته فى الغرب ، ودوره فى تقدم الأمم . ويُرجع **علىّ الدين هلال** تعثر الفكر الليبرالى العربى إلى عدد من المشاكل ارتبطت بنشأته :

أولها : غياب نسق الثقافة السياسية ونمط المعتقدات المناسب ، أدى إلى عدم الاتفاق بين المفاهيم الليبرالية وعدد من القيم السائدة فى البلاد العربية . ومن ذلك المشكلة المتعلقة بطبيعة الانتماء السياسى وقضية الهوية (من أنا ؟ ومن نحن؟) وهل يكون الانتماء للأمة بمفهومها الإسلامى ، أم لوحدة وطنية قومية تتمثل فى الشعب أو الأمة بمعناها الحديث .

ولم يكن ما يذكره **علىّ الدين هلال** العنصر المسيطر لانتصار الليبرالية أو إخفاقها . قد تكون هناك أفكار كبار المفكرين الإسلاميين سواء الشيخ **رشيد رضا** ، **محمد عبده** ، أو **الأفغانى** وحتى **حسن البنا وسيد قطب** . ولكن تلك الأفكار لم تكن بالقوة التى تضغط على التيار الليبرالى وتحد من تفوقه . فقد دفع هذا التيار كما قلنا بإعلان دستور ٢٣ وإحياء الحياة النيابية فى مصر ، ومع ذلك ماذا يحدث ؟ .

يقول **علىّ الدين هلال** : **"سقطت نظم الديمقراطية فى أيدى طبقة كبار الملاك الزراعيين التى حصدت ثمار الاستقلال ، وشكّلت أساس النخب الحاكمة التى قادت الحياة السياسية العربية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية"** .

والعجيب فى الأمر أن الدكتور **علىّ الدين هلال** يبشر بازدهار الليبرالية فى الوطن العربى ، بل فى العالم أجمع . وذلك بعد سقوط الحكم الشمولى فى الدول الاشتراكية ونهاية الحرب الباردة . ولكن منى **مكرم عبيد** ترد عليه فتقول :

"فى الواقع أن غياب الديمقراطية فى العالم العربى غياب مضاعف ، فهى غائبة على مستوى الفكر نفسه ، مستوى الثقافة السياسية السائدة فى المجتمع ، فهناك نخب مختلفة تخاف كلها

الديمقـراطية أو تريد تأجيلهـا ، وحتى التيار الليـبرالى مثـلاً لا يعبر بصراحـة أو بوضوح عن الميل لتأجيل الديمقراطية إذا كانت تعـنى حكم الأغلبية لأنه يدرك أن الأغلبية ليست له، بل هى للطرف الآخر المنافس له ، الطرف السلفى على الخصوص" .

تضع **منى مكرم عبيد** أصبعها حقيقة على أزمة العقل العربى ، وهى أزمة أخلاقية فى الأساس، تقول "**إن الديمقراطية عنده تفقد معناها ووظيفتـها ، إذا لم تكن تعنى حكم النخبة الليبرالية حاملة لواء الحداثة أو التحـديث . إن هذه النخب تخاف الديمقراطيـة لأن علاقتها بجـسم المجتمع لا تمر عبر مؤسسات من نوع مؤسسات المجـتمع المدنى ، بل عبر علاقات أخرى من نوع علاقات الولاء والرشوة الصريحة والضمنية ، والعلاقات العائلية والقبلية والطائفية" .**

لقـد تحالفت الليـبراليـة كما يـقول **فؤاد زكـريا** مع الأقليـات الرجعـية . أى أن ما حـصل أن المجمـوعة التى كـونها **لطفى السـيد وهيكل** .. إلخ كوّنوا حـزب الأحرار الدسـتوريين . وهؤلاء كانت وظيفتهم الأساسية مناوءة حزب الأغلبية الذى يعبر عن الإنسان البسيط أو رجل الشارع أى الوفد. وكان الملك الطاغـية الجبار يستعـين بهم باستمرار من أجل ضـرب حـزب الأغلبية ، أى من أجل ضرب الديقراطية أو الليبرالية الحقيقية .

وهكذا حينما نتكلم عن الماضى تظهـر عيوب التيارات المختلفة ولكن عيـوب التيارات الحالية تختفى فيمـا عدا عيوب التيار الإسلامى الذى ينال النصيب الأكبـر من الهجوم ، ذلك لأن الساحة الثقافيـة والسياسية يسيطـر عليها العلمانيون والماركسـيون أعداء التيار وليتـهم يسيطرون لمصلحة التنوير ، فهم يسيرون على درب أسلافهم يضربون الديمقرطية ويناصرون نظم الحكم الشمولية .

الفكر الوحدوى :

كان من المفروض أن يتصل الفكر الوحدوى بالفكر السلفى ، فكلاهما يعبر عن مفهوم الأمة - ولكن جاء الكلام عن الليبرالية اعتراضـاً ، وذلك بقصد إيضاح أن الفكر الليبرالى هو الذى سيطر منذ بداية النهـضـة ومازال ، وإنـه لا يختلف أبداً عـن الفكر السلفى فى تعـصـبه للذات وضـرب الديمقراطية .

من الغريب أن يتكلم "**على حرب**" عن العقل الوحدوى ، من يعـترف بأنه ليس من أصحاب الفكر القومـى ، هذا الذى يقول "**إنما أنا عـامل فى ميـدان الفكر على العمـوم ، تستـوى فى ذلك عندى اتجاهاته ومجالاته أكانت عربية أم غير عربية" . إذا لم تكن العروبة فى وجدان الكاتب فماذا** يجـمعـه بالعرب الآخـرين ، ماذا يجـمعـه إذا كان لبنانيـاً مع المصرى أو السـعودى أو اليـمنى أو

السورى ، وأى مصلحة مشتركة تجمع المشاركين فى الندوة . ثم هل يستطيع الكاتب أن يقول لنا لماذا هبت الشعوب العربية لمناصرة الشعب الفلسطينى . أسئلة لا يجاب عليها من منطلق الكلام الفلسفى المتعالى ، كلمات مثل الوهم الما ورائى ، والمنطق الاختزالى ، والتعلق الخرافى ، والنزع الصوفى ، والوعى الاستلابى والأسلوب الدغمائى ، وأنظمة كولونيالية ، والواقع المحايث ، والأنثولوجى ، والثنوية واللا ماهوى .

بعد قراءة هذه المصطلحات يظل الكثيرون يعارضون فى وجود نخب ثقافية منعزلة عن الجماهير ؟ مصطلحات قد لا يفهمها الكثيرون من المشاركين فى الندوة ، فكيف يفهمها العامل فى مصر ، أو الفلاح فى الجزائر أو التاجر فى اليمن .

والغريب أيضاً أنه يأخذ على الفكر الوحدوى ، أو الفكر القومى أن بعض القوميين يستبشرون ويبتهجون عندما يتغلب بلد عربى على آخر أو تجتاح دولة عربية الأخرى ، ويتجاهل عن عمد موقف الدول العربية والأغلبية الساحقة من القوميين مع الكويت ضد الغزو العراقى .

ونتساءل هل هنا المكان مناسب لنناقش "إعلان دمشق" أم نضم هذا الموضوع إلى قائمة المسكوت عنه فى الندوة .؟

يقول الكاتب أن المماهاة الوحدوية أنتجت أسطورة الفرد البطل المخلص الذى يفكر ويقرر عن الكل ، وكلنا نعلم أن أسطورة الفرد البطل ليست مرتبطة بالاتجاه القومى أو الوحدوى ، بل هى صفة متأصلة فى البلاد النامية وبالذات فى البلاد العربية . أين البلد العربى الذى ليس به بطل يفكر ويقرر عن الكل ؟ ثم إن الاتجاه غير الوحدوى الذى انتهجه السادات بعد حرب أكتوبر ومحاولته الانفراد بوضع الحل النهائى لأزمة الشرق الأوسط مع إسرائيل ، كان قرار فرد يفكر ويقرر عن الكل .

للأسف لم يحاول الباحث أن يناقش الاتجاه الوحدوى كضرورة فى عصر العولمة ، ربما يكون الكاتب من أكثر المتحمسين للعولمة ، ولكنه فى تناقض غريب ، يرفض توحيد جزء من العالم . وذلك لأن العولمة فى نظره تعنى اللا قومية ، اللا دولة ، اللا دين ، إنما وحدة البلاد العربية فهى تقوم على أساس الفكر القومى قبل كل شىء ، فهذا ما تفهمه الجماهير العربية ، ولكن الفكر النخبوى يتجاهل هذه الأخوة الطبيعية المغروسة والموروثة فى قلب الشعوب العربية لمصلحة فلسفات وأيديولوجيات ، من المحتمل أن تكون قد انهارت تماماً فى الغرب ، فالاتحاد السوفيتى تفكك بناء على بروز النعرات القومية بشدة ، والاتحاد الأوروبى يتكون فى ظل شعور قومى جديد

يتبلور ولكنه مبنى على دوافع اقتصادية وحياتية . إذاً أى فكر هذا الذى يتحدث عنه الكاتب ؟ .. هذا الفكر الذى يعبر عن أيديولوجيات وفلسفات مضى زمانها ، ولن يظل المواطن العربى يجره مدّعو الثقافة إلى معارك مفتعلة لن يخرج أحد منها منتصراً فلا الفكر الإسلامى سوف يستطيع أن يناهض الليبرالية بالمعنى الديمقراطى ، ولا الليبراليون سوف يلغون الدين ويفرضون قوانينهم العلمانية . وسوف تتكشف سريعاً هذه اللعبة التى تمارسها شركة المثقفين المتحدة . هؤلاء القوم الذين يتنقلون من مؤتمر إلى مؤتمر ومن ندوة إلى أخرى يكررون نفس الكلام فكراً ، لا ممارسة ، قولاً لا عملاً .

وتحدث الكاتب عن اتجاه بسماركى فى الفكر القومى ، وربما أيده فى ذلك بعض المعقبين . وهو بذلك يضيف صفات بشعة للاتجاه الوحدوى بغرض التنفير منه ، فهو فى قرارة نفسه ضد أى اتجاه عربى ، والمؤسف كيف يشارك بصفته مفكراً عربياً فى ندوات تضم مشاركين تجمعهم وحدة ما. قد تكون وحدة اللغة أو وحدة الآمال والآلام ، أو وحدة المكان ، أين البسماركية فى الفكر الوحدوى حينما قام الانقلاب فى سوريا ضد الوحدة عام ١٩٦١ ، أعطى جمال عبد الناصر أوامره بانسحاب الجيش المصرى ، وقال كلمته المعروفة : **"أعان الله سوريا على أمورها"**. أما ما فعله صدام حسين فهو يدخل تحت ظاهرة الإرهاب ، وربما بتدبير من الولايات المتحدة . فظاهرة الإرهاب عالمية تقودها الولايات المتحدة ، وتدخل الولايات المتحدة فى كثير من الدول لتغيير النظم فيها وحتى الحكومات التى انتخبت ديمقراطياً معروفة ، ومؤامرتها لاغتيال زعماء الحركات المناهضة لسيطرتها معروفة أيضاً . وماذا تفعل إسرائيل الآن فى فلسطين ؟ وكيف يكون الرد عليها. وهذه قضية أخرى من القضايا المسكوت عنها فى الندوة ، ولم يكلمنا **"على حرب"** عن مشكلة فلسطين من منظور فكره العالمى ، فهى ليست داخل فكره ، وليذهب الفلسطينيون وكل العرب إلى الجحيم .

الفكر اليسارى :

ثم نأتى إلى الفكر اليسارى ، فيقول **"شوقى جلال"** :

"إن الأحزاب الشيوعية والماركسية العربية لم تقدم إسهامات متميزة فى حقل إعادة إنتاج الماركسية بصورة مستقلة ، وذلك يرجع إلى الارتهان إلى الماركسية اللينينية السوفيتية ، وضعف التقاليد الديمقراطية داخل الأحزاب ، وضعف وهشاشة البروليتاريا الصناعية ، وذلك بسبب ضعف قطاع التصنيع ومحدودية عدد العاملين فى قطاع الصناعى وتدنى وعى الطبقة العاملة

وواقع التخلف الفكرى فى المجتمع العربى ، وظروف القمع الوحشى الذى تعرضت له الأحزاب الشيوعية فى سائر البلدان العربية" .

أسباب معظمها غير مقنع ، والحقيقة أن حركة الإبداع الفكرى بين المثقفين العرب ضعيفة جدا، بل إن بعضهم يظن أن النقل عن **مونتسكيو وروسو وماركس** وكتابة أفكارهم بالعربية جهد إبداعى . أما **جابر عصفور** فيعقب على **شوقى جلال** بتساؤله : **"لماذا أخذت التأويلات العربية مثلاً البنية المركزية نفسها للسلفية والأصولية فى حالات كثيرة ، لماذا كان من بين الماركسيين من يتعامل مع الماركسية إلى الآن بمنطق أصولى لا يقل سلفية عن المنطق النقلى للإخوان المسلمين"** .

إن أهم ما قيل عن اليسار العربى عبارة **فؤاد زكريا** فى تعقيبه على **شوقى جلال : "وهى عجزه عن أن يتكيف ويهتدى إلى نفسه بعد سقوط المعسكر الاشتراكى فى عام ١٩٨٩م ، أى شعوره بنوع من الدوار وعدم اهتدائه أو بحثه عن طريق جدير بفكره وسلوكه بعد الحدث"** .

ويقول **محمود أمين العالم** :

"أنا أزعم أن الفكر الماركسى لم يترجم للأمة العربية ، لم يترجم عربياً ، الذى ترجم هو الكتيبات السخيفة المتخلفة التى كتبت عن الاتحاد السوفيتى فى المرحلة الستالينية ، ولكن لم يترجم رأس المال ، وترجم ترجمة خطأ من الألف إلى الياء ، ولا يوجد شىء اسمه لينينية حقيقية . اللينينية تجربة سوفيتية فرضت خطأ على الدول العربية" .

وهكذا نجد أن هذا المحور فى مناقشات الندوة قدم نقداً صارخاً للتيارات الإسلامية والليبرالية واليسارية ، وأثبت بدون جدال فشل التيارات الثلاثة .

المحور الثانى :

تبدأ محاضرات المحور الثانى ، بمحاضرة للمفكر د . محمد جابر الأنصارى بعنوان : (النهج التوفيقى ، إشكالية اللا حسم فى الفكر والواقع) يقول الكاتب فى مقدمة بحثه :

"من وجهة تعميمية فى تصنيف تيارات الفكر العربى الحديث ضمن جدليته المثلثة بين تيار سلفى وآخر وسطى، وثالث تحديثى يمكن النظر بداية إلى الاتجاه الوسطى بتفرعاته وتنويعاته ، سواء اتخذ صيغة الخطاب الوطنى أو القومى أو الدينى على أنه التيار المطابق للموقف التوفيقى على خارطة هذا الفكر الإسلامى الكلاسيكى بين سلفية حنبلية وتوفيقية معتزلية فلسفية وعرفانية أو علانية متطرفة أدخلت دائرة البدعة أو الزندقة فى المصطلح القديم وغير أن مثل هذا التصنيف

الأولى لن يعدو كونه نظرة شديدة التبسيط ومبتسرة للظاهرة التوفيقية الأكثر تعقيداً وإشكالاً والأشد تأثيراً فى الفكر العربى والحياة العربية بعامة خاصة فى العصر الحديث" .

ويعطى **جابر الأنصارى** مثالاً عن التوفيقية فى الفكر العربى ، فيقول :

"من ناحية لا يمكن تصور سلفية تراثية حضرية مطلقة على صعيد الواقع المعاصر تستطيع أن ترفض معطيات الحداثة بصفة قاطعة ،وعلى الجانب النقيض ، فإن أى اتجاه تحديثى مهما بلغت درجة حداثته لا يستطيع إغفال جميع عناصر التراث فى الحياة العربية" . (ويرجعنا الكاتب إذن إلى إشكالية "الأصالة والمعاصرة" تحت منظور جديد أدعى أنه النهج التوفيقى) ، **إشكالية اللا حسم فى الفكر والواقع ، والأمثلة كثيرة عن الاتجاه التوفيقى ، مدرسة الشيخ محمد عبده دينياً وفكرياً ، والناصرية التى فى رأيه مثلت ثورة فى التوفيقية فى مرحلتها الراديكالية لا ثورة عليها ، أما السادات فقد طرح شعاراً توفيقياً آخر «العلم والإيمان» والحركات القومية الأخرى فى تأرجحها بين علمانية صريحة ويسارية واضحة من ناحية ، وعودتها بين وقت وآخر تحت ضغط الواقع إلى مواقف أكثر تراثية وأكثر محافظة "**.

وقبل أن نعلق ، دعنا نذكر رأى المعقبين والمناقشين لفكرة الكاتب ، وربما نكتفى بما قاله المعقب الأول د . **ناصيف نصار** ، وأيضاً المفكر **فؤاد زكريا** . إن أغرب ما قرأته أن يقول :

"إن العرب يعيشون تحت تأثير التوفيقية المحدثة التى تحددت معالمها فى أعمال الشيخ محمد عبده وصارت الفكر والواقع منذ أوائل الثلاثينيات حتى اليوم ، وقد منعت سيادتها انتصار الاتجاه السلفى بأنواعه المختلفة ، وحالت دون حسم الصراع لمصلحة الاتجاه التحديثى العلمانى بفروعه المختلفة . (إذاً هى توفيقية معطلة ومجمدة للأمر الواقع الذى لا يتحرك ناحية اليمين أو ناحية اليسار) ولم تكن سيادتها هذه فى النهاية سوى تغطية لحالة أزمة مستمرة يسميها الأنصارى "حالة اللا حسم وعدم القدرة عليه بين الأضداد والنقائض فى الحياة العربية المعاصرة وما يحيط بها من واقع إقليمى ودولى" ، ويأتى المعقب هنا ليبالغ فى تعداد الأضداد وهو يقول **"والمقصود بالأضداد والنقائض هو جملة من الثنائيات مثل العقل والإيمان ، العلم والدين ، التراث والمعاصرة ، الدين والقومية ، القومية والقطرية ، العدل والحرية ، الرأسمالية والاشتراكية ، الشرق والغرب ، .... إلخ فلا أحد الطرفين تغلب على الآخر ولا التوفيقية أنتجت مندمجاً جديداً يستوعب تناقض الأطراف المتشابكة ، ويقيم بناءً صلباً قادراً على مواجهات الأزمات وتخطيها . وهذا واقع سيئ يجعل العرب مكبلين فى حالة توتر وتمزق وازدواجية وعجز لا تطاق"** .

ومع أن التفكير المنطقى لا يقر هذا الكلام .. سوف نترك الرد عليه حتى نأتى إلى ما قاله **فؤاد زكريا "ليس عيباً أن نعيش فى هذه الحالة فى اتجاهات متباعدة متباينة متناقضة . وهذه الاتجاهات يتمسك كل منها بموقفه ، ولا يريد أن يتراجع على حساب الآخر ، فنحن نخاف من التعددية ، ومن هنا ننسى الحاجة إلى التوفيقية إن حالة اللا حسم ليست من الحالات المخيفة .**

وإنما لماذا لا نعيش فى اللا حسم ؟ دعونا نعيش فى اللا حسم ، ونترك التيارات المتعارضة تزدهر وتتعايش وتتصارع" .

وتعليقنا على البحث أن التنوع هو سنة الحياة الظاهرة ، نراه بوضوح متمثلاً فى ملايين الأنواع من النباتات والحيوانات التى تعمر الأرض ، تتفاعل مع بعضها ، ومع المحيط الفيزيائى من حولها من أجل الحفاظ على الاتزان فى الأنظمة البيئية التى تمتد على طول الأرض وعرضها ، والحياة مليئة بالأضداد : الحرارة والبرودة ، الضوء والظل ، الليل والنهار ، الرطب واليابس ، ولا يتكلم العلماء أبداً عن أن هناك حالة توفيقية ، بل إن هناك حالة انضباط تضبط كل هذه الأضداد ، فالانضباط أيضاً من سنن الكون الذى يخفى على الكثيرين أسراره . ولا ينكر أحد جمال النظام الكونى والأرض تدور فى مدارات شبه دائرية حول الشمس ويترتب على هذا النظام تناغم جميل يتمثل فى تعاقب الليل والنهار ، واختلاف فصول السنة .

ويردد علماء الاجتماع وهم يعيبون على النظم الشمولية تقييدها للحريات ، أنها جعلت الإنسان ترساً فى آلية المجتمع الكبيرة بما يخالف طبيعة البشر . فالإنسان ولد حراً ، ولكن الشواهد تدل على أن هذه الآراء التى ترددت كثيراً وخاصة فى أيام الحرب الباردة ، وغذتها القوى المعادية للشيوعية عارية من الحقيقة تماماً . فليس هناك كائن حى مطلق الحرية . فالحرية مقيدة لأن الحرية الكاملة معناها الموت والفناء ، فناء النظام الذى يعيش فيه الكائن الحى ، ونظام الكون نفسه الذى أثار إعجابنا يقيد الحرية ، يلزمنا بسلوك معين لا مفر من طاعته ، فمع حلول الظلام نجد أنفسنا فى حاجة إلى النوم ، ومع طلوع الشمس نستيقظ وتنشط أجسامنا بعد أن أخذت قسطها من الراحة ، إنها دورة مجبرون عليها ، ولكنها فى مصلحتنا ، وليس كل ما يقيد الحرية هو بالضرورة ضد راحة الإنسان . ولننظر إلى النحل فى خلاياه كيف يوزع الاختصاصات فى نظام بديع ، وأى خلل فى النظام معناه الفناء لا محالة ، أليست هذه الحيوانات الدنيا هى أرقى الحيوانات نظاماً وتعاوناً إنها المثل الحى للالتزام والانتماء .

وإذا نظرنا إلى الإنسان أرقى الحيوانات ، نجد أن قدرة الخالق وضعت فيه هذه القدرة التنظيمية فهو بمثابة آلة مبرمجة ، ويقع نظام البرمجة فى الخلية فى مركزها ، فى النواة وبالأحرى فى

الكروموسـومات التى تتكون من مـجموعـة المورثات (الجينات) ، تتحـد فيمـا بينها لتكون أشـهر حلزون مزدوج عـرفه التـاريخ . يطلق عليه الحـامض النووى ، ومن الحقـائق المعروفـة أن الجينات داخل جسم الإنسان تحمل من الأضداد ما لا يحصى ولا يعد ، ومع ذلك فهو يعمل بانتظام وبنظام رائع .

وتوصل العلمـاء أيضـاً إلى اكتـشاف الـساعـة الإحيـائيـة وهى آلية أخـرى تعـمل على تنظيم نشاطات الكائن الحى وتعمل على تنظيم العمليات الفسيولوجية .

وفى ضوء هذه الاكتشافات يتضح أن الإنسان آلة دقيقة الصنع ، ويجب أن يعرف هؤلاء الذين يتعاملون مع البشر هذه الحقيقة فيعـملون على ضبط آلية النظام وصقلها حتى تسير فى ظل قوانين منضبطة ، ويظهـر واضحاً احتـرام الناس للنظام فى البلاد الناميـة . هذه القدرة التنظيمـية هى التى ساعدت البـلاد على التقدم ، وهى لم تأت من فراغ بـل تحت ضغط الإدارة العلمية وقـسوتها إبان الثورة الصناعية ، اعتمدت الإدارة العلمية فى أوروبا على مبدأ العصاة والجزرة ، ولم تتهاون إدارة المصانع الأوروبية فى معاملة العمال فهى أمـدتهم بالوظائف وطالبتهم بالقيام كل منهم بمهامه على الوجـه الأكـمـل وإلا فـصـل فـى الحـال ، وكـانـت الفلسـفـة الـسائدة هـى أيضـاً اسـتـخـدم واطـرد Hire and Fire .

إن الإنسان الذى هو آلة بحكم تكوينـه سواء رضينا أم لا قامت الثـورة الصناعية على أكتـافه ، وقدم فى سبيل نجاحها الكثير من التـضحيات ، ثم ما لبث المفكرون بحكم تحكم العنصر الإنسانى فى الآلة (العـقل) أن ينظمـوا الناس (الآلات) فى عـجلة الثـورة الصناعـية الجـبـارة ، وتجلى هذا التنظيم فى تكويـن حركـة العمـال القـوية ، وتكوين النقابـات ومن بعد ذلك الأحـزاب . وهكذا أفلحت المجتمـعات الأوروبية فى إنشاء آلية تنظمـها المبادئ والقوانين الأخلاقـية ولم تصل الحرية أبداً إلى فوضى

فى ظل وجود الأضداد ، يتوزع الطيف السياسى إلى يسار ويمين ووسط ، وداخل كل طرف يتوزع الأعضاء إلى أقـصى اليسار وإلى أقصى اليمين ، ولكن ليس بدرجـة التشتت التى نراها فى مجتمعاتنا ، كل فرد حـزب لوحده . جر علينا أسلوب مفكرينا فى القرن الماضى وبالاً لم نكن فى حاجة إليه ، وتسببوا فى الأزمـة الفكرية التى نعانى منها . والغريب أن كل مفكر يرمى باللوم على غيره فى هذه الأزمـة . وكان انتماء المفكرين العرب إلـى مدارس فكرية غربية وشرقـية السبب فى تشتـيتهم شـيعاً وأحـزاباً ويشتد التـباين والانقسـام بينهم ، فضلاً عن أن مـا يكتبـونه يصعب على الكثيـرين فهمه لقـد كتب **زكى نجيب مـحمود** كثيـراً ، وخرج **جمال حـمدان** بعد أن انزوى فى

محرابه المقدس لفترة طويلة بسفره الكبير (**شخصية مصر**) . ولكن هل أفادت هذه الجهود فى تنمية الثقافة العربية ، أشك فى ذلك ، فهؤلاء الكتاب الكبار لم يسألوا أنفسهم ولو لمرة واحدة لمن يكتبون ؟ لقد غالى كتابنا فى إضفاء الروح الغربية على ما كتبوا ، وفى الوقت نفسه قدموه بطريقة صعبة على الكثيرين فهمها . وكانت النتيجة أن راح الناس ينصرفون عن القراءة وأصبحت السمة العامة بلادة الفكر والإحباط واللا مبالاة والسلبية .

وكما قلنا المشكلة قبل كل شيء مشكلة أخلاقية ، ونسوق هنا مثالاً ربما فات على الكثيرين الانتباه إليه : مأساة الاعتداء على **نجيب محفوظ** ، صحبها مأساة أخرى أفظع ، بمناسبة الاعتداء انتهزت الفرصة بعض الصحف لنشر رواية (أولاد حارتنا) ، وفى أعقاب ذلك يصرح **نجيب محفوظ** بأنه لا يوافق على نشر روايته ، ويوقع خمسمائة من المثقفين بياناً بإدانة هؤلاء الذين نشروا القصة دون إذن صاحبها . ولماذا كل هذه الضجة التى أثيرت ،حول الرواية ونشرها ؟

إنهم هؤلاء الذين يتحركون فى الظلام ويفتعلون معارك وهمية ، جماعة من المثقفين يفترضون التضاد بين العلم والدين. ولم يفعل ذلك غير أولئك الذين نقلوا إلى العالم العربى فكر أوروبا فى القرن الثامن عشر . العلم أبداً لم يكن فى معركة ضد الدين أو العكس . هذه معركة افتعلها بعض الفلاسفة فى ظروف معينة . ومنذ بداية نشأة العلم الحديث فى القرن السادس عشر ، حاول معظم رجاله أن يتجنبوا العراك مع الدين ، **فكوبر نيكوس** مفجر الثورة العلمية الحديثة كان كاثوليكياً **وبيكون** أول مجدد فى الفلسفة ، **وجاليليو** رائد العلم التجريبى الحديث ، **ونيوتن** أكبر عبقرية ولدت فى التاريخ ، **وبسكال** ، لم يدخلوا فى معركة كلامية مع أهل اللاهوت وانصرفوا إلى تقديم أفكار كلها تدعو إلى بناء العلم والتقدم ، وهم المؤسسون الحقيقيون للعلم الحديث .

وديكارت أكبر فيلسوف أثر فى الفكر الإنسانى منذ **سقراط** آثر الحذر فى الدخول فى أزمة مع دينه التقليدى مع أنه أكد بقوة على المحافظة على حرية الفكر الضرورية لأبحاثه .

ويأتى **أوجست كانت** فيقر بأن أزمة الدين التى نشأت عن العلم هى أصل الأزمة الاجتماعية غير أنه كان يرى أن باستطاعة العلم وحده أن يصلح الداء الذى كان هو سببه .

ويؤكد **كارل بوبر** أكبر فلاسفة العصر على التراث بقوله :

"أنا لا أعرف ماذا سيحمل لنا المستقبل ، وأنا لا أؤمن بمن يؤمنون أنهم يعرفون . إننى متفائل فقط بالنسبة لقدرتنا على أن نتعلم من الماضى والحاضر" .

ثم ماذا عن أكبر مشروع تقوم به اليونسكو للحفاظ على تراث الإنسانية لمصلحة التقدم العالمى

بعد أن شاركت فى إصدار اتفاقية "تراث الإنسانية العالمى الطبيعى والثقافى" والتى وقع عليها معظم بلدان العالم . أبعد استعراض ما يجرى فى العالم الآن ، وخاصة نبذ الغرب لأفكار **(موت الإله)** التى سادت فى القرنين الماضيين واتجاهه الآن للبحث عن المقدسات وإحياء الاتجاه الدينى - يصر التنويريون عندنا على الفصل بين العلم والدين ؟!

قبل أن نتكلم عن عملية توفيقية فى الفكر العربى ، يجب علينا أن نحاول فى تطوير ثقافة قومية لها سماتها التى تؤدى إلى التفاعل والتضامن الاجتماعى . نحن لا نفهم معنى التنوع والوحدة . تغلبت علينا الذات فننفى الآخر ، المحلى والأجنبى . وليتنا نستريح فى نفى الآخر ، بل إننا نظل قلقين خائفين .

ربما لأننا مازلنا لا نفهم معنى الدولة - وسأفترض جدلاً أنها دولة مدنية - فالدولة تفترض قبل كل شيء وجود الولاء للمصلحة العليا . كما أنها فى الوقت نفسه تعمل على حرية الأفراد والجماعات وتهيئة المناخ لممارسة عقائدهم وشعائرهم ، والحفاظ على ثقافتهم التقليدية - الدولة تعنى التنوع ولكن لضمان ثباتها وقوتها تجبر على الوحدة - والدولة تعنى ضمنياً إحياء ثقافة قومية تحمى الدولة والجماعات والأفراد داخلها .

وإن الثقافة القومية شديدة الوضوح وشديدة التعقيد لأنها تستخدم بوعى ذاتى سياسة لغوية ، وتعليم رسمى وطقوس جمعية ووسائل إعلام لتوحيد المواطنين والتأكد من إخلاصهم وولائهم .

وإذا فشل التعليم فى توحيد المواطنين بمعنى الوصول إلى المنطق والتفكير العلمى ، فلا أمل أن يكون هناك تجانس بين أفراد المجتمع والاتفاق على قواعد مبدئية للانضباط والقبول بالتنوع .

ولا ننسى أننا متأثرون بثقافة عالمية ووسائل الإعلام التكنولوجية المتطورة تؤثر فينا بدرجة لم تحدث قبل الآن ، وقد تتعدد مراكز الثقافة ، وعلى سبيل المثال كانت مصر فى عهد **عبد الناصر** تمد تأثيرها الثقافى والسياسى للوطن العربى . هل مازال هو الحال ، أم أن مركز الإشعاع الثقافى قد انتقل ، وكيف انتقل ، وهل من المصلحة تعدد المراكز الثقافية فى الأمة العربية ، لا يخفى على أحد الجدال ولا نقول النزاع أو الصراع ، بين ما يسمى بالثقافة العربية الغربية ، والثقافة العربية الشرقية، قد نقول ليس فى ذلك عيباً فهى اجتهادات قد تكون مفيدة ، ولكن ما الضوابط ؟

كيف تتكون الثقافة العربية وتتطور قضية من أخطر القضايا التى سكتت عنها الندوة ؟

الانفصال بين النخبة والجماهير :

تكلم "**تركى الحمد**" عن النخبة والجماهير فى بحث بعنوان (فكر الوصاية ووصاية الفكر،

إشكالية النخبة والجماهير فى الفكر العربى المعاصر) ، وفى تعقيبه عن البحث يقول **فؤاد زكريا** :

"إن النخبة تظل منعزلة عن الجماهير فى بلادنا العربية ، وتتخذ منها موقف الوصاية ، وإن هذا الانعزال يؤدى بالمثقفين إلى العجز عن فهم الواقع ومعايشته وتحليله عقلياً بالطريقة التى تؤدى إلى تكوين رؤية مستنيرة عنه" . ويرجع فؤاد زكريا ذلك إلى العقبات التى تضعها السلطة فى انتشار الرؤية المستنيرة وهذا بالطبع غير صحيح ، فلعلنا نذكر هنا فى هذا الموقع من البحث ، أن المثقفين العرب تغطية لفشلهم يذكرون ثلاثة أسباب لتدهور الثقافة العربية : سلطة الدولة ، وسلطة الدين ، وسلطة العرف ، ويضيف البعض تدخل الدول الاستعمارية . وهذه أسباب فى الحقيقة واهية ، وهى ليست الأسباب الحقيقية لتخلفنا كما سنفسر فيما بعد .

ورداً على مقولة أن الليبرالية كانت نخبوية الإنتاج والممارسة ، يقول : **"أن الشعب المصرى اندمج بقوة فى فترة الممارسة الليبرالية التى دامت لأكثر من حوالى ثلاثين عاماً من ١٩١٩ حتى ١٩٥٢** : تذكر أيها القارئ العزيز أنه قال قبل ذلك : **"إن أحزاب المعارضة بقيادة لطفى السيد وحسين هيكل وغيرهم عملت على إجهاض الممارسة الليبرالية"** ثم يعود فيقول : **"إنه فى السبعينيات بعد ظهور الجماعات الدينية ، أصبح أعضاء هذه الجماعات ، مهما كان حظهم من الثقافة والتعليم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم هم النخبة فى المجتمع - وهكذا انقلبت الآية بعد أن أصبحت الجماهير "نخبة" تسعى إلى فرض آرائها على القلة المثقفة "**.

يتناقض **فؤاد زكريا** مع نفسه ، كيف أن الشعب المصرى اندمج بقوة فى فترة الممارسة الليبرالية التى دامت لأكثر من ثلاثين عاماً ، ثم ينقلب هكذا فجأة ليصبح فريسة للتيار الدينى . وأية ليبرالية هذه التى مارسها الشعب المصرى ، لقد كان يسير وراء **سعد زغلول** كزعيم يناضل من أجل تحرير الوطن ، ولم يكن يسير خلف أفكار ليبرالية اجتماعية كانت أو اقتصادية أو سياسية ، وخاصة أنه لم يمارس الديمقراطية أبداً فى الفترة ١٩٢٣ (منذ إعلان الدستور) إلى ١٩٥٢ عام قيام الثورة ، فلم تحكم حكومة الأغلبية غير بضع سنوات ، بينما حكمت أحزاب المعارضة وحكومات الأقليات بضغط من السراى بقية المدة .

وإذا كان المفكرون الليبراليون قد وقفوا فى صف السراى ضد الشعب وحكومة الأغلبية فى الماضى ، فماذا كان موقفهم فى الحاضر القريب حينما اعتقل السادات ١٧٠٠ من كبار مفكرى مصر ، لم يكونوا من الإرهابيين ولا من الشيوعيين أو التيار الإسلامى . ألم يقف كبار الكتاب الليبراليون فى مصر يؤيدون السادات ، ويتغنون بعبقريته الفذة ويصفونه بأنه الرئيس الملهم .

والليبراليون اليوم ماذا يفعلون أكثر من الكلام عن فلسفات وأيديولوجيات غربية ويبعدون تماماً عن مناقشة المشكلات المحلية الداخلية خوفاً من إزعاج السلطة وإثارة غضبها . وهل يوافق الليبراليون على أن تصنع الثقافة فى جهاز حكومى تابع لحاكم مستبد ؟ والحقيقة أنهم بالإجماع يوافقون .

أما د . **عبد الله الغذامى** فيذكرنا بلصوص التاريخ ، ويذكر كمثل لهم **نيرون وهتلر** ثم ينعطف إلى الوطن العربى فيذكر **صدام حسين** ويلّمح إلى **عبد الناصر** . ويقول لو استمرت التجربة الديمقراطية فى مصر والعراق ماذا كان وضعنا الحالى ؟ سؤال حالم كما يقول **الغذامى** نفسه ديمقراطية العراق مع **نورى السعيد** وفى وجود الاستعمار الإنجليزى فى منطقة الخليج بأكملها ؟ ديمقراطية فى مصر مع وجود الملك والإنجليز وتعاونهما مع أتباعهما فى مصر . كيف يفكر الجميع وبدون استثناء فى محو فترة من تاريخنا القريب ، إن هدف الندوة الأساسى كان إبرازها - فترة قيام الثورة المصرية - وحتى الآن - كان المفروض أن تناقش الندوة أحوال الفكر العربى منذ نكبة فلسطين وقيام إسرائيل وحروبنا معها حتى آخر الحروب ، ثم اتفاقيات كامب ديفيد ، وفى هذه الأثناء كيف ازدهر الفكر القومى ، ثم كيف انهار وما أسباب تألقه وانهياره ، الصراع الحقيقى الذى خاضته ثورة ٢٣ يوليو على المستوى الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، سلبياتها وإيجابيتها ، ثم لماذا دخل **السادات** فى عملية الصلح مع إسرائيل وانعكاس ذلك على الوضع العربى وما يطلق عليه ثقافة السلام الآن - ثم كيف فى ظل الوضع العربى الراهن ندخل إلى العولمة ، وما المشاريع المطروحة على الساحة العربية مثل الشرق أوسطية - وغيرها وماذا يدور فى الكواليس . هل هى مؤامرات ضد الوطن العربى يقوم بها أصحاب كوبنهاجن والدعوة إلى احتفالية مرور مائتى سنة على الحملة الفرنسية على مصر قائدة الأمة العربية ، وهل مازالت القاهرة قادرة على القيادة أم أن القيادة انتقلت من القاهرة إلى الجنوب ؟ إلى الرياض مثلاً !

وفى تعقيب **السيد يس على تركى الحمد** ، يذكر أنه مندهش للعرض اللا تاريخى الذى قدمه الباحث ففيه تعميمات جارفة . وهنا لا أستطيع مع **السيد يس** صبراً وخاصة إذا انتقلنا إلى مقاله فى الندوة مباشرة والذى برزت فيه قسوة الأزمة العربية حينما نقل عن محيى الدين اللاذقانى أنه أعلن عن موت النظام الثقافى العربى ، بل إنه دخل مرحلة النزع النهائى مع هزيمة يونيو (حزيران) ١٩٦٧ .

إنهم حقا لا يقرأون التاريخ ، لأن النظام الثقافى العربى ولد ميتاً بشهادة الشهود . وقال **مشرفة**

عالم الفيزياء وقبل حوالى خمسين عاماً أن هناك قرناً ضائعاً "**إن واجب كل مشتغل بالحركة الفكرية فى مصر اليوم أن يوجه عناية خاصة إلى دراسة هذه التجربة الفاشلة فى حياتنا العملية فى القرن الماضى ، وليس يكفى أن ننسبها إلى ضعف ثقافى أو اضمحلال خلقى . ولو أن هذين العاملين لهما ولا شك أثر بليغ فيما حدث بل يجب أن ندرس الوسائل التى استخدمت والجهود التى بذلت وأن نعرف حقيقة أهدافها**" .

إذا أضفنا إلى القرن الذى تكلم عنه **مشرفة** الخمسين عاماً الماضية ، نجد أننا فى حالة ضياع مستمر ، وتجربة فاشلة نمر بها منذ بداية النهضة أى منذ حوالى قرنين .

ولست هنا بصدد الدفاع عن التجربة الناصرية ، ولكن الأمانة تقتضى أن أذكر أن الأمة دخلت فى حالة إنعاش وقتية بعد هزيمة الجيوش العربية أمام العصابات الصهيونية ويقول الكثيرون من الكتّاب أن الثقافة ازدهرت فى عهد النظام الناصرى ، ويبقى السؤال محيراً كيف ازدهرت الثقافة ثم ما لبثت أن تدهورت أو وصلت إلى هذا المستوى الرديء ؟ كان المفروض أن تجيب الندوة عن هذا السؤال .

ونرجع ثانية إلى **السيد يس** ففى ورقته للندوة ، وهى منقولة حرفيا من مقدمة كتبها للتقرير الاستراتيجى العربى ١٩٩٥ ، يسكت عن أمور كثيرة كتبها فى المقدمة ، يقول فيها :

"لقد كانت مواجهة الذات والآخر فى عام ١٩٦٧ مسألة حتمية ، لأن الذات المنهزمة فى المعركة العسكرية هى نفسها التى كانت قد نالت استقلالها السياسى .. كيف حاولت الذات العربية من خلال النقد الذاتى والإصلاح السياسى ، والتحديث الجزئى والإعداد العسكرى ، تلافى سلبيات الهزيمة وتجاوزها إلى آفاق الانتصار"

كل هذا : النقد الذاتى والإصلاح السياسى والتحديث الجزئى ، حدث فى ست سنوات من هزيمة ١٩٦٧ إلى نصر ١٩٧٣ ، لماذا يسكت المثقفون عن تحليل واقع هذه الفترة ، لماذا يتجاهلون عن قصد الكتابة عن أوج نصر القومية العربية والتضامن العربى .

خمسون طائرة عراقية تشارك فى أول طلعة للقوات الجوية العربية مع بداية الحرب ، وذهاب بومدين إلى الاتحاد السوفيتى ليدفع ١٥٠ مليون دولار حتى يفك الاتحاد السوفيتى الحظر عن توريد قطع غيار الأسلحة المستهلكة ، وقرار فيصل الحكيم بقطع البترول عن الغرب . وكان نتيجة هذا التضامن العربى الرائع أن نجح العرب ولأول مرة فى السيطرة على سوق النفط ، وصارت الدول العربية قوة اقتصادية لا يستهان بها .

ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟ يقول **السيد يس** :

"كانت المشكلة أن الانتصار العسكرى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ لابد أن تعقبه تحولات كبرى فى السياسة والاقتصاد والثقافة وخاصة فيما يتعلق بالعلاقات العربية والعلاقات مع الآخر ، ولعل أبرز هذه التحولات الكبرى التى أحدثت بالفعل قطيعة سياسية وثقافية بين النظام الثقافى العربى القديم والنظام العربى الجديد هى توقيع اتفاقيات كامب ديفيد" .

وقبل أن نستطرد ، نتساءل كيف تغير النظام الثقافى العربى القديم إلى نظام ثقافى جديد ، ما القوى التى قامت بهذا التغيير ، بالطبع ليست القوى القومية ، ولا الإسلامية ، ولا الوطنية بمختلف أشكالها ، ولا حتى القوى الليبرالية ولا اليسارية - وإذا كانت القوى الثقافية والسياسية على الساحة المصرية ارتضت هذا التغيير فلماذا زج السادات بكل المثقفين الشرفاء فى مصر إلى السجون والمعتقلات ؟

وباختصار شديد ما نتيجة التحول إلى النظام الثقافى الجديد ، حرب الخليج الأولى والثانية ، وغزو إسرائيل للبنان ، وهل كان غزو العراق للكويت نتيجة لتغير النظام الثقافى أم أنه كان سبباً له، ومهما تكن الأسباب التى أدت إلى تغيير النظام الثقافى الذى يدّعيه **السيد يس** فإنه يقول :

"إن هذا التغيير لم يغير فى الأمر شيئاً ، مازال القهر هو السمة الغالبة ومازال الفرد يناضل حتى يصل إلى مشارف حقوق الإنسان ، والمجتمع المدنى يحارب حتى يحصل على حقه فى الاستقلال النسبى عن جهاز الدولة المسيطر ، هذا إلى جانب التشرذم للنظام العربى وخاصة بعد غزو العراق للكويت" .

وعلى الرغم مما يذكره **السيد يس** عن هذه الأوضاع المتردية ، فإنه يظل يعتقد فى جدية ما حدث فى العلاقات العربية ، فيقول : **"أما فى مجال العلاقات العربية العربية فلعل أهم تطور حدث هو نشوء مجلس التعاون العربى ، وقيام الاتحاد المغاربى ، بالإضافة إلى مجلس التعاون الخليجى"** ولكنه يسكت عن تآكل المصالح العربية تماماً فى وجود هذه المنظمات .

وفى علاقتنا مع الآخر يقول :

"إن النظام الثقافى الجديد أدى إلى تصحيح العلاقة المختلة بين العرب والولايات المتحدة بحيث أصبحت أكثر إيجابية وأقل عداء ، وتقوم على منطق المصالح المتبادلة" ؟!!"

أليس العداء للأمة العربية والإسلام أكثر سفوراً الآن من أى وقت آخر ؟

هؤلاء الذين يتكلمون عن نظام ثقافى عربى جديد ، وعن نـظام عالمى جديد لا يقدمون جديداً للفكر العربى يساعد على انتشال الأمة من حالة التمزق والشرذمة .

ليس هناك عـولمة مفـروضة علينا سـواء رضينا أم أبينا ، فكل القـوى الوطنية المخلصـة ترفض العولمة على الطريقة الأمريكية ولقد نقد الكثيرون فى الغرب مقولة نهاية التاريخ **لفوكوياما** .

وهؤلاء المثـقـفون العـرب الذين يدعـون إلى فكر العـولمة الجـديد هم أحـفاد الـتنويرين الذين حصـرونا فى أطر قوميـة ضيـقة ، أولئك الذين قاومـوا العروبة والإسلام ، وأصـروا على القومـية المصرية ، على الرغم من دعاويهم التنويرية فـإنهم أكثر سلفية من غيرهـم ، فهم نسبونا إلى تاريخ قديـم لا نعرف مـعالمه بوضـوح ، ومازلنا لـم ندرسـه جيـداً ، وهذه الدعوة إلى المصـرية هى أكـثر الدعاوى خداعاً وسلفية ، فهى إن كانت حقيقة لابد وأنها سوف تجرنا إلى جذور الحضارة المصرية التى لا يعـرف أسرارها المصريون وتدرسـها نيـابة عنهم المدارس الفرنسـية والألمانيـة ، وإن كانت زيفاً، فـهى لا تخدم إلا فى فقـدان الهوية . وبالفعل فـقدنا روح الانتماء والالـتزام بفضل عبـاقرة التنوير فى القرن الماضى ، فماذا كانت تعاليم **سلامة موسى ولويس عوض ، وطه حسين ، ولطفى السيد ، وحسين هيكل** فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا تصـنع وحدتها منذ عام ١٩٤٥م ونحن نتغنى بتـعاليم **ماركس وداروين ومونتـسكيو وفولتـير وروسو وفلسـفة ديكارت وغيرهم** ، وبعد فوات الأوان - يهب الجميع وبـدون استثناء ليقولوا أخطأنا ، وما كان يـجب أن نسير وراء الغرب وأعيننا مغمضة هكذا .

إنهم يعترفون

في بداية القرن الحالي وبعد وفاة **محمد عبده** ظهر رواد آخرون ، ولكن من نوعية مختلفة سيطرت على الساحة الثقافية وفرضت عليها أفكارها ، وبالطبع في هذا الكتاب لم ندخل في تفاصيل كثيرة عن طبائع هذه الثقافة التي أفرزتها هذه الجماعة ، بل إننا وصلنا سريعاً إلى الأزمة التي نجد أنفسنا فيها والتي كانت نتيجة مباشرة لأفكار هذه الفئة التي باعت أنفسها للآخر شرقاً وغرباً منذ البداية ، ثم ما لبثوا جميعاً حتى وصلوا إلى درجة العمالة لثقافة الغرب في نهاية المطاف بعد أن انقلب الكثير من الماركسيين وغيرهم يروجون للنظام العالمي الجديد .

وقد يعيب علينا الكثيرون وخاصة أصحاب المنفعة في الوضع الحالي أننا تطرفنا كثيراً في حكمنا ، وقد بعدنا عن الصواب وعن المنهج العلمي في الكتابة .. وإلى كل هؤلاء نقدم شهادات أصحاب هذه الثقافة أنفسهم ، وهي تحوي ما يكفي للحكم على القرن الماضي بأنه فعلاً "القرن الضائع" .

يقول **غالي شكري** – العربي ، العدد ٤٢٢ ، يوليو ١٩٩٦م .

"وقع في بداية السبعينيات نوع من اللجوء الحضاري للغرب . فقد كانت الثورة المضادة شاملة وليست سياسية ، أو اقتصادية فقط إنما كانت ثقافية في الأساس ، ولذلك كان الأمر اضطراراً أو اختياراً للفرار من أحضان التجربة الوطنية إلى أحضان الغرب في سياقه الأخير . إن الألسنية والبنيوية يتخذان طريقهما النهائي إلى الاحتضار في مهدهما الأصلي ، ومن ثم كان الأخذ عن الفرنسيين نوعاً من محاولة إعادة الإنتاج التي لا سبيل إلى إحيائها في موطنها ، وكيف تحيا في مواطن جديدة . لذلك كانت المحاولات العربية التي عبرت منها مجلة "فصول" مثلاً عرجاء وعجوزاً شوهاء تستعين بأدوات تجميل غيرها فيأتي المشهد الأخير مضحكاً" .

إن ما يدعو للسخرية فعلاً في كلمات **غالي شكري** أنه يعتقد في أن الانفتاح على الآخر جاء في بداية السبعينيات ، وهو يقصد بهذا الانفتاح على الغرب ، ويتجاهل تماماً الانفتاح على الشرق

الذى أتى إلينا بالماركسية المتداعية التى كان يمثل هو نفسه أحد أتباعها .

ويقول **خليل على حيدر** (العربى ٤٥٤ سبتمبر ١٩٦٦) : **"كل المثقفين العرب والعالمثالثيين اللذين يتكلمون عن النهضة والتقدم بلغة معقدة ملتوية وباصطلاحات بنيوية وتفكيكية وأبستمولوجية يتسمون عادة إلى دول ومدارس فكرية فشلت فى النهوض والإنهاض - بينما تخاطبنا النهضة اليابانية والكورية والآسيوية بمنتهى الوضوح والتواضع"** .

وفى مجلة القاهرة يكتب الكاتب عن **سلامة موسى** (العدد ١٥٤ - سبتمبر ١٩٩٥) .

"إن نظرية سلامة موسى للغة العربية يشوبها كثير من القلق والتسفيه ، فهو يرجع تخلف العرب إلى لغتهم ضمن عوامل التخلف الأخرى فهو يقول "لو كانت لغتنا تساير اللغات المتطورة لكانت كتب داروين فى متناول القراء العرب منذ ثمانين سنة ولكن لغتنا للأسف لا تزال بدوية تلتزم الخيام ، وتقنع بالعيش فى الوبر وتحلم بالغيبات . فى حين تعيش اللغات العصرية عيشة الترف والبذخ بالعلوم والفلسفات الحديثة" .

والمفكر الذى نادى باستخدام الأحرف اللاتينية . لا يرغب فى تنحيتنا عن لغتنا فقط ، بل تنعيتنا عن الشرق كله - لعله عاش حتى رأى كيف تحاول تركيا جاهدة أن تنفك من قيود فرضها عليها كمال أتاتورك بإبعادها عن ثقافتها الشرقية ورميها فى أحضان الثقافة الأوروبية التى أوصلتها إلى حالتها الراهنة .

ومن المؤسف حقاً أن يكتب كاتب اشتراكى تقدمى ما يأتى :

"المصرى يكتسب إذا تزوج من الأوربيين ، ولكنه ينحط كل الانحطاط إذا مزج دمه بدم الزنوج. وفى مصر اليوم نحو مليون أوروبى لو اندمجوا فى جسم الأمة لاكتسبنا بهم نشاطاً وذكاءً وجمالاً ، وهم ليسوا أجانب عنا إلا فى اللغة لأننا آريون مثلهم" .

ولعل صاحب هذه الكلمات عاش حتى موت ديانا التى أحبت عماد الفايد المصرى - وهل مات الكاتب قبل دعوة هتلر بأن الألمان فقط هم الجنس الآرى والعرب من حثالة الأجناس .

ويكتب **لويس عوض** فى عدد الأهرام الصادر يوم الجمعة ٧ أبريل ١٩٧٨م مقالاً بعنوان (الأساطير السياسية) جاء فيه :

"إن أسطورة الدعوة الانعزالية لا تقل شططاً عن الدعوة إلى الوحدة الاندماجية الكبرى القائمة على العروبة العرقية أو العنصرية الملتهمة لكافة ما فى المنطقة من قوميات ، فالعروبة العرقية لون

من ألوان النازية". (عن كتاب لرجاء النقاش عن الانعزاليين فى مصر) .

ونتساءل فى أية لحظة من لحظات دعوة القومية العربية ، كانت الدعوة عرقية ، والتعريف البسيط الواضح للقومية العربية ، إن كل منتسب إلى البلاد العربية ويتكلم اللغة العربية هو عربى مهما كان اسم الدولة التى يحمل جنسيتها بصورة رسمية . ومهما كانت الديانة التى يدين بها والمذهب الذى ينتمى إليه ومهما كان أصله ونسبه وتاريخ حياة أسرته ، فهو عربى ، والعروبة ليست خاصة بأبناء الجزيرة العربية ، وكل ما قلناه عاليه ينطبق بصورة واضحة على كل أمريكى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وكل فرنسى يعيش فى الدولة الفرنسية ، أو إنجليزى فى انجلترا بصرف النظر عن جنسه أو ديانته .. والغريب فى الأمر أن **لويس عوض** الماركسى يعترف بالقوميات فى المنطقة - ولكنه هنا يعترف بها تحدياً فقط ووقوفاً أمام الوحدة العربية التى هى فى الأساس ضد ما تدعو إليه الماركسية .

وهل من المنطق أن يهاجم **لويس عوض** القومية العربية وهو الذى عاش أخطر أحداثها منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو وحتى وفاة **جمال عبد الناصر** . هل كانت دعوة **عبد الناصر** إلى القومية العربية دعوة عنصرية ، وهو يحاول أن يوّحد العرب لصد الغزوة العنصرية التى قامت بها الصهيونية لإقامة دولة إسرائيل من النيل إلى الفرات .

أما **السيد يس** فقد سبق أن ذكرنا ما قاله بهذا الخصوص ونكرر فقط مقطعاً بسيطاً مما قاله باعتباره هو النموذج الأول الذى ينبغى أن يحتذى :

"أصبحت أوروبا هى قبلتنا ، ونسينا أهمية تطوير تقاليدنا الفكرية ، وتحديث تراثنا الثقافى الزاهر وربطه بإنجازات الفكر الإنسانى المعاصر" .

والكاتب يرى أنه يحقق ذلك بحماسه الشديد للنظام العالمى الجديد والكونية وسقوط القومية ، وزوال حدود الدولة ، وغياب الاقتصاد القومى لمصلحة الاقتصاد العالمى ، وغير ذلك من الأفكار التى يرددها فى مقاله الأسبوعى بالأهرام .

هذا على الرغم من أن فلاسفة ما بعد الحداثة مثل **جان فرانسوا ليوتار** أو الراحل **ميشيل فوكو** يعتبرون هذا المذهب غير مرغوب فيه على أساس أن مذهب العالمية قد يعيق تنوع أشكال الحياة البشرية ، والذرائعيون المحدثون الأمريكيون أمثال **ريتشارد رورتى** ، وأتباع مذهب **أرسطو** الإنجليز المحدثين يذهبون إلى أبعد من ذلك فيرفضون حتى أفكار وجود أخلاقيات عالمية على أساس أن القيم الأخلاقية كلها فى رأى **رورتى** تقوم على أساس الرضى المحتمل الذى تولده تقاليد ثقافية معينة .

ويقول شكرى عياد فى (الهلال) :

"وإذا تحدثنا عن النقل ، فيجب ألا نخادع أنفسنا فنحن ننقل منذ أكثر من مائة عام ، وليس العيب فى أن ننقل من الثقافة الغربية التى سبقتنا بعدة قرون ، والعيب أننا لا ننقل بهمة وكفاية ، والدليل هو أننا قد بدأنا حركة نقل الثقافة منذ عصر محمد على نجد أنفسنا اليوم أشد بُعداً عن النهضة الحديثة مما كنا فى عهده" .

هذا اعتراف صريح بأننا ننقل ، وأننا مازلنا فى حاجة إلى النقل لأننا عاجزون عن الإبداع ولم يقل الكاتب الذى يرتضى النقل عن الغرب ، أن عملية النقل هى نفسها السبب فى بعدنا عن النهضة الحديثة ، وتخلفنا عما كنا عليه فى عصور سابقة ، بل عقود سابقة .

ونحن لسنا ضد النقل ، وعلينا فقط ونحن ننقل أن نميز بين ما هو علمى ، وما هو ثقافى . وصناع الثقافة العرب ليس عليهم فقط أن يدعوا بكل قوة إلى نقل العلوم المتقدمة فى الغرب ، ولكن عليهم التزام قومى أن يصوغوا ثقافة عربية تخدم التقدم العلمى والتقنى ، وهم لا يستطيعون فعل ذلك إلا إذا وضعوا فى مركزها القيم والأخلاق . وهى لا تستمد من أية ثقافة أجنبية مهما ادعى المتخاذلون والكسالى ... العملاء أولاً وأخيراً لثقافة الآخر .

وعن موقف المرأة تقول **سلمى الحفار الكوزبرى** فى العربى (مايو ١٩٩٦) :

"إذا اعتمدنا الحقيقة والمنطق نرى أننا غائبات عن هذا العصر فكرياً وروحياً ما عدا قلة ضئيلة فينا . وإذا انطلقنا من الإحصائيات الحديثة نجد أن أكثر من نصف نسائنا أميات والنصف الآخر منقسم إلى قسمين ، فريق عاجز عن المشاركة والتأثير إما لسيطرة القوانين الجائرة ، ومنعها لإنطلاقتهن للعمل والبناء بحرية ، وإما لضعف الوعى عندهن وحب التقليد للغرب تقليداً أعمى فى اللباس والسلوك بدلاً من الاعتزاز بأصالتهن وإدراك دورهن الخطير ومسئوليتهن فى محاربة كل غريب عنا يتنافى مع طموحتنا لنهضة اجتماعية ، وتربوية ، وفنية ، وثقافية نحن فى أمس الحاجة إليها اليوم وغداً أمام التحديات الماثلة أمام أعيننا التى تتطلب بإلحاح تضافر جهودنا رجالاً ونساءً معاً" .

وحتى لا نتهم بعدائنا للمرأة ، نكتفى بالقول بأن المرأة العربية فى كثير من البلاد العربية أخذت كل الحقوق التى تخولها لها قوانين العصر ، وبقى أن تسعى جاهدة للإفادة من هذه الحقوق لنصرة قضيتها إذا رأت أنه مازال لديها قضية ، أما إذا رأت عكس ذلك ، فما عليها إلا أن تتقدم لتشارك الرجل فى جميع نواحى الأنشطة المدنية اجتماعية كانت أم سياسية ، ولا يصح أن تقنع بأن تظل مواطنة من الدرجة الثانية تسير خلفه تسانده فقط ، هذا دور مطلوب لا شك فى ذلك ، ولكن

الدور الأهم هو المشاركة فى قيادة الأمة نساءً ورجالاً ويبدو أننا بدأنا نحلم ، فما قلناه مازال فى حيز الآمال والأحلام التى تبعد كثيراً عن عالم الواقع ، ومازلنا ننتظر الإعلان عن المشاركة الفعلية للمرأة والرجل فى حياتنا العامة الثقافية والسياسية والاجتماعية .

ولقد شجعنا على الإقدام على كتابة هذه الشهادات الاعتراف الفعلى لبعض مفكرينا الكبار الذين نهلوا من تيارات الفكر الغربية بخطئهم فى تجاهل التراث . ولكن اعترافاتهم جاءت متأخرة جدا.

يقول **زكى نجيب محمود** فى كتاب (حصاد السنين) واصفاً أسلوب مفكرى هذا العصر :

"وكانت نقطة البدء جمهورية أفلاطون التى رسم فيها الفيلسوف اليونانى العظيم صورة للدولة المثلى ، ثم تسلسلت المؤلفات الطوباوية التى اختارها صاحبنا ليهرب فى صفحاتها من حياة ثقلت رحاها على صدره فكان اختياره الثانى هو "يوتوبيا" تأليف "تومس مور" وأما اختياره الثالث فكان " أطلنطس الجديدة " الذى كتبه "فرانسيس بيكون" الفيلسوف الإنجليزى فى عصر النهضة وقفز صاحبنا بعد ذلك إلى ما كتب فى العهد الأحدث خلال القرنين الأخيرين فقرأ "جنة أرضية " من تأليف "صمويل بيكر " و "يوتوبيا حديثة " بقلم "و.ج . ويلز "ولم يكن قد نسى أراء أهل المدينة الفاضلة للفيلسوف العربى " أبى نصر الفارابى " .

ويقول زكى نجيب محمود فى كتاب آخر :

" ولقد كان كاتب هذه السطور خلال الشطر الأول من حياته الواعية ممن وقفوا بانتمائه المصرى عند حدود مصر لم يتجاوزها متراً واحداً فيما يجاورها ، ولكنه رأى بعد ذلك طبعاً - رأيا آخر ، وهو لا حياة للمصرى إلا فى نمطه الثقافى الذى يميزه ويمتاز به فإذا تبين أن ذلك النمط إنما هو بداية النمط الذى نطلق عليه اسم العروبة ، كان الصواب هو أن المصرى عربى الرؤية الثقافية حتى قبل أن يفتح العرب مصر عقب ظهور الإسلام".

ويأتى كاتب عربى آخر ليقولها أكثر صراحة ويعلن **عادل حسين** عن ارتداده عن الماركسية بقوله :

"وفى هذه الأثناء كانت مواقفى القومية قد تحددت ، وبدأ التزامى بتاريخ أمتى واحترامى لإنجازاتها ، وتراثها يرتبط مع مفاهيم نقد الأفكار الغربية عموماً وكان ذلك بمثابة الانفتاح المتزايد من قبلى على الثقافة الإسلامية ، ثم على الإسلام كدين وأوصلتنى الدراسة فى نهاية الأمر إلى أن أكون داخل الدائرة الإسلامية بكل قوتها ، وانشرح صدرى لهذا الأمر الذى أحدث اكتشافه

وعدت إليه ، ولكن بعمق أكبر مما كان فى السابق ، أى فى أيام صباى ".

من المؤكد أن هذه الشهادات عن ثقافة القرن الماضى التى نقلناها حرفيا عن أصحابها تكفى بدرجة كبيرة لإدانتها والحكم بإعدامها ويبدو أن أصحابها قد فشلوا فى تمثيلها حتى يقدموها للجمهور بطريقة واعية .

يقول **زكى نجيب محمود** فى (حصاد السنين) :

" إن روادنا من أعلام الجيل الماضى وبرغم ما كانوا يعرضونه مبثوثاً فى ثنايا ما يكتبون من قيم الحرية والعدالة والمساواة ... إلخ فقد كانوا - على الأعم الأغلب - أحرص الناس على أن تبقى مسافات بعيدة بينهم وبين من يتعاملون معهم من سواد الناس يعنى ذلك إذا لم تكن رسالة الكاتب قد أحدثت أثرها فى شخصه هو فهل يتوقع لها أن تحدث أثرها فى الآخرين" .

وفى العربى العدد ٤٥١ (يونيو ١٩٩٦) يقول **محمد جابر الانصارى :**

"وللأمانة فإن مدارس الفكر العربى الحديث وتياراته لم ينقصها تعمق نظرى فى الأفكار والفلسفات التى اطلعت عليها واقتبست منها ، ولكن المشكلة أن هذا الفكر بقى فى معظمه مراناً ذهنياً فوقياً يركب الأفكار والتنظيرات المجردة ، ثم يعيد تركيبها وترتيبها أو قلبها حسب متطلبات الظروف دون أن يولى كبير اهتمام لمدى علاقة هذه الأفكار بالواقع وبالوقائع والحقائق المتعلقة بها أو المتجهة للتعاطى أوالتعامل معها ، أى ذلك الواقع المرتبط عضوياً بخصوصية الذات العربية الجماعية ماضياً وحاضراً .

فالغائبان الكبيران فى صميم الفكر العربى هما التراث والواقع ، خصوصية الذات الجماعية للأمة والواقع بما هو تاريخ وحاضر لذلك التراث بمعناه الحضارى الشامل" .

مشروعنا الحضارى

يكتب الكثيرون عن مشروعنا الحضارى يصفونه تارة بأنه مشروع قومى ، وتارة أخرى بأنه مشروع إسلامى ، وبالطبع يأمل الآخرون فى مشروع ماركسى أو مشروع ليبرالى .

ويتصور البعض أنه كان لدينا فعلاً مشروع قومى قد تجسد مع دعوة عبد الناصر للقومية العربية، وقد يكون صحيحاً أن شعار القومية رفعته ثورة يوليوبعد نجاحاتها المبكرة فى تأميم القناة وكسر احتكار السلاح والتعاون مع الكتلة الشرقية والوقوف أمام القوى الاستعمارية ، ورفض الدخول فى الأحلاف العسكرية - هذا المشروع يدّعى البعض أنه انكسر مع هزيمة العرب فى يونيو ٦٧ ، ويتصور الكثيرون ويجادلون ويحللون بناء على هذه الأحداث ..

وحقيقة الأمر أنه لم يكن لدينا أى مشروع قومى ، بل كان هناك انتفاضة عارمة تشمل كل أقطار العالم الثالث التى كانت ترزح تحت الاستعمار ، وتعانى استبداد الطبقات الحاكمة المتعاونة مع القوى الاستعمارية - ولم يختلف الوضع فى البلاد العربية . وكان الاستعمار الإنجليزى مازال يحتل أجزاء كبيرة من الوطن العربى ، كما كانت أجزاء أخرى تحت السيطرة الفرنسية ، وحينما رفع **جمال عبد الناصر** شعار مقاومة الاستعمار ، هبت شعوب العالم الثالث تتجاوب مع هذه الوثبة الجديدة ضد قوى البغى والطغيان ، ورأت **عبد الناصر** رمزاً للتحرير والكرامة .

صار **عبد الناصر** فارساً فى فريق حركة التحرر الوطنى التى عقدت أول مؤتمراتها فى باندونج. وسريعا ما ظهرت رموز أخرى فى العالم الثالث كوّنت مع **عبد الناصر** وحدة الكفاح ضد الاستعمار فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وأصبحت القاهرة مقصد كل ثوار العالم وخاصة الثوار الأفارقة والعرب.

وقد يختلف الوضع قليلاً فى الدول العربية من ناحية الجوهر ، ولكن من ناحية المظهر كان الهدف العام فى الدول العربية هو محاربة الاستعمار والتخلص من القوى الرجعية الداخلية مع اختلاف بسيط وهو أن البعثيين والقوميين فى المشرق العربى كانوا يرفعون شعار الوحدة العربية..

وحينما دخل **عبد الناصر** معركة تأميم قناة السويس وخرج منتصراً منها بعد أن وقف العالم كله مع مصر ضد قوى العدوان الثلاثى ولعبت أمريكا دوراً خاصاً تمثل فى ضغطها على فرنسا وإنجلترا حتى سحبتا قواتهما من مصر، وضح مدى تأثير الشارع العربى فى تقوية مركز مصر وثقلها ، بل يمكن القول مركز الأمة العربية وثقلها ، لقد اتجهت الشعوب العربية بقوة غير متوقعة، ولكن أيضاً بعفوية واضحة ، تقف وراء مصر تناصرها وتدعمها ، العمال العرب فى صناعة البترول يهددون بقطع الأنابيب ، وعمال الموانئ العرب يردون على موقف عمال موانئ وأمريكا من تفريغ إحدى السفن المصريةفى ميناء نيويورك بالمثل ، ويرفضون تفريغ السفن الأمريكية . كانت القومية العربية قبل هذه الأحداث مجرد إجراء رسمى يتمثل بالجامعة العربية ولا يدرك أبعاده الحقيقية أى قائد أو حتى جندى أو فرد من الشعب ، ولكن بعد معركة التأميم تحوّلت إلى حقيقة تجسّدت فى اندفاع الجماهير والتفافها حول مصر وقيادتها . هذا التجاوب مع دعوة **عبد الناصر** للوحدة أعلنته الجماهير بطريقة عفوية ، ولكن الطبقات الحاكمة والنخب التى رأت أن الاتجاه إلى الوحدة ليس فى مصلحتها أخذت فى محاربتها والوقوف أمامها منذ البداية ، وإن لم تظهر ذلك علانية .

تطلّعت شعوب الأمة العربية من الخليج إلى المحيط إلى الوحدة العربية . وكان ذلك شيئاً طبيعيا ، فالناس الذين كانوا يعيشون في أكواخ من الصفيح أو القماش ، وحتى فى بلاد النفط بالخليج العربى تطلّعوا إلى الوحدة لتخلصهم من حياة البؤس والشقاء .

وفى الوقت نفسه كانت أجزاء كبيرة من الأمة العربية تقوم بثورات كبرى ضد الاستعمار الإنجليزى فى المشرق العربى وضد الاستعمار الفرنسى فى المغرب . وصوت العرب يعبر عن لسان المناضلين فى كل جزء من الوطن العربى من الخليج إلى المحيط . . أيام خالدة حقيقة عشناها .. وحلمنا بإمكان قيام دولة عربية من المحيط إلى الخليج .

والغريب أن المد القومى كان أقوى بكثير خارج مصر عن داخلها . كل ذلك يحدث من حولنا والكثيرون من المصريين لا يدركون معنى القومية العربية ، ولا يشعرون بالشعور القومى العربى خارج مصر ، بل إن الكثيرين كانوا غير راضين عن اندفاع حكومة مصر فى مساندة قضايا الأمة العربية ، ويتساءلون وبأصوات عالية لماذا ننفق أموالنا على العرب ؟ لماذا نساعد الجزائر ، واليمن ، ودول الخليج ، ولبنان والعراق ؟

وفى مصر وخارج مصر كان أو ل من حارب الوحدة العربية الماركسيون ، وكان **خالد بكداش**

في سوريا يقف موقف المعارضة لها ، وفرَّ هارباً إلى روسيا بعد قيام دولة الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨م .

وكل المثقفين فى مصر وبدون استثناء لا يعتقدون فى القومية العربية . . فهناك تيار إسلامى قوى يفكر في وحدة الأمة الإسلامية ولكنه لم يتحرك خطوة واحدة خارج إطار نظرى ، كان يتكلم حوله فقط دون الشروع في خطوات للتنفيذ .

أما هؤلاء الذين ساروا فى صفوف **عبد الناصر** ، ركبوا الموجة ورفعوا الشعارات من باب النفاق والانتهازية والمكاسب الشخصية . وقد يعترض البعض ، و يدّعى أن ما نقوله غير صحيح، نرد هذا برهاننا :

هل يمكن أن يعتقد أحد مدّعى الناصرية فى القومية العربية دون أن يعترف بفضل مفجرها مهما تكن أخطاؤه ؟ وهل يمكن أن يعتقد أحد فى القومية العربية دون أن ينضم إلى الحزب الناصرى أو إلى أى حزب قومى آخر بعد وفاة عبد الناصر .

حقيقة الأمر لا يوجد فى مصر مشروع قومى أو مشروع إسلامى طالما أن الجماهير مسلوبة الإرادة ومنسحبة من الساحة العامة منطوية ومنكمشة لا تشارك فى الحياة العامة بحجة أو بأخرى. وقد يبرر الكثيرون عدم مشاركتهم بأن النظام الحاكم ، أى نظام ، يزور إراداتهم ، فلا يذهبون إلى صناديق الاقتراع فى أى انتخابات عامة تجرى .

وقد نرى المشروع الإسلامى تفرضه الجماهير فى الجزائر التى ذهبت إلى صناديق الاقتراع لتعطى الأصوات لرموز المشروع الإسلامى أما فى مصر فالجماهير المغيبة لا تفرض مشروعاً ولا تسعى لتحقيق هدف ما ، فهى إذن ليست صاحبة مشروع ... ، وتزوير الانتخابات والانسحاب تبعاً لذلك عذر قد يبدو وجيهاً غير أن الحقيقة أن الجماهير المصرية قد قررت الانسحاب من الحياة العامة منذ زمن طويل وحتى قبل ظهور ما يسمى بالنظام الديمقراطى وإجراء الانتخابات لاختيار ممثلى الشعب فى البرلمان .

الحقيقة لا يوجد مشروع قومى أو إسلامى وما نسعى إليه البحث عن أسباب غياب المشروع ، أى مشروع . . .

يجرنا هذا البحث إلى الجذور ، فالتاريخ يشهد أن المصريين فى معظم فترات التاريخ حكمهم حكام من خارج مصر . هذه حقيقة تضرب فى أعماق التاريخ .

فمنذ حكم الفراعنة فى مصر القديمة ، حكم مصر الإغريق والرومان ثم العرب ، فالمماليك ، فالعثمانيون حتي جاءت أسرة محمدعلى ... ثم ثورة يوليو وحكم عبد الناصر والسادات ... ومبارك .

ويبدو أن حضارة مصر العظيمة التى شيدها الفراعنة انهارت مع دخول الإغريق ثم الرومان إلى مصر القديمة . وقد يكون سبب ازدهار حضارة مصر القديمة الفكر السائد وقتذاك الذى جعل المصريين يشاركون فى صنع الحضارة ، وحتى لو كان المشاركون يمثلون طبقة متميزة فى قمة الهرم الطبقى للمجتمع ، من المحتمل أن الطبقة الوسطى التى كانت تضم الكهنة والكتاب والمعماريين وضباط الجيش كان لها دور كبير فى إدارة البلاد .

وبعد دخول الرومان مصر ، وتحولها إلى الديانة المسيحية ، يبدو أن ذلك أدى إلى اختفاء اللغة المصرية القديمة ، وحلت محلها اللغة القبطية ، ومن هنا بدأت أولى حلقات انقطاع الفكر المصرى عن جذوره ، نقول الفكر وليس العادات والتقاليد ، واختل توازن المجتمع المصرى ، فالطبقة الحاكمة طبقة دخيلة أجنبية ، والطبقة المتوسطة تفقد مصادرها فى المعرفة والفكر ، وهى لا تعرف بعد لغة الغزاة الحكام ، ذلك بالطبع لم يمنع اشتغال بعض المصريين بعد فترة بجانب الرومان فى الفلسفة والفكر وإن كانت طبقة رقيقة .. وبالطبع كان حكم الأجنبى حكماً مستبداً وكلما زاد الاستبداد ، انسحب المصريون من الحياة العامة. وظلت مصر تحت حكم الإغريق ومن بعدهم الرومان حتى الفتح العربى(٣٢٣ق.م -٦٤١م).

وفى خلال تلك الحقبة الطويلة من التاريخ باتت مصر ضيعة لحاكم الإسكندرية وجنرالاته وكبار المرتزقة ، وصار لزاماً على الفلاح المصرى المغلوب على أمره أن يوفى جزءًا من حصاد قطعة أرضه الهزيلة إيجاراً ، وأن يحمل ما تبقى من حصاد إلى شونة التاج أو الحكم هذا إلى جانب ضريبة الرأس التى أُكره عليها المصريون فى حين أُعفى منها الأجانب .

ولم يكن التجار فى المدن أسعد حالاً من مواطنيهم الفلاحين ، واضطروا هم أيضاً إلى دفع الضرائب الباهظة - ورغم هذا القهر الشديد فإن المصريين ظلوا متمسكين بتقاليدهم وعاداتهم - دون فكر يطور منها ، وبذلك ظلت بدائية متخلفة طوال الوقت .

ولما جاء الفتح العربى - سلم له المصريون دون مقاومة تذكر ، لأنهم كانوا يتطلعون إلى التخلص من حكم الرومان ، ولا يمكن أن نقول خلاف ذلك إذا علمنا أن قوات الفتح العربى بقيادة **عمرو بن العاص** لم تتعد أعدادها الأربعة آلاف جندى .

ويقول **كلوت بك** في كتابه المهم (لمحة عامة إلى مصر) :

" فإن الشعوب القاطنة فى وادى النيل لم ينقصهم الفاتحون إذ يظهر أنهم مقضى عليهم باستمرار بالتبعية والخضوع لغيرهم ، ولسنا ننسى أن الطبقات الكهنوتية والعسكرية كانت واضعة نير العبودية فى أعناق تلك الشعوب . ثم جاء الفتح الفارسى وتلاه الفتح اليونانى الذي لم يلبث أن حل محله الفتح الرومانى فالفتح العربى فحكم المماليك والأتراك . فلم يطرأ فى خلال هذه الأدوار ما يغير من شأن الأمة المصرية لأنها ظلت رازحة تحت أثقال أولئك المغيرين حاملة نير تسلطهم وتحكمهم فيها ، ولم يرد فى أخبارها السابقة ما دل على أنها كانت ذات أثر فى شئونها الخاصة ولا مداخلة فى مصيرها " .

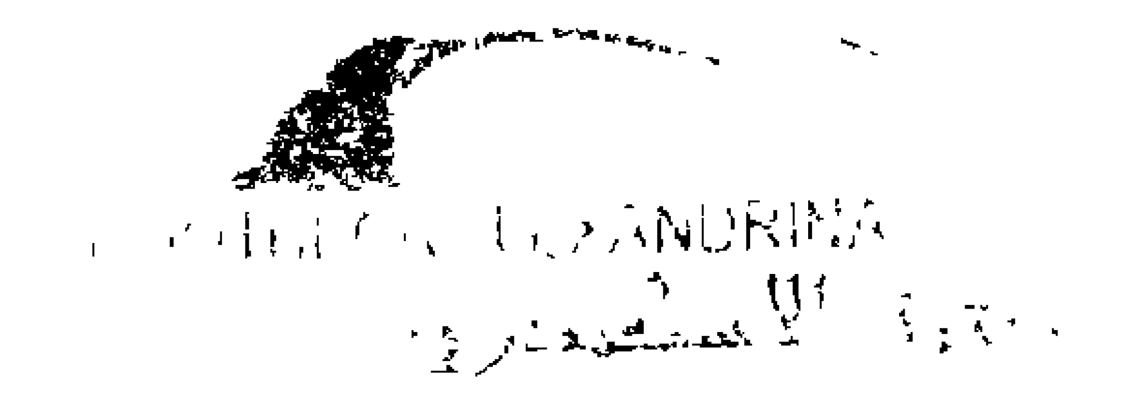
ويحدث مرة أخرى أن تتغير اللغة فى مصر إلى اللغة العربية ، وقد استغرق هذا التغيير حتى يتم حوالى ثلاثة قرون . ومن المحتمل أن هذا التغيير الأخير أكد انسحاب المصريين تماماً من حياة الفكر هذا على الرغم من أن الفتح الإسلامى وحضارته العظيمة حاولت فى إنشاء مشروع لدولة كبرى في المنطقة . وينبغى الآن أن نسأل إلى أى مدى ساهم العقل المصرى فى بناء الحضارة الإسلامية ؟ والإجابة على هذا السؤال ليست بالمسألة السهلة فهى تحتاج إلى كتابات أخرى تخرج عن نطاق هذا الجهد المتواضع .

والواقع كما تدل عليه أحداث الحقبة الأخيرة من تاريخ مصر أن أغلبية المصريين ظلت تعيش منزوية بعيداً عن الحياة العامة ، معظمهم فلاحون يعملون فى القرى والكفور المنتشرة على طول وادى النيل والدلتا ، ولم تشجع القيادات الحاكمة المصريين على المشاركة فى الحكم وإدارة أمور البلاد .

وفى ظل هذا الكبت السياسى والتخلف الثقافى ، كان المصريون دائماً يتطلعون إلى ساعة الخلاص ، وما أن يتراءى لهم أن هناك حاكماً أرسلته الأقدار ليراعى مصالحهم ، حتى يسارعوا بإعطائه التأييد الكامل .

كما حدث مع **محمد على** .. وحينما شعر المصريون أن **محمد على** خانهم بعد أن احتكر الأراضى ووزعها بين حاشيته وأعوانه ، تبدّل الترحيب بالسخط العارم ، وضعف حماس المصريين للمشاركة فى العمل العام ، راحت النهضة التى بدأت فى أول حكم **محمد على** تتدهور فى أواخر حكمه وربما تدهورت أكثر فى عهود من خلفوه ، وما لبث المصريون أن رجعوا إلى حياتهم التقليدية المتخلفة .

ويقول **د . محمود عودة** فى كتابه (التكيف والمقاومة - الجذور الاجتماعية والسياسية للشخصية المصرية) :



"ومن رؤية بعض الأجـانب للمصريـين فى عصر مـحمـدعلى فيذهب أحـدهم إلى أن " أبناء العرب وهم الجمـهرة العظمى من السكان يعاملون على أنهم قوم حلت بـهم الهزيمة ، وليس ثمة عمل سوى عمل واحد يطالبون بأدائه وهو خدمة الأرض وزراعتها ، أما الوظائف والسلطان فمن نصيب شعبين غريبين عن مصر هما الترك و المماليك " .

ويقول لين : " قاست مصر ، هذه السنوات الأخيرة من تقلبات سياسية عظيمة ، وزالت تبعيتها للباب العالى إلا قليلا . وقد استقل حاكمهـا الحالى محمد على تقريباً بعد أن أباد الغز أو المماليك الذين شاركـوا أسلافـه فى ا لحكم ، وهو خلافـًا لذلك يتمـتع بسلطة لا حد لهـا فهو يسـتطيع أن يقضى على أى فرد من رعاياه دون محاكمة أو تعين سبب .

ويتعدى أغلب حكام الأقاليـم فى طغيانهم حدود السلطة التى خولها لهم البـاشا ، حتى شيخ القرية يسىء استعمال سلطته الشرعية عندما ينفذ أوامر رؤسائه ، وتكون للرشاوى وأواصر القرابة والمصاهرة أثرها فى تصـرفات هؤلاء فيـخففـون الظلم عن البعض بينمـا يضاعفـونه على البعض الآخر ".

وقد يقـول الباحثون فـى سبب سقوط مـشروع **محـمد على** أن القوى الاستعمارية حـاصرته وأرغمـته على تصـفية مـشروعـه النهضوى. من المحـتمل أن تحـد القوى الاسـتعماريـة من النفوذ السياسـى والعسكرى للدول الأضعف ، ولكن لا تستطيع بـأى حال من الأحوال أن تعيق تقـدمها العلمى والتقنى ، فهذا لم يحدث فى اليابان وألمانيا بعـد الهزيمة فى الحرب العالمية الثانية ، وسيطرة الحلفاء علـيهمـا ، ، ولا يمكن أن يحدث هذا فى الصين أو فى النمـور الآسيـوية اذا تعرضت لأى غزو أجنبى .

وقـد يرجع بعض الكتـاب تخلف مصـر إلى سـيطرة الدين . وذلك لا يتـفق مع خطوة مصـر الكبيرة فى بداية نهضتهـا لصنع تقدم صناعى كبير ، بدأه **محمد على** فى ظل تخلف دينى وثقافى لا ينكره أحد ، وفـي أوائل القرن قام **طلعت حرب** بتشيـيـد صرح صناعى عظيم من خلال إنشائه لبنك مصر وشـركاته الكبرى ، وفى عقود حديثة أقـامت ثورة يوليو نهضة صناعيـة فريدة فى فترة قـصيـرة ، لايضاهيـها نهـضـة فى التاريخ من ناحية عـددالصناعـات التى أقيـمت . ولا أظن أن المؤرخين لهذه الفـترة يرجعون هذا التقـدم إلى تحرر بعض القيادات من تأثيـر الدين وسلطته ، وأن هذا التيـار ما لبث أن انهار تحت تأثيـر المتدينين الراسخـة أقدامهم والذين يحـد من قدراتهم الدين ويكبح ملكاتهم .

ولا يرجع الكتاب هذه الانتكاسات المتكررة إلى طبائع المجتمع المصرى ، فاما الاستعمار هو السبب ، أو الدين ، أو السلطة الحاكمة وكلها أسباب تذكر كلما تكلمنا عن حالة الانكسار فى عهد **محمد على** ، أوفى عهد **عبد الناصر** .

إن ماحدث فى مصر فى الحقبة الحديثة هو شبيه بماحدث فى عصر **محمد على** - وجد الشعب المصرى فى **جمال عبد الناصر** الأمل الذى ينتظره ، فاندفعوا وراءه ، ورحنا نحلم ، وتأثر بالحلم الكتاب والفنانون أكثر من غيرهم ، فأخذوا يبدعون ، ورأينا نهضة كبيرة لا ينكرها أحد . فن عظيم يعبر عن حلم كبير. كنا نريد أن نسابق العالم ، ونصل إلى أعلى درجات الرقى ، وفجأة يقع البطل، ويتحطم الحلم ، وينزوى المصريون مرة أخرى . انسحب المصريون من الحياة العامة لأنهم لم يتعودوا المبادرة ، ينتظرون دائما القائد كما عودتهم أحداث الزمن . . ولو جاء بعد **عبد الناصر** بطل آخر بنفس صفاته لاستمرت المسيرة . . قد يخالفنى الكثيرون . والواقع يؤكد ما أقول . لقد استمرت المسيرة فعلاً حتى حققنا نصر أكتوبر ١٩٧٣ - ولكن ما لبث **أنور السادات** أن انحرف بالمسيرة ولجأ إلى سياسة جديدة متخاذلة جرّت علينا الكثير من الكوارث المتلاحقة التى تعانى منها الأمة ، والشعب المسكين يرتشف مرارة خزى الهزيمة وعارها .

لقد هُنا على أنفسنا بعد أن عرَّضنا القائد إلى المهانة .. فيرفضه الشعب وينزوى مرة أخرى منسحباً من الحياة العامة .

ويحلو للبعض الذى يناصر **السادات** ويؤيد سياسته أن يقول أن القومية العربية انتهت مع نكسة يونيو ١٩٦٧ - وهذا غير صحيح فالشعب المصرى ومن ورائه الشعوب العربية راحوا يؤيدون **السادات** ويسيرون معه حتى نصرأكتوبر المجيد ، وفى هذه الأيام كما سبق أن أوضحنا تجلّت القومية فى أعظم صورها .

فى أعقاب حرب أكتوبر أرسلت أمريكا وزير خارجيتها **كيسنجر** إلى المنطقة ليبدأ رحلاته المكوكية التى أفلحت تماماً فى استئناس **أنور السادات** وتطويعه حتى ينزلق فى الفخ الذى نصب له، وينتهى الأمر إلى اتفاقية كامب ديفيد ، وكل الدبلوماسية المصرية تعترض ولكن بدون فائدة - وكان الخلاف بين **محمد حسنين هيكل والسادات** أساسه أن **هيكل** كان يرى أن **السادات** ضيّع المكاسب التى كان يمكن أن نجنيها من الحرب .

وهنا ينهار كل شىء ويتفكك العرب ، ويُتخذ قرار مقاطعة مصر فى مؤتمر بغداد - وتبدو الفرص سانحة أمام القيادات العربية التى كانت منذ البداية ضد القومية العربية والوحدة لتوجه

ضربتها ، بل ضرباتها إلى القومية العربية التى بدأت فعلاً منذ تلك اللحظة فى الانهيار ، ولم تكن أبداً هزيمة يونية بداية الانهيار كما يريد أن يصورها أتباع **السادات** وأصدقاء أمريكا فى المنطقة ، بل كانت هزيمة يونيو المقدمة الحقيقية لانتصار أكتوبر العظيم .

وأدت هذه التحولات فى سياسة السادات إلى سيطرة أمريكا على المنطقة ، وكان هذا هو السبب الرئيسى لظهورعناصر الإرهاب ففى حالات اليأس التى كانت تمر بمصر كانت تندلع من حين لآخر حركات الإرهاب يقوم بها بعض اليائسين - والإرهاب إذن ليس موجة جديدة تظهر لأول مرة فى مصر، وعلى مر تاريخها الطويل تقوم انتفاضات يائسة سرعان ما تخمد لأنها لا تجد السند القوى لدى جماهير الشعب الغائبة ، وها هى ذى انتفاضة الشعب المصرى فى عام ١٩٧٧ م والتى سمّاها **السادات** انتفاضة حرامية. هذا الإرهاب لا يدل أبداً على وجود تطرف دينى أو مشروع دينى - فلا يوجد فى مصر هذا المشروع حتى الآن - فجماعة الإخوان المسلمين كانت قوة لا يستهان بها فى الخمسينيات وقبل اندلاع ثورة يوليو ، ومع ذلك لم تكن تستطيع الوصول إلى السلطة وحينما كانت تجرى الانتخابات كما حدث فى عام ١٩٥٠ يفوز حزب الوفد بالأغلبية ، ويرجع ذلك فعلاً إلى ما قلنا فإنه على الرغم من قوة تدين الشعب المصرى والتفافه حول جماعة الإخوان ، فإنه لم يترجم هذا الإيمان إلى واقع سياسى ، ومعنى ذلك واضح وأكيد أن التيار الإسلامى فى مصر رغم قوته لا يمثل خطراً أساسياً ، وتخلف مصر لا يرجع أبداً إلى وجود التيار الدينى فى عهود ما قبل الثورة ، ومع أخطاء **عبد الناصر** ثم ما فعله **السادات** وما نعانى من نتائجه ما زال الشعب المصرى لا يشغل نفسه بالسياسة والمبادئ والأفكار ، فالناخبون فى مصر مستعدون أن ينتخبوا **خالد محى الدين** الماركسى وحتى لو رُشح أمامه شيخ الجامع الأزهر ، **ومحمد حلمى مراد** الوفدى أو المنتسب بعد ذلك لحزب العمل ، **وأحمد رشدى** وزير الداخلية السابق ، **وضياء الدين داود الناصرى ، وحمدى السيد** نقيب الأطباء الحالى ، لأن هؤلاء جميعاً أثبتوا إخلاصهم وولاءهم لهذا الشعب فهم أمناء على مصالحه . فى حين يسقط فى الانتخابات معظم رموز التيار الإسلامى ، وقد يقال أن الانتخابات مزورة ، ولكن حتى فى الانتخابات القليلة التى لم تزور فيها النتائج لم ينجح العدد الكبير من مرشحى التيار الإسلامى لسبب واحد أن قاعدته لا تمثل أغلبية . فالحزب الإسلامى أو أى حزب أخر غير حزب السلطة لا يمكنه أن يكون قاعدة فى فراغ سياسى رهيب يسيطر على المجتمع المصرى . . وذلك لأن الشعب ينسحب من اللعبة بتركها لمن تهيئه الظروف بقدرات الاستيلاء على السلطة فى غياب الجماهير صاحبة المصلحة.. ولعلنا بعد كل ما قدمنا قد أجبنا على السؤال ثورة أم انقلاب ؟ الثورة يقوم بها شعب هيأته القيادات المخلصة

للتغيير ، وطالما الشعب غائب فإن الثورة تفقد أهم أركانها ، وكان يمكن فقط أن تكون حركة يوليو ثورة إذا نظمت الجماهير فى تنظيمات فاعلة نشطة ، ولكن للأسف لم يؤد الاتحاد القومى أو الاتحاد الاشتراكى وحتى حزب مصر أو الحزب الوطنى هذا الدور . والحقيقة أن حركة يوليو كانت ثورة بالفعل أنقلبت إلى إنقلاب لأنها وقعت فى شباك بعض المنافقين الذين يتلوّنون مع توجهات الحاكم .. أى حاكم .

إن التغير يحتاج إلى تضحية ونضال ولأن الجماهير قد انسحبوا من الحياة العامة فكرياً صاروا ضعفاء، لا يميلون كثيراً إلى التضحية ولا يعرفون معنى النضال .يعرفونه فقط وراء قائد يظهر صدفة يتبين لهم صدقه وأمانته وإخلاصه للأمة . . من السهل طبعاً إقناع هؤلاء الجماهير المنسحبة بالعلمانية البراقة- والعلمانية يمكن أن تحقق أهدافاً ويمكن أن تفشل بقدر ما يعتقد فيها أهلها واستعدادهم للتضحية.

وهكذا ضحى الكثيرون فى أوربا لإرساء مبادئ العلمانية ، هؤلاء الذين كان هدفهم الأول وربما أيضا النهائى، تحرير الشعب وإعطاءه حريته كاملة غير منقوصة ، ولم يحدث هذا بالطبع دون التأكيد على الديمقراطية - ونتساءل هل أى علمانى عربى مستعد للقيام بهذه التضحية ؟!

فمعظم العلمانيين العرب يقفون فى صفوف الحكومات الديكتاتورية المستبدة التى تخشى أن تفقد سيطرتها ، ولا يجرؤ هؤلاء العلمانيون أن يعارضوا أو ينقدوا - أو يطالبوا بمزيد من الديمقراطية .هل يستطيع هؤلاء أن يطالبوا بانتخاب المحافظين - ورؤساء الجامعات ، وأن يفتح التلفزيون قنواته لجميع الأحزاب - وأن يسألوا وزير الثقافة لماذا تتكرر سرقة الآثار التى تعلن الصحافة عن أحداثها يومياً . وماذا حدث للمسرح القومى ؟!

يبدو أن الديانة سواء القبطية أو الإسلامية لم تعمل على تزويد الشعب المصرى بخصال تمنحه القوة ليقف أمام عوامل الاستبداد - على خلاف ما كان يحدث أثناء الغزو الأجنبى ضد الحملة الفرنسية والاستعمار الإنجليزى - بل ترك نفسه ينسحق أمام هذه القوى الباطشة ، بقى لديه جزء من إيمان غير كاف أفسدته العادات السيئة التى توارثناها والتى ظن الكثيرون أنها تساعدهم على التحايل على الحاكم وتجنب قبضته ، وكان على المفكرين العرب أن يهتموا بهذه الحقيقة فيحاولوا أن يقووا الإيمان فى ظل الفراغ الفلسفى والفكرى السائد بين جموع الشعب بدلاً من أن يحاولوا فى هدم المصدر الوحيد للقيم والمثل العليا بدعوى أنه السبب فى تخلف الشعب .



نحو بناء ثقافة جديدة

يخطئ التنويريون العرب إذا أصروا على الفصل التعسفى بين الدين والدولة ، فالفصل بين الكنيسة والدولة كما يريد أن يصوره التنويريون العرب لم يكن فصلاً كاملاً على نطاق واسع كما يوحى بذلك هذا المفهوم . فهناك ديمقراطيات حديثة مثل إسرائيل وبريطانيا العظمى بها كنائس ومعابد رسمية قائمة . وللكنيسة الكاثوليكية فى العديد من البلاد وضع قانونى خاص كما فى أسبانيا وإيطاليا وبولندا . وفى الأخيرة ساندت حركة التضامن العمالية التى كان لها دور كبير فى مقاومة استبداد الحكم الشمولى . أما فى ألمانيا فإن الدولة تقدم دعماً مالياً لكل من الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية ، وفى الولايات المتحدة يدعم النظام الضريبى الكنائس المختلفة بصورة غير مباشرة .

والبلدان اللذان أصرا رسمياً وتاريخياً على فصل الدين عن الدولة ، فإنهما اتخذا القرار بذلك لأسباب متعارضة ، ففى فرنسا بعد ثورة ١٧٨٩م تم الفصل لحماية الدولة من سلطة الكنيسة ونفوذها أما فى الولايات المتحدة ، فقد جرى ذلك من أجل حماية العقائد والطوائف الدينية المختلفة من سلطان الدولة . ولعلنا نتذكر جيداً أن أوائل مستعمرى أمريكا أبادوا الهنود الحمر ، ولسخرية القدر كانوا هم أول المضطهدين ممن جاء بعدهم.

ومع ذلك فإن جلسات الكونجرس تبدأ بصلاة عامة ، ويقسم الرئيس المنتخب لأول مرة يمين الولاء للأمة الموحدة بالإرادة الإلهية ، ويقوم هؤلاء (الرؤساء) بالقسم الرسمى بوضع اليد على الكتاب المقدس ، ويقول البعض أنها مجرد شكليات ،ولكن حقيقة ما يجرى فى الولايات المتحدة يشير إلى عكس ذلك تماماً . ولوقت طويل كان يدور الجدل عن الداروينية ونظرية الخلق ، وصدر أكثر من حكم قضائى بتدريس النظريتين فى المدارس . وهذا هو **كليتون** يقف ضد تجارب الاستنساخ من منطلق دينى ، **وآل جور** يدعو إلى حماية البيئة من المنطلق نفسه ، وقبل ذلك وقف **ريجان وبوش** ليمنعا استيراد حبوب الإجهاض من فرنسا بوازع دينى أيضاً .

وفي كل مكان تنبثق من جديد الدعوة إلى إجراء تعديلات وإصلاحات ، وهذا بلا شك تطور

خطير كما نراه فى الوقت الحالى فى أوج تشنجه فى الولايات المتحدة ، وفى لبنان ، وحتى فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق ويوغسلافيا السابقة وأهم من ذلك كله الصراع الدائر على مدى عقود طويلة فى ايرلندا .

يحدث كل هذا لأنهم حاولوا فى أوربا أن ينسوا أن الإنسان كائن دينى ، فهو أكثر من الحيوان السياسى عند **أرسطو** ، والإنسان الذئب عند **هوبز** ، إنه كان دائماً منذ قديم الأزل كائناً اجتماعياً دينياً . ويعترف عالم الحضارة اليونانية الكبير **جان بيير فرنان** بأنه أمضى حياته وهويفكر مع **ماركس** فى أن الأمة والدين ظاهرتان أدانهما التاريخ ، ثم تبين له أنه لا يفهم شيئاً عن اليونان وهو موضوع دراسته اللهم إذا اسلم بكل من المفهومين فى الإنسان بصورة دائمة .

ويعانى المجتمع الغربى أزمة عقلية مرتبطة بظهور فكرة الفرد وتمجيد العقل وتقدم العلم ، وكذا تمجيد الشعوب بصورة قد تصل إلى الشوفينية ، ولم يؤد تمجيد العقل إلا إلى الأيديولوجيات الشمولية .

ولا تصدر أزمة العقل هذه عن العقل الذى ضللته ، ولا عن الحدود العلمية التى فرضها العلماء، إنما تأتى كما يقول الفيلسوف الفرنسى **إيمانويل** نتيجة محاولة الحماية ضد أيديولوجيتين للتقدم ، الليبرالية التى أدت إلى النازية والشيوعية التي جاءت معها الستالينية .

عالم بلا إله يحكمه عقل مبرمج وإن يكن مستنيرا فى سياق يوتوبيا ثبت فشلها ، قد تغير مهمة الدين ولكنها لا تلغى الحاجة إليه ، فعالم من العقلانية بلا حدود ، وثقافة بدون مقدسات ، سوف يكون عالماً بلا أخلاق ولا قيم ، عالما بدون ثقافة ، فليس هناك ثقافة مفرغة من القيم والأخلاق .

وتتمثل الحقيقة التاريخية فى أنه منذ قيام أوربا بغزو العالم ، صدرت المظاهر المأسوية لهذه النزعة الإمبرالية لإبادة الهنود الحمر واستغلال الشعوب ، وتجارة الرقيق ، عن العقيدة العالمية التى يعتنقها الفلاسفة الأوربيون .

ولقد تطورت النظرية الحديثة للفرد بغض النظر عن وصفه الدينى والاجتماعى ، وذلك منذ عصر النهضة ، وبعده اتخذت شكلها النهائى فى القرن الثامن عشر .

وما أن تهدمت معاقل عصر الإقطاع والحكم الاستبدادى فى أوربا حتى امحت بالتدريج مبادئ الفلسفة الإنسانية التى كانت شائعة بوضوح ، فاكتسحتها مطالب الرأسمالية الاقتصادية والصناعية التى أتاحت لها الثورة الفرنسية إمكانات هائلة . وبدأت خطة تستهدف السيطرة على

العالم تدعمها إنجازات الثورة الصناعية المدهشة ، ومنذ ذلك الحين راحت أوربا تصدر إلى غيرها من المجتمعات مجموعة من السمات العالمية المختارة التى كانت تناسب مطالب الاستعمار بعيداً عن أية رسالة إنسانية عالمية .

ومازالت الطبقات السياسية تتمسك بأوضاعها القديمة ومصادر ثرواتها فى العالم الثالث لكى تحافظ على الأرباح التى تجنيها تلك الطبقات من نظام تجارى قائم على عدم المساواة ، والمبالغ الطائلة التى تحصل عليها من بيع الأسلحة والضغوط التى تمارسها على الدول الأكثر فقراً نتيجة لما عليها من ديون ، وكل هذه حجج قوية لتغليب مصالحها على الكلام الغامض والفاتر عن التضامن العالمى .

ونتساءل : هل الغرب مستعد لمواجهة ضياع الامتياز المعنوى الهائل الذى تمتع به طوال الخمسمائة سنة الماضية بأنه القوة المحركة لتاريخ العالم ؟

وبعد أن رقص الناس فى كثير من بقاع العالم على أنغام الغرب ، وكان على سائر مجتمعات العالم أن تكيف أساليبها فى التفكير والعمل والإنتاج حتى تواكب المطالب الأوربية ، وكان لزاماً عليها أيضاً أن تأخذ دروساً من أوربا ، وهى تقاوم محاولتها للفكاك من سيطرتها حيث يصر الغرب على أنه أهل لأن يعتبر نفسه المركز الحيوى للعالم ، وأن أفكاره واكتشافاته الجديدة فضلاً عن خبراته الروحانية والمعنوية والجمالية صحيحة ولها شرعيتها العامة . وهذا ما يعبر عنه **فوكاياما** باعتبار أن ما وصلت إليه الثقافة والحضارة الأوربية هو نهاية العالم ، ويجب أن يتبع كل مجتمعات العالم النموذج الغربى .

بالطبع يقاوم الغرب فكرة التكيف مع عالم معاصر يزداد تحركاً فى اتجاهات جديدة غير متوقعة، ويميل إلى أن ينسل من تحت سيطرته . وحتى الآن أفلح الغرب فى إجهاض محاولات الفكاك من السيطرة لأسباب كثيرة ، نراها بوضوح فى إقليمين بالرغم من بُعد المسافة بينهما ، الاتحاد السوفيتى ، والدول العربية . على مدى سبعين سنة حاول الاتحاد السوفيتى أن يبنى نظاما اشتراكيا يوفر التقدم والرخاء للمواطنين ، إلا أنه فشل فى النهاية ، وبالمثل تحاول الدول العربية بعد أن تخلصت من براثن الاستعمار وعلى مدى ما يقرب من خمسين عاماً فى إقامة اقتصاد قومى ومجتمع متقدم إلا أنها تتعثر في خطواتها ، وهذا ما يحدث الآن فى جنوب شرق آسيا

والغرب إذ يسلِّم جدلاً بأنه يملك مفاتيح العالم لأنه ابتكر مفهوم الإنسان العصرى ، ينسي أن هناك ثقافات أخرى وحضارات ، وخاصة فى مجال الفنون والآداب والأديان ، وصلت إلى قيمة

تتجاوز حدود الزمان والمكان فى سعيها إلى الإحاطة بأحوال البشر بكل ما تخفية من أسرار ، وأنها أنتجت إنجازات بارعة للإنسانية فى الميتافيزيقـا والأخلاق والجمال والفكر العقلانى ، اعتمد عليها الغرب قبل أن يبتكر بدوره رؤية جديدة للإنسان العصرى .

إن صورة المجتمع المثالى الذى يعد الهدف الأخيـر للتقدم ليست واحدة لدى الجميع ، وبالتالى لا تحظى بتأييـد الغالبية لوجود مـواجهة مستمرة بين وعى الانسان باعتبـاره فرداً ووعيـه الجماعى باعتبـاره عضواً فى مجـتمع ، والاثنان جوهريان - ويحدث أن يتـغلب أحدهما على الآخـر تبعاً للظروف والزمان والمكـان أو التقاليـد الثقافـية ، وبالتالى فـلا مجال للقـبول بنظرية نهـاية التاريخ **لفوكاياما** .

ويكمن الفرق فى وسـيلة التقدم بين الشـمال والجنوب فى سمات المجـتمع ، وليس فى الموارد كما يود البعض أن يصورها ، فبلاد كثيـرة تقل فيها المواردأحرزت تقدماً أعلى بكثير من بلاد تزداد فيها الموارد بكثير .

وربما تعتـمد وتيرة التقـدم - وهنا بيت القصيـد - على مشاركة جـماعية حـقيقيـة ، والوحدة القومـية أو الوطنية . . وهذا قليل مـن كثير يمكـن أن يقال عن السمـات التى تساعد المجـتمع على التقدم .

لقد فشل المفكـرون العرب فى تخطيط نموذج للنمو لأن العقليـة كانت تلفيقـية تحاول أن تطبق مناهج الغرب على مجتمعنا دون وعى حقيقى بروح المنهج الغربى والأسس التى بنى عليها .

ومازال المـفكرون العرب يخلطون بين مـا هو ثقافـى وما هو علمى . لم يتـبينوا طبـيعـة الفكر الغربـى حينمـا أكد على النص العلمى الذى يقـترب من اليـقين باعتـماده على الأدلة والـبراهين الواضحة - هذا السعى الذى تمثل فـى مرحلة ما باتجاه وضع فلسفة العلم وصيـاغة نظرية المعرفة . وحتى بعد أن ظن الـبعض أن الغرب قد تخطاها ، تظل الفلسـفة الوضعية هى المهـيمنة على الأقل فى ترشيد المنهج العلمى - وهى أقـرب إلى التطبيق فى العلوم الطبيعيـة التى لا تتأثر بإقليم - أما العناصـر الأخرى التى تكون الجـزء الأكبـر من الثقـافة تعـتمد فى الأسـاس على العـلاقات بين عناصر نظام خاص ببيئة أو مجتمع معين ، يعنى هذا أنها إذن تختلف من مجتمع لآخر ، وفي هذا السـياق نخطئ كـثيـراً إذا قلنا أن عقليـتنا يمكن أن تصـبح غربيـة لأننا بذلك نهمل تمامـا التفـاعل العضوى بين الثقافة والعقل - وعقليتنا لا تنتج الآن ولا تنجح فى تمثل العلوم المعاصرة لأنها عقلية متأثرة بظـروف حالية تختلف عن الظروف الماضـية التى كانت تنتج فـيـها العقلية العـربية وتبدع ،

فمـا زلنا لا نعى أن التقدم الحضارى يقوم علـى ما تنجزه الأمة من علم وليس من معارف أخرى ، والدليل لا نعطيه من الكتب الصفراء ، بل من أحداث اليوم ، فالأمة أنتجت صاحب جائزة نوبل ، والحاصل على الجائزة الخـاصة لمهرجان كان السينمـائى ، ومع ذلك لا تدل الشواهد على أننا سرنا خطوات بهذا الفوز على طريق التقدم .

ولذلك لا يجب أن نصر ، ونحن نستعـد لبناء ثقافة عربية جديدة تحملنا لخـوض معارك القرن الواحد والعـشرين الحضارية على أن نعـتمد كثـيراً على إنتاج المثـقفين العرب فى القرن العـشرين الأدباء والفلاسفة والفنانين - هذا فكر تقادم ، وكما يقول **توفلر** : **"إن الفكر الذى لا يساير الاتجاه إلى الموجة الثالثة (عصر المعلومات) سيصبح فى مزبلة التاريخ".**

وقبل أن يقول توفلر هذا ، يؤكد **زكى نجيب محمود** على أن حصيلة العلوم هى مقياس التقدم. وهى تنمو وتـتخلص باستـمرار من الخطأ . أما الآداب والفنون فكلمـة التقدم بـالنسبة لهـا ليست بذات معنى - فـقد لا يستطيع شـاعر من شعرائنا مـجاراة **أمرئ القيس** ، ولا أن يصل روائى إلى مستوى ذروة ألف ليلة وليلة ، والتقدم يكون فى معرفتنا العلمية .

إن المفكرين العرب راحوا يتـصورون أن ما يجمعونـه من مادة ثم يعيدون صياغـتها عن تاريخ الفلـسفة ونظريات النقد وأساسيات علـم الاجتمـاع يمكن أن يحولوه إلى ثقافة راقية تفيد فى التقدم العلمى والتقنـى ، ولكنهم فى النهاية لم يفعلـوا إلا أنهم أخرجوا ثقـافة ممسوخـة لا تصلح للقرن العشرين ، وأن التقدم فى الأدب والفلسفة وعلم الاجتماع مهما كان تقدماً عبقرياً لايصنع حضارة حديثـة ، والأدب مهـما كـان متـفوقـاً لا يقدم شـيئاً- ونسـوا أن فلاسـفة العلم ابتـداء من **بيكون وديكارت** ومروراً **بكانت وأوجست كونت** حتى نصل إلى **كون وكـارل بوبر** عايـشوا النهـضة والتنوير فى أوروبا . ومع ذلك فـإن أولئك بكل المقاييس لم يصـنعوا النهضـة فى أوربا . بل الذى صنعها هم فلاسفـة من نوع آخر كان يطلق عليهم فى بادئ الأمر الفلاسفـة الطبيعيون ، والآن هم العلماء فى العلوم الطبيعية ، فالعلم يتقدم بمفرده بدون كلمات **مونتسيكو وروسو وكارل ماركس وفولتير** وغيـرهم ، فهؤلاء اجـتهدوا فى مجـال آخر غيـر العلم بهدف جعل المجـتمع أكثـر عدالة ومساواة ولكن هذا موضوع آخـر ، ومع ذلك فهؤلاء لـم يحققوا شيئـاً فى مجالهم ، فظلت الثورة الصناعية تطحن العمال ، وتسحقهم ، وقامت الحربان العـالميتان ، وظهرت قوافل الاستعمار وقهر الشعوب الضـعيفة . وقامت الثورة الفـرنسيةوالبلشفيـة ، ومع نهاية الحرب العالمية الثانيـة تغير كل شىء ، أهم أسباب التـغير الآلة التى صنعها الفنيون والعلم الذى وراءها وأنتـجه العلماء ، والمواد

الخام التى نهبتها أوروبا من البلاد المستعمرة . لم تصنع كلمات **روسو** وأفكار **مونتيسكيو** ترسا فى عجلة مصنع أو طوّرت من عملية صناعية . ولم يقم فصل الدين عن الدولة فى أوروبا بعملية سارعت بالتقدم العلمى والتقنى ، بل فى أثناء هذا الفصل إذا كان قد حدث فعلاً ، زاد بطش أصحاب الأعمال بالعمال وبأسرهم ، وسيطرت فلسفة الفرد وانكمشت روح الجماعة والأسرة الواحدة المتماسكة . واليوم نقرأ فى الأدبيات أن الغرب أخذ يعيد التفكير فى هذه الفلسفات ويدرك حسب أفكار ما بعد الحداثة أنه ليس هناك نموذج مستمر . وأن كل شىء يجب أن يتفكك ، ولكن لا يعنى هذا كما يظن المفكرون العرب أن هذا شىء مطلق ، بل إنه يعنى سرعة التغيير ، تغيير النموذج بسرعة أكبر مما كان يتغير بها فى الماضى وهذا ما عبر عنه المهتمون بشئون التقدم ، بالتقدم الأُسى .

ولا يظن أحد أننا من أصحاب النزعة العلمية المتزمتة فالتاريخ علمنا أن النهضة العلمية الحديثة بدأت فى أوروبا بعد أن مهدت لها ثقافة القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ابتدأت النهضة العلمية بثورة **كوبرنيكس** وأفكار **بيكون** التى قطعت الطريق على الفلسفات القديمة وراحت ترسم الطريق للمستقبل .

وفى ظل تطور الفلسفات والأفكار التى راعت الواقع الأوربى وتفاعلت معه تم بناء مشروع ثقافى أدى إلى فرض الإرادة الشعبية .

ومن هنا ننتقد كل أفكار القرن الماضي - فى واقعنا العربى - التى فشلت فى إحياء الوعى وفرض الإرادة السياسية عن طريق المشاركة الجماهيرية العريضة فى اتخاذ القرار .

إن ما نعنيه فى المقام الأول أن المفكرين الأدباء العرب جاءوا بأفكار الغرب على هيئة قصص وأقاويل بعدت عن التفكير العلمى والتحليل المنطقى لواقع المجتمع ومشكلاته فى مقابل ما قدمه مفكرون آخرون أكثر علمية وتنويراً جاء على رأسهم زكى نجيب محمود ، جمال حمدان ، إسماعيل صبرى عبد الله ، محمود عبد الفضيل ، أنور عبد الملك ، حسام عيسى وآخرون كانت دعوتهم للتقدم والتحدى تستند إلى التجربة المعاشة فى كفاحنا ضد الاستعمار ومن أجل النهوض الاقتصادى ، وإلى المبادئ العلمية التى تعلموها وفهموها واستوعبوها . فزكى نجيب محمود عايش تجربة القومية العربية فتجاوب مع أحداثها وفهم منطقها العملى والعلمى . وحينما زار الكويت محاضراً فى جامعتها عاش تجربة التراث العربى قراءة واطلاعًا ، فأدرك أهمية التراث وربما أيضًا قوته ، فراح يعترف بذلك نادمًا على ما أضاعه من وقت دون أن يعطى التراث حقه فى

الدراسة والتمحيص ... وهو لم يشر أبدًا إلى أى تناقض بين التراث والعلم ، أو الدين والعلم وهكذا فعل الكثيرون .

قد لا يصل المفكر إلى الحقيقة ، وكيف يتعامل معها لأسباب خارجة عن إرادته ، فالعقل قد يخطئ إذا استولت عليه أوهام خادعة . وقد يدرك العقل الحقيقة ولكن صاحبه ينكرها إذا لم يكن على خلق - فالأخلاق هى الأداة الفاعلة فى تجسيد وتمكين إرادة استخدام العقل . ومن ثم فنحن نقول أن لا علم بدون أخلاق ، وبالطبع لا أخلاق بدون ثقافة . ولا ثقافة بدون تراث ، هذا تؤكده وجهة النظر الأنثروبولوجية للثقافة ، فالثقافة ثقافة شعبية ، جماهيرية وليست ثقافة نخبة تدير اللعبة فى معظم الأحيان حسب هواها ، إما لأنها فقدت السيطرة على أطراف المعرفة فعجزت على النظرة الشمولية إلى قطع المعرفة المجزأة ، أو أنها تخشى الدخول فى معركة مع السلطة فتسير فى ركابها تغالط وتخادع من أجل وضع اجتماعى مزيف والحفاظ على مكاسبها الشخصية .. والمشكلة فى مصر أن الفئة الأخيرة فئة عريضة . وهنا نؤكد مرة أخرى على المنهج العلمى لتناول هذه الظاهرة لمعرفة أسبابها ، وكيف نعالجها .

وهكذا يتبين أنه ليس هناك اختزال للمعرفة بل تأكيد على أن عناصر التقدم تكمن فى تطوير ثقافة الأمة وإيجاد المناخ الذى يساعد على الإنتاج والتحدى لقوى السيطرة العالمية بدلاً من الانزلاق فى حبال نظام عالمى صُنع خصيصًا ليساعد الأقوياء على افتراس الضعفاء .

وفى إطار كل ما كتبه الفلاسفة والتربويون والمفكرون ، وعلماء النفس والاجتماع ، والأنثرويولوجيا نجد أنه من غير المناسب أن نتكلم عن العلم اليوم من وجهة نظر اختزالية ، كما أنه من غير المقبول أيضًا أن نتبنى نظرية للمعرفة فى إطار ما يكتبه المتخصصون فى الفروع العلمية المختلفة فى انعزال بعضهم عن البعض ، فقد تداخلت العلوم وتشابكت إلى أقصى درجة ممكنة حتى أصبحت العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية فى شبه تكامل تام .

ولم يعد من المناسب ونحن نبنى نهضتنا الحديثة ونحاول فى بناء أسس التقدم أن نتكلم عن فلسفة العلم أو نظرية المعرفة على أساس ما كتبه الغربيون ونهمل تمامًا ماضياً عميقاً أوصلنا إلى حالتنا الراهنة . ومن المحتمل أن نجد فى دراسة التراث أسباب تخلفنا ، وإن لم نلمسها فلن يكون هناك أمل فى العلاج . وأسوأ ما فى الأمر أن نتقاعس عن دراسة التراث ونتركه للآخرين ليقوموا بمهمة إزالة الأتربة عنه ، ثم يقِّومونه ويخرجون بآراء عنه قد تكون منصفة أو مجحفة ، ونحن فى كلتا الحالتين نطيع ولا نعرف من حقيقة أمرنا شيئًا .

وما زلنا لا نعرف عن العلم الكثير وما حقيقة ثقافة العلم؟ هل هى نشر المعلومات المبسطة عن العلم ، أم أنها تسعى بالمواطن العربى إلى مستوى التفكير المجرد حتى يستطيع تحليل المواقف ، ما يجرى فى البلقان بوجه عام ، حصار أجزاء من الوطن العربى ، ما السبب الحقيقى لحصار الأمة ، ما النظام العالمى الجديد ؟! كيف نتعامل معه ؟! وإذا كتب كاتب عن الكونية ، والشرق أوسطية هل هو يكتب بطريقة علمية مجردة ، أم أنه يخدعنا لأنه يسير فى ركاب المستفيدين من نشر هذه الأفكار بقصد جر الأمة إلى مستقبل مجهول .

ما مفهوم القومية العربية ؟ وهل هو مفهوم مجرد يختلف تمامًا عن أن يعرف المواطن تركيب الذرة أو حالات المادة الثلاثة ، أو الثقوب السوداء أو عمليات الاستنساخ .

هل تستطيع الثقافة العربية أن تسهم فى بناء مواطن قادر على تحليل المشكلات المحلية : أسبابها وطرق علاجها وأن يشارك فى اتخاذ القرار ويكون وجهة نظره بالنسبة للمجتمعات الجديدة ، هل ساعدت فعلاً فى حل أزمة الإسكان والمواصلات والتلوث ؟ وما رأيه فى سياسة التعليم والبحث العلمي والرعاية الصحية والسياسة الخارجية وموقفنا من التكتلات العالمية ؟؟ وهل فعلاً اختفت هذه التكتلات لمصلحة النظام العالمى الجديد ، أم أنه مازالت هناك كيانات فاعلة قوية تمثلها الصين، واليابان ، وأوربا المتحدة ، وهى تتكيف مع النظام العالمى الجديد فى استقلالية تامة لقراراتها بالنسبة لشئونها الداخلية وسياستها الخارجية .

أسئلة كثيرة تحتاج الإجابة عنها إلى اللجوء إلى الدراسات العلمية الرصينة ، وهل يدخل فى ثقافة العلم اعتبار وجهة النظر هذه التى تتضمن تحليل المواقف ، أما أن ما نكتبه يظل نوعًا من الخيال العلمى أو الأدبى بعيدا جدًا عن أرض الواقع .

ولم تعد هناك فلسفة للعلم بل انتقل العالم الآن إلى ما يسمى علم العلوم ويتضمن فى أهم جوانبه استراتيجية التقدم العلمى وسياساته ، كما أنه لا يهمل بأى حال من الأحوال تاريخ العلم ، وبافتراض أن فلسفة العلم مازالت قائمة ، فهى تعنى بوجه عام السؤال عن كيفية وصول العلم إلى ما وصل إليه حتى الآن ، أى أنها دراسة للتاريخ ولكنها دراسة تفسيرية ونقدية تحاول أن تعرف كيف ؟ ولماذا ؟ وكما تقول **يمنى الخولى : «صاغ لاكاتوش المبدأ النافذ : «فلسفة العلم بدون تاريخه جوفاء ، وتاريخ العلم بدون فلسفة أحمق»**

ومع ما للتراث من أهمية أكد عليها معظم المفكرون الغربيون يجىء صاحبنا المفكر العربى ، ويصر على أن نحبس أنفسنا فى شرنقة لا نخرج منها أبداً ، حتى نتلمس الطريق فى محاولة لمعرفة

لماذا نحن على هذه الحال ، على مدى القرن المنصرم أشاع المفكرون العرب ما سموه فكر التنوير الغربى ، ونحن على أبواب قرن جديد نجد أنفسنا (محلك سِر) . بل أسوأ مما كنا فى بداية القرن ثقافة وفكراً ، وهم يصرون على التنوير دون أن يعطى كل منهم نفسه فرصة ولو بسيطة لتقويم حصاد ما قدمت أفكار القرن ، إننا نقرأ أن البيروقراطية فى مصر من أعرق البيروقراطيات حيث يتسم الحكم فى مصر بالمركزية القوية ، ثم يأتى الكتاب إلى العصر الحديث ليكتبوا عن عادات متأصلة فى الشعب المصرى تعبر عنها الأمثلة الشعبية معظمها يؤكد على روح القدرية والانهزام .

ألا تحتاج هذه الأمثال التى تعبر عن فكر متخلف إلى تعقب أصولها ، ربما يجرنا هذا إلى دراسة التراث الكامل لمصر ، ولا نقف فقط عند فترة الحكم الإسلامى بل تمتد الدراسة إلى العصر القبطى والفرعونى ، وربما دراسة مثل هذه تعطى رؤية شاملة واضحة لجذور العادات والتقاليد التى مازالت مغروسة فى ضمير الإنسان المصرى وأدت إلى برمجة عقله بهذه الطريقة التى تصده عن أى تقدم ملموس يمكن أن يحدث فى عصر العلم والتقنية ، ولعل دراسة التراث تساعدنا على إعادة برمجة عقولنا .

قد يخشى الكثيرون فى مصر الدعوة إلى إحياء التراث خوفًا من أن يؤدى هذا الطريق إلى تقوية التيار الإسلامى المتعصب . وهم لا يقولون بذلك صراحة بل بكل أساليب اللف والدوران .

ونقول لهؤلاء : إن المسألة لم تعد أن أعداء الإسلام فقط هم الذين يخشون من تسلط فئة المسلمين على رقاب هذه الأمة ، بل إن جميع العقلاء يدور بخلدهم هذا الهاجس وهو تحكم طغمة من المفسدين باسم الدين ، وتجنب هذا الوضع صعب للغاية ، لأن الشواهد تدل حتى الآن أننا مازلنا فى ظل حكم الوصاية على الأمة لا نمارس الديمقراطية ، وحتى إذا نظرنا إلى سلوك هؤلاء الذين يدعون للتسامح والتعددية نجدهم أكثر الناس تعصبًا لآرائهم ، يمارسون أبشع أنواع الإرهاب الفكرى لأنهم يعطون لأنفسهم الحق فى ، **أولاً** : أنهم يملكون كل الحقيقة ، **ثانياً** : أنهم جعلوا من أنفسهم أوصياء على الأمة ، ناهيك عن مناصرتهم للأنظمة العربية الفاسدة والسيطرة الأجنبية . ومن هنا لا تجد الديمقراطية من يناصرها لا من هذا الجانب ولا من ذاك .

لقد أبقى المفكرون العرب فى القرن المنصرم على اليوتوبيا التى لا تتعدى كونها شعارات خادعة عن التسامح والدولة المدنية والعولمة والنظام العالمى الجديد ، والسلام والشرق أوسطية ، وحوار الحضارات ولقاء الأديان والتأويل والإصرار على تقليد الغرب فى نقد الأديان . وما عملوا بشعاراتهم الخادعة إلا أنهم أماتوا ضمير الأمة . مات ضمير المصرى القديم ، وضمير المسلم

العربى الوسيط ، وجاءوا بضمير مفكر الحداثة وما بعد الحداثة . وجاءت معه الخيانة لفرضهم كما يقول شكرى عياد : **مفاهيم وممارسات منقولة عن الثقافات الغربية ، وبما أن الناقل لا يمكنه أن يكون أمينًا كل الأمانة مهما يحاول ذلك ، ومهما يزين كلامه أو يرصعه بنصوص غربية أو مراجع غربية، فهو أول من يعرف أن كل قراءة هى بالضرورة نوع من التشوه** . وقد يقول البعض أن السبب فى ذلك هو عدم الاجتهاد والمثابرة على البحث العلمى واستسهال النقل ، ونحن مع كانط يمكن أن نقول بأن السبب لعدم الوصول إلى الحقائق العلمية هو غياب الإرادة الأخلاقية ولسنا مع كانط حينما يقول إن الأخلاق هى الهاتف الفطرى الذى يستلهمه الإنسان فى حياته . وهى بلغة جان جاك روسو ذلك القانون الخالد المحفور فى ضمير الإنسان يهديه إلى سواء السبيل ويجعله قادرًا على التمييز بين الخير والشر دون حاجة الالتجاء إلى أية تجارب سابقة أو إعمال العقل ، لقد نشأت هذه التعاريف فى المجتمع الأوربى نتيجة الإشكالية السائدة فى القرن الثامن عشر كرد فعل للصراع بين الديانة التقليدية ، وظهور مبدأ التأليه وبنائه على أسس العلم الصارمة ، والنظر إلى الدين على أنه لا ينبغى بأية حال من الأحوال أن يكون المرجع الذى يحتكم إليه الإنسان فى صياغة الأخلاق ، ولهذا يرى كانط أنه ينبغى على الدين أن يتمشى مع الأخلاق لا أن تتمشى الأخلاق مع أحكام الدين . وحاول الناقلون عن الغرب أن يطبقوا أفكار كانط ، فكانت النتيجة أنهم ذهبوا بالأخلاق والعلم لأنهم لم يفهموا أن طبيعة المجتمع الذى ظهرت فيه فلسفة كانط غير طبيعة مجتمعنا .

والأخلاق لا تنمو عندنا فطرية كما قال فلاسفة القرن الثامن عشر ، لأنها تنبع من إيمانية راسخة وكان المصرى العظيم يقول وهو يقابل الإله المقدس ، أنا لم أرتكب خيانة زوجية ، وأنا لم أقتل ، ولم ألوث مياه النيل . هكذا تنبثق الأخلاق ، وهى تضعف مع إهمال ثقافتنا الموروثة . ومن هنا يتأكد لنا لماذا ينكر الكثيرون من المفكرين عندنا الحقيقة العلمية الواضحة التى يصل إليها العقل بسهولة ، هذا لأن صاحبه تنكر للأخلاق ، أو لأن الأخلاق ضعفت فى تكوينه . وبذلك كما قلنا سابقًا ضاعت الحقيقة .

ويجب إذًا أن نفرق - بعيدًا بالطبع عن النظرة الاختزالية للعلم التى يظن الكثيرون أننا من أنصارها - بين العلم والثقافة . فالعلم يمكن استيراده إذا عجزنا عن صناعته ، أما الثقافة فهى ناتج محلى تقنى بالفعل عبارة عن سلوك ، علاقات بين الأفراد ، ومؤسسات عملية وبحثية .. إلخ وإدارة وإبداع ، وتدريب على التكيف مع العلوم التقنية المتطورة ، ومعرفة تطويعها وتطويرها وإنباتها كلما أمكن ، والأهم فى كل ذلك بناء إرادة قوية ، تعمل على تعويد النفس العمل

والتضحية والالتـزام والانتماء ، والأمانة والصدق ، والحرية والممارسة الديمقـراطية ، والمشاركة فى اتخاذ القرار .

ما يمكن أن نستورده لكى نحي هذه الثقافة ؟! قد نخطئ كثيرًا إذا سرنا طويلاً ونحن نصر على استيراد الفلسفات الغربية التى تفيدنا فى مستـوى الفكر المجرد بعيدًا عن الممارسة السياسية الفاعلة فى تسيير أمور المجتمع نحو الوجهة الصحيحة وكما قال نيتشه :

«ولما كانت الفلسفة تسعى دومًا إلى خلق عالمها الخـارجى على شاكلتها ، فإنها بهذا الطغيان لا تتحرج أن تحول قضية السياسة إلى محاور جدلية معرفية فحسب» .

والكلمة الأخيرة أن ممارسة الفلسفة ليس لها معنى والجماهير المغيبة داخل أرضها لا تشارك فى الحياة الثقافية والسياسية والاقتصادية ، تعيش فى عالـم الفقر الذى يعتمد على مراكز قوى أجنبية .

الفهرس

المؤلف فى سطور..

- بكالوريوس علوم . قسم الكيمياء ١٩٥٧ . جامعة القاهرة .
- حاصل على دكتوراة فى الكيمياء من جامعة ليون - فرنسا ١٩٦٨ .
- منذ حصوله على الدكتوراة قام بالتدريس فى كلية العلوم جامعة القاهرة ، وفى بعض الجامعات العربية والأجنبية مثل : جامعة الإمارات (الإمارات) ، وجامعة مانشستر (إنجلترا) .
- ساهم بجهد كبير فى تطوير المناهج التربوية ونشر الثقافة العلمية فى مصر وعلى مستوى الوطن العربى .
- يشارك فى العديد من الجمعيات الثقافية والعلمية مثل : نقابة المهن العلمية ، وجمعية التقدم التكنولوجى وله نشاطه الكبير فى المجال السياسى والتربوى .
- عمل خبيراً فى المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم وفى مؤسسات تعليمية وعلمية أخرى فى الوطن العربى .
- أسس عدة مجلات منها : العلم والتقنية ، والتدخين والصحة .. وراجع العديد من الكتب والمقالات المنشورة فى الوطن العربى .
- له أكثر من عشرين كتاباً منها : تشجيع البحث العلمى ، الإعلام والتوعية العلمية ، أضواء على البيئة ، والتنوع الإحيائى .. ونشر أكثر من ١٥٠ مقالاً فى الصحف والمجلات العربية منها : عالم الفكر ، مجلة العلوم (منظمة التربية والثقافة والعلوم العربية «ألكسو») ، مجلة العربى الكويتية ، مجلة سطور .
- حاصل على جائزة الدولة التشجيعية فى التنمية والبيئة ١٩٩٥ .
- يناضل من أجل المشروع القومى ، ولا ينتمى إلى أى اتجاه سياسى ويتقبل الرأى الآخر شريطة أن يكون صاحبه مخلصاً منتمياً لوطنه ولأمته .
- يؤمن بأن أزمة التخلف فى المجتمعات العربية أزمة ثقافية فى الأساس . وأن النخبة أهم أسبابها ؛ وعليه فهو يتوجه الآن بالكتابة إلى الجماهير .

من قائمة إصدارات
مركز الحضارة العربية

العنوان	المؤلف
موسوعة تاريخ حضارات العالم	ترجمة زينات الصباغ
أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث	صلاح زكي
حوارات الزمن الصعب	محمد همام
تاريخ العلم	د. عبد الحكيم بدران
العلوم للجماهير	باربارا كاستيل ترجمة د عبد الحكيم بدران
رسالة إلى العقل العربي "مدخل إلى فلسفة عربية للعلم"	د. عبد الحكيم بدران
خيانة المثقفين	د. عبد الحكيم بدران
صراع الحضارات (إثبات الأنا ونفي الآخر)	شعيب عبد الفتاح
عالم المعلومات الجديد	ديرتوزوس ترجمة : بهاء شاهين
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغني
حقيقة الغرب	د. مصطفى عبد الغني
صورة العرب في الغرب	د. عزة علي عزت
خفايا المستقبل الى أين تمضي البشرية واين موقعنا	محمد الحديدي
المياه العربية بين خطر العجز ومخاطر التبعية	عبد الله العقالي
الصراع البيوتكنولوجي بين العرب وإسرائيل	د. وجدي سواحل
العرب وإسرائيل .. ميزان القوى ومستقبل المواجهة	د محمد عبد الشفيع عيسى
السلام الإسرائيلي (قراءة في المشروعات الاسرائيلية)	حسين معلوم
السوق الشرق أوسطية (من هرتزل إلى باراك)	إكرام عبد الرحيم
البديل الإسرائيلي للعروبة	سيد زهران
مشروع للانتحار القومي !	مصباح قطب
السلام القاتل	محمد خليفة
أوهام السلام	عبد الخالق فاروق
في جنازة المقاطعة العربية لإسرائيل	شفيق أحمد علي
الملف السري للسادات والتطبيع	شفيق أحمد علي
مخابرات ومخدرات	شفيق أحمد علي
عبادة الشيطان علي ضفاف النيل	حسين عبد الواحد
الماسونية	خليل إبراهيم حسونة
الحركات الهدامة	خليل إبراهيم حسونة
الصهيونية السياسية	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة
الاستيطان الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة
الإرهاب الأمريكي	خليل إبراهيم حسونة
القدس	خليل إبراهيم حسونة
حماس .. حركة المقاومة الإسلامية	خالد أبو العمرين
يهود ضد إسرائيل	ياسر حسين
حلف الضحية والجلاد	ترجمة : زينات الصباغ
غزة أريحا - المأزق والخلاص	عبد القادر ياسين
غزة أريحا - التسوية المستحيلة	جورج المصري
صفقة التسوية الأردنية الإسرائيلية	د. السيد عوض
أساطير التوراة	عاطف عبد الغني
التناقض في تواريخ وأحداث التوراة	محمد قاسم
بروتوكولات حكماء صهيون	
التلمود	
الحرب العالمية الرابعة	ياسر حسين
القوة العسكرية الإسرائيلية	جمال الدين حسين
سقوط نجم مخابرات إسرائيل	جمال الدين حسين
عملية السرب الأحمر	جمال الدين حسين
الاختراق الإسرائيلي لمصر	طارق رضوان
الاختراق الإسرائيلي للزراعة في مصر	صلاح بديوي
اختراق الأمن الوطني المصري	عبد الخالق فاروق
أسرار الجاسوسية ولعبة المخابرات	يوسف هلال
الجماعات السياسية الاسلامية والمجتمع المدني المصري	د أحمد حسين حسن
جماعات المصالح المصرية والسلطة السياسية	د. أحمد فارس
أزمة الانتماء في مصر	عبد الخالق فاروق
التطرف الديني ومستقبل التغيير في مصر	عبد الخالق فاروق
كارثة المعونة الأمريكية	جمال غطاس
قضية لوكيربي وأحكام القانون الدولي	د. ميلود المهذبي
أزمة لوكيربي والخروج من بيت الطاعة الامريكي	د. السيد عوض
العلاقات الليبية - الأمريكية	د. السيد عوض
بان أمريكان ١٠٣ (اتهام ليبيا أم اتهام أمريكا)	مجموعة باحثين
حلايب .. نزاع الحدود بين مصر والسودان	أحمد محجوب
الإخوان والعسكر	حيدر طه
القوى الخارجية والاتجاهات الإقليمية في السودان	د. السيد فليفل
نظم الحكم العنصرية في جنوب أفريقيا	د. السيد فليفل
الشيشان	عمرو ناصف
أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
رئيس علي موعد مع الموت	خالد عمر بن ققه
الإسلام والعرش	سيد زهران
من يحمي عروش الخليج (النفط والتبعية)	د أحمد ثابت
إعدام صحفي	سعيد حبيب
الكرامة الضائعة	حمادة إمام
الإخوان والأمريكان من المنشية إلى المنصة	حمادة إمام
عبد الناصر واليمن	د. عبد العزيز المقالح
عبد الناصر .. هذا المواطن	سليمان الحكيم
حوارات عن عبد الناصر	سليمان الحكيم
عبد الناصر .. والإخوان (أسرار العلاقة الخاصة)	سليمان الحكيم
المرأة التي أحبها عبد الناصر	شفيق أحمد علي
ظل الرئيس (مذكرات محمود الجيار مدير مكتب ناصر)	عزازي علي عزازي
عبد الناصر وعبد الحليم والزمن الجميل	حسن صابر
البديل الناصري (قراءة في أوراق التنظيم الناصري)	سيد زهران
عن الناصرية والناصريين (حوار مع د. الأتاسي)	مجدي رياض
الأقليات التاريخية في الوطن العربي	د. أحمد الصاوي
الناصرية والتاريخ	سيد حسان
الناصرية .. الأيديولوجيا والمنهج	سيد زهران
التنمية المستقلة في النموذج الناصري	جورج المصري
فلسطين الانتفاضة .. جدل الوطن والأمة	د. أحمد ثابت
كاريزما الزعامة الناصرية	د. السيد الزيات
الناصرية والتجديد	مجدي رياض
ناصرية جمال عبد الناصر	جورج المصري
ناصرية الناصرية الغائبة	جورج المصري
أسرار وخفايا ثوار يوليو	محمد متولي
برلنتي والمشير (القصة الحقيقية)	محمد متولي/ سيد زهران
السادات كما عرفته	سعد الدين وهبة
عشرون كتاباً من القرن الـ ٢٠	محمد الحديدي
حوار الطرشان	محمد وهبة
وقفات عبر سنوات التراجع	محمد وهبة

الصحافة المشبوهة	سيد محمود
أسرار الخلق والروح والبعث بين القرآن والهندسة الوراثية	هشام كمال
الحركة الإسلامية في مصر "دراسة موسوعية"	صالح الورداني
الحركة الإسلامية في مصر	صالح الورداني
الكلمة والسيف "محنة الرأى فى تاريخ المسلمين"	صالح الورداني
عبود الزمر .. حوارات ووثائق	أحمد رجب
الله واحد في الإنجيل	محمد عطا الرجم ترجمة : عادل حامد
المسيحية والإسلام	حسين السيد
الحكومة والسياسة في الإسلام	ترجمة : سيد حسان
الوجيز في بداية التكوين	عبد العزيز محمد ، مصطفي الحولي
رسالة التوحيد للإمام محمد عبده	تحقيق د. محمد عمارة
الإسلام والعروبة	مجدي رياض
الوطن وحقوق غير المسلمين	محمد محمود عبد الله
كيف تقرأ القرآن	محمد محمود عبد الله
كيف تجود القرآن	محمد محمود عبد الله
كيف تحفظ القرآن	محمد محمود عبد الله
التربية الإسلامية	محمد محمود عبد الله
القرآن : حل مشاكل الأمة	محمد محمود عبد الله
قبس من نور الأسماء	محمد محمود عبد الله
الأحرف السبعة وأصول القراءات	محمد محمود عبد الله
صوموا تصحوا (الصيام والصحة)	محمد محمود عبد الله
الأيام المباركة في القرآن والسنة	محمد محمود عبد الله
علمني يا أبي (حوار حول رسالة الصلاة)	حسن سليمان
قيثارة السماء "الشيخ محمد رفعت"	محمود توفيق
حروب المشايخ	أحمد الدسوقي
أمن وحماية البيئة	خالد القاسمي / وجيه العيبي
ما هي السينما	صلاح أبو سيف
الفيلم والمعمل	د. عمت عبد العزيز
قضايا المونتاج المعاصر	د. عمت عبد العزيز
الصوت والضوضاء	د. مصطفي عبد المطلب
المواد شبه الموصلة ودورها	د. مصطفي عبد المطلب
كيف تجيد "Word 97"	م. أحمد ظريف المعاني
كيف تجيد "Word 2000"	م. أحمد ظريف المعاني
الأعشاب الطبية	د. موسي الخطيب
الإبر الصينية في العلاج والتخدير	د. لطفي سليمان
الصراع البيوتكنولوجى بين العرب وإسرائيل	د. وجدى سواحل
الهندسة الوراثية (السلسلة العلمية)	د. وجدى سواحل
مصانع الأعضاء البشرية (السلسلة العلمية)	د. وجدى سواحل
بنك الجينات (السلسلة العلمية)	د. وجدى سواحل
زخرفة الخط العربى	د. أبو الحمد فرغلي
المساجد الألفية في الإسلام	د. أحمد الصاوي
معالم في تاريخ حضارة آسيا الوسطى	د. أحمد الصاوي
النقود المتداولة في مصر العثمانية	د. أحمد الصاوي
النقود الإسلامية في مصر	د. رأفت النبراوي
كشف المستور من قبائح ولاة الأمور (تراث)	د. أحمد الصاوي
رمضان .. زمان	د. أحمد الصاوي
اعترافات الأميرة جيهان	ماجدي البسيوني
الجنس والشباب الذكى	كولن ولسون ترجمة أحمد عمر شاهين
تجارة الجنس	جاري جوردون ترجمة زينات الصباغ
صناعة النجوم	سكوت أونيل ترجمة زينات الصباغ

أشهر فضائح القرن العشرين	حسن صابر
أسوا حكام القرن العشرين	حسن صابر
نجوم في الوحل	حسن صابر
الأميرة العارية وعرش سيئ السمعة	حسن صابر
رؤساء أمريكا في الوحل	حسن صابر
أميرة علي قائمة الاغتيال	محمد رجب / حسين عبد الواحد
أمريكا .. الانهيار السياسي والأخلاقي	حسين عبد الواحد
بنات إبليس (نساء في مملكة الشر)	حسين عبد الواحد
التفسير الجنسي للتطرف	حسين عبد الواحد
التطرف والعنصرية علي الطريقة الامريكية	حسين عبد الواحد
الأطباق الطائرة	حسين عبد الواحد
حسناء البنوك ومعالي الوزير	أسامة الكرم
أسرار ما وراء الجنس	كمال عبد الرسول
كنز المعلومات	كمال عبد الرسول
تسلية ثقافية للكبار والصغار	أحمد عمر
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقًا	أحمد عمر شاهين
الثلاثية الروائية	د. أحمد إبراهيم الفقيه
وقائع غرق السفينة	إدريس على
واحد ضد الجميع	إدريس على
المبعدون	إدريس على
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
حذاء السيد المنسى	أشرف العوضى
عندما تبيض الديوك	أمجد صابر
لا أحد يحبك	أمانى فهمى
ألم يخلقها الله امرأة	أمين العزب
مأساة أسرة	أمين العزب
دنا فتدلي (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
دموع إيزيس	حسنى لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
يومية هروب	خيرى عبد الجواد
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب أطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نمنم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
التوهمات	خيري عبد الجواد
الطريق والعاصفة	رأفت سليم
في لهيب الشمس	رأفت سليم
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
أنا ونورا وماعت	رفقي بدوي
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
حبيبي يا ناس	سليمان كابوه

العنوان	المؤلف
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
أيام القرية الأخيرة	صالح سعد
الدميرة	د. عبد الرحيم صديق
جسد في ظل	عبد النبي فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلي	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحد	عبده خال
صَعيدي صنح	د. عزة عزت
الشاعر والحرامي	عزت الحريري
في انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيري
سراديب	عفاف السيد
إينارو	د. علي فهمي خشيم
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحي سلامة
شقيقة .. وسرها الباتع	فؤاد قنديل
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوي
وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
حب وظلال	كوثر عبد الدايم
ترانزيت	ليلى الشربيني
مشوار	ليلى الشربيني
الرجل	ليلى الشربيني
رجال عرفتهم	ليلى الشربيني
الحلم	ليلى الشربيني
النغم	ليلى الشربيني
الخرابة ٢٠٠٠	محمد الشرقاوي
كوميديا الانسجام	محمد بركة
أشياء لا تموت	محمد صفوت
الحاج	محمد عبد السلام العمري
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمري
لوحة ممنوع	محمد علي سعد
الخروج إلي النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتي الساخنة	محمد محي الدين
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
خلف الأبواب المغلقة	د. محمود دهموش
الهروب مع الوطن	ممدوح القديري
فوق لهيب الشموع	ممدوح القديري
ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
دم الأبنوس	ناجي الشكري
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد

العنوان	المؤلف
الحضور في غياب قرط اللؤلؤ	نهلة السوسو
ديسمبر الدافئ	هدى جاد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
وانهار الدب الأحمر	ياسر عبد التواب
فرد حمام	يوسف فاخوري
أنا كنده	كيروجا ترجمة . رزق أحمد
تحولات الجحش الذهبي	لوكيوس أبوليوس ترجمة د علي فهمي خشيم
الحواس	أتالو كالفيو ترجمة محمد عيد إبراهيم
هذه الليلة الطويلة (مسرحية)	د. أحمد صدقي الدجاني
الدمية والدم (مسرحية)	أنور عبد المغيث
عريس لبنت السلطان (مسرحية)	محفوظ عبد الرحمن
محرقة سافونا رولا (مسرحية)	ميلاد حكيم
اللعبة الأبدية .. (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
مملكة القرود (مسرحية)	محمود عبد الحافظ
رويداً باتجاه الأرض	إبراهيم زولي
قصائد حب من العراق (البياتي وآخرون)	إعداد : شينة الناصري
لا تدعني أرتحل	حنان عبد القادر
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطي
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطي
تماماً إلى جوار جثة يونسكو	رشيد الغمري
كأنها نهاية الأرض	رفعت سلام
تصبح علي خير	سعدني السلاموني
الألوان ترتعد بشراهة	شريف الشافعي
صلاة المودع	صبري السيد
دنيا تناديني	طارق الزياد
تلف	ظبية خميس
البحر . النجوم . العشب في كف واحدة	ظبية خميس
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافي
حواديت لفندي	عصام خميس
سيرة الماء	د . علاء عبد الهادي
راتب الألفة	علوان مهدي الجيلاني
إضاءة في خيمة الليل	علي فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
أحوال الفتي الطائر	فاروق خلف
بيت يمر بالبراري	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوي
اذهب قبل أن أبكي	د . لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدي رياض
مشاعر همجية	محسن عامر

دائماً ينكسر الحلم الذى يراودنا ونحن نحاول النهوض. فبعد الصعود فى عصر محمد على، حدث الانكسار، ويظل الحلم حتى تصورنا أننا نقوم من جديد مع ثورة يوليو، وما يلبث أن يضيع مع أحداث يونيو ١٩٦٧، وما أن تبدو بادرة أمل مع حرب أكتوبر حتى ينكسر الحلم مرة أخرى ونحن نذهب بعيداً عن جنى حصاد النصر. نحن أمام قضايا داخلية وخارجية بالغة الخطورة، وكان من واجب كل مثقف أن يتخذ منها موقفاً محدداً واضحاً، يتخذه حسب مرجعية تؤكد على هوية المجتمع ورسالته غير أن السيولة والميوعة فى مواقف المثقفين جرتنا إلى حالة من التمزق، استفاد منها العدو الخارجي، وفقدنا روح التماسك والالتزام والانتماء، وأصبحنا من جديد تحت حصار صليبى دون جيوش، سهل مهمته طابور خامس من جنسنا، سلمنا فريسة سهلة لقوى الهيمنة. ولايجب أن نُخدع بما يقال بأن مانحسبه خيانة ماهو إلا تعبير عن الرأى الآخر. فالمطالبون بالتطبيع مع العدو الإسرائيلى أو ما يطبقونه فعلا إن لم يخونوا الأمة بالمعنى الحرفى، فقد خانوا عهداً أخذه المثقفون على أنفسهم، وإذا كانت الدعوة إلى الحوار مع السلاميين الإسرائيليين تدخل فى نطاق حرية الرأى فهل تمثل الدعوة إلى احتفالية مرور مائتى عام على الحملة الفرنسية على مصر تعبيراً أيضاً عن الرأى، أم ينطبق عليها قول أحد الأصدقاء «اللى مايلحقش أمريكا يلحق فرنسا». ويبدو الآن أن الخيانة أصبح يُعبر عنها بوجهات النظر !!

